

مكتبة دار الفکر
مطبعة دار الفکر

صفوة الصّحيح من سيرة النّبي الأعظم ﷺ

التلخيص والتحقيق:
علي بن أبي طالب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صفوه الصحيح من سيره النبي الاعظم صلى الله عليه و آله

كاتب:

سيد جعفر مرتضى حسيني عاملی

نشرت في الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٧	صفوه الصحيح من سيرهالنبي الاعظم صلى الله عليه و آله
١٧	اشاره
١٧	اشاره
٣٣	مقدمه
٣٥	المقدمه
٤٢	مميزات أساسية في تاريخ الإسلام المدون
٤٣	البداية الطبيعية لتاريخ الإسلام
٤٥	القسم الاول ماقبل البعثة
٤٥	اشاره
٤٧	الفصل الاول ما قبل ميلادالنبي (ص)
٤٧	اشاره
٤٩	الوضع الجغرافي لشبه جزيرة العرب
٥٠	الحضر في شبه جزيرة العرب
٥١	الحالة الاجتماعية عند العرب
٥٢	المرأة في الجاهلية
٥٣	حالة العرب الجاهلية في منظار أميرالمؤمنين
٥٤	نسب النبي (ص)
٥٤	إيمان آباء النبي (ص) إلى آدم (ع)
٥٤	بعض الأدلة على إيمانهم
٥٩	الفصل الثاني عهد الطفولية
٥٩	اشاره
٦١	مولد النبي (ص)

- ٦٢ تعقيب هام
- ٦٣ مصير الدار التي ولد (ص) فيها
- ٦٣ رضاعه (ص)
- ٦٦ فقد التبي (ص) لأبويه
- ٦٧ كفيل التبي (ص)
- ٦٨ الرحلة الأولى إلى الشام
- ٦٨ رعيه الغنم
- ٧١ الفصل الثالث خديجه في بيت النبي (ص)
- ٧١ اشاره
- ٧٣ السفر الثاني إلى الشام
- ٧٤ زواجه بخديجه
- ٧٦ خطبة أبي طالب (ع)
- ٧٧ مهر خديجه
- ٧٧ عمر خديجه حين الزواج
- ٧٩ هل تزوج (ص) خديجه طمعا في مالها؟
- ٧٩ هل تزوجت خديجه بأحد قبل التبي (ص)؟
- ٨٣ الفصل الرابع حتى البعثة
- ٨٣ اشاره
- ٨٥ حضور التبي (ص) حرب الفجار
- ٨٦ جلف الفضول
- ٨٧ ملاحظات على جلف الفضول
- ٨٨ ولادة الزهراء (ع)
- ٩١ بماذا كان يدين التبي قبل البعثة؟
- ٩٥ القسم الثاني من البعثة حتى الهجره

- ٩٥ اشاره
- ٩٧ الفصل الدهوه فى مراحلها الامولى
- ٩٧ اشاره
- ١٠١ أول من أسلم
- ١٠٣ مراحل الدعوة
- ١٠٥ قريش و مرحلة ما قبل الإعلان
- ١٠٧ الفصل الثانى إنذارالعشيره
- ١٠٧ اشاره
- ١١٠ نقاط هامة فى حديث الإنذار
- ١١٠ ألف. لماذا تخصيص العشيرة بالدعوة؟
- ١١١ ب. على (ع) فى يوم الإنذار
- ١١٢ ج. موقف أبى طالب (ع)
- ١١٣ د. موقف أبى لهب
- ١١٣ ه. الإنذار أولًا
- ١١٥ الفصل الثالث حتى الهجره الى الحبشه
- ١١٥ اشاره
- ١١٧ فاصدع بما تؤمر
- ١١٨ المفاوضات الفاشلة
- ١٢٠ ماذا بعد فشل المفاوضات؟
- ١٢٢ المعذبون فى مكّة
- ١٢٥ الفصل الرابع هجره الحبشه
- ١٢٥ اشاره
- ١٢٧ لابدّ من حلّ
- ١٢٧ سرّ اختيار الحبشة

١٢٩	الهجرة إلى الحبشة
١٣٠	محاولة قريش اليائسة
١٣٢	قريش و خططها المستقبلية
١٣٤	عودة بعض المهاجرين
١٣٥	الفصل الخامس في شعب أبي طالب (ع)
١٣٥	اشاره
١٣٧	المقاطعة
١٣٩	أموال خديجة و سيف على
١٤٠	نقض الصحيفة
١٤١	حنكة أبي طالب و إيمانه
١٤٢	ما بعد نقض الصحيفة
١٤٣	عام الحزن
١٤٥	الفصل السادس حتى بيعه العقبة
١٤٥	اشاره
١٤٧	لابد من تحرّك جديد
١٤٧	الهجرة إلى الطائف
١٤٨	نكات هامة
١٤٨	١. الطائف و علاقاتها بمن حولها
١٤٩	٢. الإسلام دين الفطرة
١٥٠	٣. هل كان هذه سفرة فاشلة؟
١٥٠	عرض الإسلام على القبائل
١٥١	بنو عامر بن صعصعة و نصره التبيي (ص)
١٥١	اشاره
١٥٢	١. الأمر لله

١٥٣	٢. الدين و السياسة
١٥٣	٣. نتائج عرضه (ص) دعوته على القبائل
١٥٤	دخول الإسلام إلى المدينة
١٥٤	اشاره
١٥٥	١. إخبارات أهل الكتاب
١٥٦	٢. المشاكل بين الأوس و الخزرج
١٥٦	٣. تعاليم الشريعة السمحاء
١٥٧	٤. المدنيون و المكثون
١٥٩	الفصل السابع بيعه العقبه
١٥٩	اشاره
١٦١	بيعه العقبة الأولى
١٦٢	مميزات البيعة
١٦٢	بيعه العقبة الثانية
١٦٧	الفصل الثامن هجره المسلمين الى المدينة
١٦٧	اشاره
١٦٩	ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة
١٧١	سر اختيار المدينة
١٧٧	القسم الثالث من الهجره حتى الرحله
١٧٧	الفصل الاول هجره الرسول الاعظم (ص)
١٧٧	المؤامرة
١٧٨	مبيت على (ع) و هجرة النبي (ص)
١٨٠	قريش في طلب النبي (ص)
١٨٢	من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله؟!
١٨٣	الفصل الثاني الى المدينة

١٨٣	اشاره
١٨٥	فى الطريق إلى المدينة
١٨٧	تأسيس مسجد قبا
١٨٩	الفصل الثالث: أعمال تأسيسية فى مطلع الهجرة
١٨٩	اشاره
١٩١	ورود التبي (ص) المدينة
١٩٢	القيام بأعمال تأسيسية
١٩٢	اشاره
١٩٢	١. بناء المسجد
١٩٢	اشاره
١٩٣	لماذا المسجد أولاً؟
١٩٥	٢. المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار
١٩٥	اشاره
١٩٦	مؤاخاة التبي (ص) لعلى (ع)
١٩٧	مع قضية المؤاخاة
١٩٧	ألف. تواتر حديث المؤاخاة
١٩٨	ب. البديل الأنسب
١٩٨	ج. السمو بالعلاقات الإنسانية
١٩٩	د. دور المؤاخاة فى بناء المجتمع الجديد
١٩٩	٣. أسس العلاقات فى المجتمع الجديد
٢٠٣	موادعة اليهود
٢٠٥	الفصل الرابع: معركة بدر
٢٠٥	اشاره
٢٠٧	غزواته (ص) و سراياه

٢٠٧	غزوة بدر
٢٠٨	الانتداب إلى بدر
٢١٠	التبى (ص) يستشير فى أمر الحرب
٢١٢	عدّة و عدد المسلمين و المشركين
٢١٣	فى المواجهة
٢١٥	الملائكة فى بدر
٢١٧	نتائج الحرب
٢١٧	بطولات على (ع)
٢١٩	الغنائم و الأسرى
٢٢٢	فداء الأسير تعليم الكتابة
٢٢٣	عودة خيبة و ظفر
٢٢٤	بعض نتائج حرب بدر
٢٢٩	الفصل الخامس غزوة أحد
٢٢٩	أجواء و مواقف
٢٢٩	جيش المشركين إلى أحد
٢٣٠	التبى (ص) يستشير أصحابه
٢٣٢	عقد الألوية
٢٣٤	عدّة و عدد المسلمين
٢٣٥	التعبئة للقتال
٢٣٥	نشوب الحرب، و قتل أصحاب اللواء
٢٣٦	الهزيمة بعد التصر
٢٣٨	لماذا كانت الهزيمة؟!
٢٤٠	عودة المسلمين إلى القتال
٢٤٢	من مشاهد الحرب

٢٤٣	بعد ماهبت الزياح
٢٤٥	الضلاة على الشهداء و تغسيلهم و دفنهم
٢٤٦	عدد الشهداء و القتلى
٢٥١	الفصل السادس غزوة الخندق
٢٥١	موجز عن غزوة الخندق
٢٥١	اشاره
٢٥٣	١. أهداف الحرب
٢٥٤	٢. المشورة و التخطيط
٢٥٧	٣. أين كان الخندق و ما هى مواصفاته؟
٢٦٠	٤. عُدة و عدد الجيشين
٢٦٢	٥. الحصار و القتال
٢٦٣	٦. ضربة على (ع) يوم الخندق تعادل عبادة الثقلين
٢٦٦	٧. الشهداء و القتلى
٢٦٩	الفصل السابع بيعه الرضوان
٢٦٩	إلى الحديبية
٢٧٢	اتصالات و مداولات
٢٧٤	رسول التبي (ص) إلى مكة
٢٧٥	بيعه الرضوان
٢٧٦	النساء و البيعه
٢٧٨	عهد الحديبية
٢٨٠	صلح الحديبية أعظم الفتح
٢٨١	نتائج و آثار
٢٨٧	الفصل الثامن غزوة خيبر
٢٨٧	تقديم

- ٢٨٨ ماذا عن خيبر؟
- ٢٨٨ تاريخ غزوة خيبر
- ٢٨٩ وصول رسول الله (ص) إلى خيبر
- ٢٩١ قُتل على (ع) مرحباً
- ٢٩٤ على (ع) قانع باب خيبر
- ٢٩٦ ما قلعتة بقوة جسمانية
- ٢٩٧ استقبال النبي (ص) لعلي (ع) بعد الفتح
- ٢٩٨ خيبر بين الفتح و الصلح
- ٢٩٨ موقف النبي (ص) من يهود فدك
- ٢٩٩ قدوم جعفر من الحبشة
- ٣٠٠ فتح خيبر و قدوم جعفر، مترابطان
- ٣٠٤ الفصل التاسع سرية مؤته
- ٣٠٤ أول بعث إلى خارج الجزيرة
- ٣٠٦ جعفر هو الأمير الأول
- ٣٠٨ المسلمون في مؤته
- ٣١٨ الفصل العاشر فتح مكة
- ٣١٨ بداية
- ٣٢١ التجهيز لسفر ميهم
- ٣٢٢ اكتشاف تجسس أبي بلتعة لقريش
- ٣٢٣ على طريق مكة
- ٣٢٤ أبوسفیان في أيدي المسلمين
- ٣٢٦ عشرة آلاف نار لماذا؟!
- ٣٢٧ العباس الناصح لقريش على بغلة رسول الله (ص)
- ٣٢٨ الإعلان بالأمان

- ٣٣٠ كتائب الإسلام إلى مكّة
- ٣٣٢ أهداف حضور الغرض
- ٣٣٢ يوم المرحمة و عزّ قريش
- ٣٣٣ دخول التّبيّ (ص) مكّة
- ٣٣٥ شعار التّبيّ (ص) في فتح مكّة
- ٣٣٦ منزل التّبيّ (ص) في مكّة
- ٣٣٨ طواف التّبيّ (ص) و تحطيم الأصنام
- ٣٣٨ اشارته
- ٣٣٩ لماذا لم يباشر التّبيّ (ص) تحطيم الأصنام؟
- ٣٤٠ البيعة
- ٣٤١ تجديد أنصاب الحرم
- ٣٤٢ عتّاب بن اسيد على مكّة
- ٣٤٦ الفصل الحادى عشر غزوة حنين
- ٣٤٦ بداية
- ٣٤٧ الاستعداد للرحيل و عقد الألوّبة
- ٣٤٨ الهزيمة في اللحظات الأولى
- ٣٤٩ ما الذى جرى بعد الهزيمة؟
- ٣٤٩ اشارته
- ٣٥٠ ألف. التّبيّ (ص) يعالج الموقف
- ٣٥١ ب. هزيمة المشركين على يد على (ع)
- ٣٥٣ ج. نزول الشكينة
- ٣٥٤ د. الثّابتون في حنين
- ٣٥٥ مقارنة بين بدر و حنين
- ٣٥٧ حصار الطائف

٣٥٩	نهاية حرب الطائف
٣٦٠	فك الحصار لتسهيل الاستسلام
٣٦١	السبايا و الغنائم
٣٦٣	رجوع رسول الله (ص) إلى المدينة
٣٦٦	الفصل الثاني عشر غزوة تبوك
٣٦٦	الإعداد و الاستعداد
٣٦٨	العدد و العدة
٣٦٨	على (ع) خليفة النبي (ص) في أهله أو على المدينة كلها؟
٣٧٠	لماذا خلف علياً في المدينة؟
٣٧١	جيش الإسلام في تبوك
٣٧٣	بركات غزوة تبوك
٣٧٥	مسجد ضرار
٣٨٠	الفصل الثالث عشر حجة الوداع
٣٨٠	الأذان بالحج
٣٨١	لماذا هذا الاهتمام؟! ..
٣٨٦	الفصل الرابع عشر غدير خم
٣٨٦	توطئة و تمهيد
٣٨٧	الصخب و الغضب
٣٨٩	حديث الغدير
٣٩٢	في ظلال حديث الغدير
		كان حديثنا في الفصل يهدف إلى إعطاء لمحة عن الحدث الخالد الذي جرى في غدير خم. و نريد هنا أن نعمق فهمنا لمرامي الأقوال و التوجيهات في الم
٣٩٢	١. الخروج السريع من مكة
٣٩٢	٢. إرجاع المتقدم و حبس المتأخر
٣٩٢	٣. الدوحات الخمس منطقة محظورة

٤. دقة و بلاغة في أسلوب الإبلاغ ٣٩٣
٥. رفع مستوى اليقظة و التنبيه ٣٩٣
٦. حرّ الرّمضاء ٣٩٣
٧. فليبلغ الشاهدُ الغائب ٣٩٤
- الفصل الخامس عشر إلى الرفيق الأعلى ٣٩٨
- مرض التّبيّ (ص) و وصاياه ٣٩٨
- الكتاب الذي لم يكتب ٤٠٠
- اشاره ٤٠٠
- لماذا يريد التّبيّ (ص) الكتابة؟ ٤٠٢
- لماذا لا يصرّ التّبيّ على الكتابة؟ ٤٠٣
- ملك الموت يستأذن على التّبيّ (ص) ٤٠٤
- يوم وفاة التّبيّ (ص) ٤٠٤
- متى دفن التّبيّ (ص)؟ ٤٠٥
- جسد التّبيّ (ص) يرفع إلى السماء ٤٠٦
- المصادر و المراجع ٤١٠
- تعريف مركز ٤٣٤

صفوه الصمیح من سیره‌النبی‌الاعظم صلی الله علیه و آله

اشاره

عنوان و نام پدیدآور : صفوه الصمیح من سیره‌النبی‌الاعظم صلی الله علیه و آله / محقق السید جعفر مرتضی‌العاملی.

مشخصات نشر : تهران: مشعر، مرکز للطباعه والنشر، ۱۳-

مشخصات ظاهری : ج. ۱.

وضعیت فهرست نویسی : برون سپاری

یادداشت : عربی.

موضوع : محمد (ص)، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ ق. -- سرگذشتنامه

موضوع : اسلام -- تاریخ -- از آغاز تا ۴۱ ق.

رده بندی کنگره : BP۲۲/۹ع ۲ص ۳ ۱۳۰۰ی

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۹۳

ص: ۱

اشاره

ص: ۱۷

مقدمه

تحقق اهداف و آرمان‌های یک سازمان، به علل و عوامل مختلفی بستگی دارد. در این میان، به گفته کارشناسان و صاحب نظران "مدیریت سازمانی" و نیز به گواهی "آموزه‌های وحیانی"، "عامل انسانی" اساسی‌ترین و محوری‌ترین نقش را در موفقیت و بالندگی سازمانی ایفا می‌کند. دیگر عوامل سازمانی در پرتو عامل انسانی و حول محور او، شکل گرفته و حرکت می‌کنند. سیاست‌ها، برنامه‌ها، روش‌ها، ابزار و سخت‌افزارهای سازمان، تابعی از خواست و اراده نیروی انسانی و دانش و تدبیر او می‌باشد. بالطبع کم و کیف نتایج و خروجی‌های سازمان نیز مانند "ورودی‌ها" و "فرآیند"، متأثر از فعالیت و تدبیر نیروی انسانی است. بنابراین نیروی انسانی، افزون بر اینکه عامل موفقیت هر سازمانی است، شاخص و معیاری برای پیش‌بینی میزان موفقیت آن سازمان نیز محسوب می‌شود.

بی‌جهت نیست که دنیای مدرن با پی‌ریزی‌های علمی همچون روان‌شناسی کار، جامعه‌شناسی مشاغل و مدیریت، بخش اعظمی از مباحث این علوم را به عامل انسانی اختصاص داده است. پیش‌تر از این نیز آموزه‌های وحیانی بر جایگاه و اهمیت نیروی انسانی و نقش محوری آن در رستگاری و موفقیت جمعی اشاره کرده و به مؤمنان و جامعه دینی اکیداً توصیه نموده که در واسپاری کارها و مسئولیت‌ها، به اهلیت و صلاحیت نیروهای انسانی توجه کنند؛

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (۱)

در آیات دیگر، این رویه را، تدبیر خداوند متعال در عالم تکوین و تشریع معرفی کرده است:

اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (۲)

قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (۳)

۱- نساء: ۵۸.

۲- انعام: ۱۲۴.

۳- بقره: ۱۲۴.

ص: ۱۸

هدف و رسالت اساسی انبیای الهی نیز، تربیت و پرورش انسان ها بوده است:

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ (۱)

نهادها و مؤسسات دینی نیز برای تضمین موفقیت و دستیابی به اهداف و آرمان های سازمان، باید بر مبنای آموزه های وحیانی و یافته های بشری، جذب و گزینش نیروهای کارآمد و تعلیم و تربیت آنان را در اولویت مأموریت های خود قرار دهند.

در همین راستا "حوزه نمایندگی ولی فقیه در امور حج و زیارت" پس از فراغت از طراحی و اجرای فرآیند جذب و گزینش "آموزش و ارتقای سطح علمی و فرهنگی نیروی انسانی به ویژه روحانیون" را در کانون برنامه های ستادی خود قرار داد و دوره های آموزش بدو خدمت، ضمن خدمت و تکمیلی را راه اندازی نمود. از آنجا که تدوین متون آموزشی کاربردی متناسب با واحدها و سرفصل های مصوب، از مراحل و عناصر اصلی و اساسی دوره های آموزشی محسوب می شود، به طور همزمان گردونه تدوین متون آموزشی نیز به حرکت درآمد. نکته حائز اهمیت این که متون آموزشی پس از تدوین توسط گروه های علمی و تخصصی معاونت امور روحانیون و ارزیابی ناظران محتوایی، به صورت "درسنامه" برای حداقل یک ترم، به طور آزمایشی تدریس می شود، تا پس از نظرسنجی و گردآوری نقطه نظرات مدرّسان و دانش پژوهان، به رفع و اصلاح کاستی های احتمالی اقدام شود و برای آموزش در دوره های بعد، تدوین نهایی شود.

نوشتار حاضر، از جمله همین متون آموزشی است که توسط "گروه علمی و تخصصی تاریخ اسلام" تهیه و تنظیم و در قالب "درسنامه" منتشر شده و در اختیار شرکت کنندگان دوره های آموزشی روحانیون قرار می گیرد. فرصت را مغتنم شمرده و از تدابیر و تلاش های ارزشمند گروه علمی و تخصصی تاریخ اسلام به ویژه محقق و مؤلف گرانمایه جناب حجت الاسلام والمسلمین آقای علی رفیعی قوچانی تقدیر و سپاس به عمل می آید.

انتظار می رود که مدرّسان و دانش پژوهان محترم پس از طی دوره، نقطه نظرات اصلاحی خود را پیرامون متن، محتوا، منابع و دیگر بخش های درسنامه، جهت رفع و اصلاح نواقص و اشکالات احتمالی به کمیته تدوین ارایه نمایند.

معاونت امور روحانیون

کمیته تدوین متون آموزشی

بهار ۱۳۸۸

المقدمة

أحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطاهرين المنتجبين، الذين أذهب الله الرجس عنهم و طهرهم تطهيراً.

الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ والدارس الكريم هو تلخيص للكتاب القيم «الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص)»، تأليف العالم الجليل، المحقق المدقق في تاريخ الإسلام، العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي حفظه الله تعالى.

كتب هذا الكتاب القيم «الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص)» في ٣٥ مجلداً، وهو أفضل وأكثر ما أُلّف في عالم التشيع تفصيلاً و دراسةً بطريقة علمية نقدية في التاريخ النبوي و سيرة النبي الأعظم (ص).

تبلورت فكرة تأليف كتاب جامع في السيرة النبوية في ذهن الأستاذ العلامة العاملي قبل الثورة الإسلامية، وفي وقت كان فيه العلامة مشغولاً بتدريس تاريخ الإسلام في إحدى مدارس الحوزة العلمية بقم المقدسة، وبعد انتصار الثورة الإسلامية أينعت ثمار هذه الفكرة، فشرع السيد العلامة بالتأليف.

تم تأليف كتاب «الصحيح» في عدة مراحل، وعلى مدى ٢٥ سنة، خرج منه أربعة مجلدات عام (١٣٦١ هـ. ش / ١٩٨٣ م)، فقامت بطبعها ونشرها مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

و بعد مرور نحو عشر سنوات من بداية التأليف، تم الفراغ من عدد آخر من

ص: ٢٠

المجلدات، و بعد إعادة و تجديد النظر في المجموعة الأولى، تم طبع الكتاب في عشرة مجلدات. و في سنة (١٣٧٠ هـ. ش / ١٩٩٢ م) انتخبت الجمهورية الإسلامية الإيرانية كتاب «الصّيح» بصفته الكتاب السنوي الأفضل في البلاد. بعد ذلك توالى طبع المجلدات الأخر تباعاً، و أخيراً و في عام (١٣٨٥ هـ. ش / ٢٠٠٦ م) فرغ المؤلف من تأليف الكتاب في وقت تزامن مع اعتداء إسرائيل الغاصبة على لبنان في حرب استغرقت ٣٣ يوماً، خرج منها حزب الله منتصراً على العدو الغاشم. يعدّ كتاب «الصّيح» من سيرة النّبي الأعظم (ص) «بلا ريب عملاً رائعاً في مجال السّيرة النّبويّة، بحيث ترك أثراً على أفكار و أقلام الباحثين و علماء هذا الميدان.

إنّ هيمنة الكاتب المحترم و تسلّطه على العلوم الدينيّة بما فيها: الأدب، الفقه، الحديث، التفسير و غيرها من العلوم، و أيضاً إشرافه التّام و إحاطته بمصادر التاريخ الشّيعيّة و السّنيّة إلى جانب ذهنه الوقّاد، كلّ ذلك مكّنه أن يجعل من «الصّيح» كتاباً ممتازاً منقطع النّظير في موضوعه.

لقد حاول العلّامة في كتابه «الصّيح» سحب القضايا التاريخيّة إلى طاولة النّقد، مستفيداً في ذلك من المنهج الاجتهادي في دراسة و تحليل تلك القضايا، كما أنّه عيّن موارد التناقض في النّصوص و الأخبار التاريخيّة، معتمداً في ذلك على الحقائق التاريخيّة المسلّمة و المتواترة و الثابتة.

و من خصائص الكتاب الممتازة، استناد المؤلف إلى القرآن الكريم في توثيق الأحداث التاريخيّة، حيث جعل العلّامة المحور الأساسيّ في هذه الدّراسة موافقة الوقايح و الأحداث للنّص القرآنيّ الوارد فيها، و بذلك أضحي كلام الله معياراً و فصل الخطاب؛ ذلك لأنّ القرآن نزل و على مدى ٢٣ سنة مواكباً مرحلة رسالة النّبي (ص)، فكان مصوناً من التّلاعب و التّحريف، و لذا جعله المؤلف أحد أدلّة و مستندات السّيرة، و أصدق شاهدٍ على ذلك.

ص: ٢١

و بناءً على هذا الأصل نجد أنّ المؤلف جعل في كلّ موضع من كتاب «الصحيح» روايات القرآن محوراً في ترجيح الحدث على روايات المؤرخين و أهل السّير غير المدعونة بالقرآن الكريم، و لذا يمكننا القول بأنّ روح القرآن حاكمه على الكتاب «الصحيح». لقد أخذ العلامة السيّد جعفر مرتضى العاملي - إلى جانب ما استفاده كثيراً من القرآن الكريم في توثيق سيرة النّبي الأعظم (ص) من المصادر الحديثيّة و التاريخيّة؛ الشيعيّة و السنيّة كثيراً أيضاً، فاستطاع توسعة نطاق العمل، و تثبيت دعائم البحث في تاريخ الإسلام، في مرحلة الرسالة بشكل ملفت للأنظار، و فتح آفاقاً جديدة أمام الراغبين في دراسة السيرة النبويّة.

منهجنا في التلخيص

لا يخفى على أحد أنّ تلخيص كتاب «الصحيح» بهذا الكمّ الواسع ٣٥ مجلداً و اختصاره في مجلّد واحد عمل صعب و شاقّ للغاية، خصوصاً مع الحفاظ على مقصود المؤلف، دون إحداث خللٍ في العبارة و المراد؛ و مع ذلك فقد تمّ هذا العمل على الرّغم من استغراقه وقتاً أطول ممّا كنّا نتوقع بتوفيق الله و عناية رسوله الكريم (ص)، فخرج التلخيص بهذه الحلة حيث نقدّمه بين يديك، و بهذه المناسبة نلفت نظر القراء الكرام إلى النّكات التّالية:

١- إنّ كتاب «الصحيح من سيرة النّبي الأعظم (ص)» تأليف العلامة السيّد جعفر مرتضى العاملي لم يدوّن بطريقة دراسيّة، إلّا أنّنا حاولنا في تلخيصه ترتيب المطالب و الأحداث التاريخيّة بطريقة تعليميّة دراسيّة، فكان مدى تأثيره و دراسة أبحاثه المختارة بمستوى الحاجة لمرشدي الحجاج من طلبة العلوم الدّينيّة الأفاضل في السّفر المعنوي إلى الحرمين الشّريفيّن لغرض هداية و إرشاد حجاج

ص: ٢٢

بيت الله الحرام و زوار القبر النبوي الشريف.

٣- حاولنا قدر الإمكان الاكتفاء بنقل أقل ما يمكن من الأخبار و الأحداث التاريخية إلى الحد الذي ينسجم مع تسلسل و ترتيب تلك الأحداث و زمان وقوعها، ملقين ثقل البحث على دراسة الأحداث، و بيان صحتها و عدم صحتها و آثارها و نتائجها.

٤- إن المنهج في اختيار العناوين و رؤوس الفصول هو ما كانت قررته اللجنة الدراسية للحلقة الأولى من التاريخ (السيرة النبوية) الذي وردت أغلب عناوينه هنا، و لم نأت ببعض العناوين التي تم إبلاغها من قبل اللجنة؛ لأنه لم يتعرض لها كتاب «الصحيح».

٥- لما كان أحد أبعاد هذا الكتاب هو البعد الدراسي عن طريق الدراسة الحرة و غير الحضورية لطلاب العلوم الدينية المبتدئين في دراسة أصول التبليغ و الإرشاد و التوعية الدينية في حملات حجاج بيت الله الحرام، فقد حاولنا بيان و شرح الألفاظ المشككة و الغير المأنوسة، و كذا أمثلة الكتاب، و ما جاء فيه من الأمثال في حدود ما يلزم و قدر الضرورة في الهامش، و كذلك حاولنا إعراب الألفاظ المبهمة لئلا يشكل فهم معناها.

٦- قد يجد القارئ في بعض الموارد بالنسبة لبعض الأحداث أن المطلب بالتلخيص لم يؤد حقه كما ينبغي، و قد يخطر في ذهن القارئ بالنسبة لبعض أبعاد و زوايا البحث سؤال، أو يجد إبهاماً؛ فإنه سرعان ما يزول ذلك بمراجعة أصل كتاب «الصحيح» فتكون قراءة البحث بتفاصيله في الأصل مفيدة و مزيلة للشبهات.

٧- ذكر المؤلف في مقام توثيق مطالب الكتاب مصادر كثيرة و متعددة في الهامش، أشرنا في كثير من الموارد - رعاية للاختصار - إلى بعضها، لذا بإمكان القارئ الكريم مراجعة أصل الكتاب للتعرف على جميعها.

و في الختام نرجو من الله السلامة و طول العمر بخير و بركة لأستاذنا الكريم

ص: ٢٣

العلامة السيد جعفر مرتضى العاملى و نأمل له مزيداً من التوفيق لخدمة القرآن و العترة الطاهرة، كما نأمل ذلك للباحث الكريم حجة الاسلام و المسلمين الشيخ على الرفيعى القوچانى، الذى بذل جهداً كبيراً فى إعداد هذا الكتاب، و نرجو من الإخوة و الأخوات الأعزاء إسعافنا بآرائهم و انتقاداتهم البناءة و اقتراحاتهم العلمیة لغرض إكمال هذا الأثر الخالد.

معاونیة شئون طلبه العلوم الدینیة

فى بعثة قائد الثورة الإسلامیة

١٣٨٨ هـش

ص: ٢٥

بداية

إنَّ حياة المجتمعات ليست أحداثاً متباعدة و منفصلة بعضها عن البعض الآخر، و إنما هي استمرار، يضع الماضي كلَّ ما حصل عليه من عمله الدائب و جهاده المستمر في صميم هذا الحاضر، ليستمدَّ منه الكثير من عناصر قوّته و حركته و وسائل تطوّره، ثمَّ تقدّمه بخطى ثابتة و مطمئنة نحو المستقبل الذي يطمح له و يصبو إليه.

فمن الطّبيعي أن نجد لكثير من الأحداث التاريخيّة آثاراً بارزة في واقع حياتنا اليوميّة الحاضرة، بل تظهر آثارها في حياة الشّعوب، على الحالة الدينيّة، والأدبيّة، والعلميّة والسّياسيّة، والإقتصاديّة، والعلاقات الاجتماعيّة، و غير ذلك؛ و إن كان تأثير هذه الأحداث يختلف شمولاً و عمقاً من أمة لأخرى، و من شعب لآخر.

و هذا يؤكّد لنا أهميّة التاريخ، و يبرز مدى تأثيره في الحياة، و يعرفنا سرّ اهتمام الأمم على اختلافها به تدويناً، و درساً و بحثاً، و تمحيصاً و تعلّلاً.

فهى تريد أن تتعرّف من خلال ذلك على بعض الملامح الخفيّة لواقعها الّذى تعيشه؛ و لتكشف منه أيضاً بعضاً من عوامل رقيها و انحطاطها، ليكون ذلك معيناً لها على بناء نفسها بناءً قوياً سليماً، والإعداد لمستقبلها على أسس متينة و قويّة و راسخة.

و نحن أمة تريد أن تحيا الحياة بكلّ قوّتها و حيويّتها و فاعليّتها. ولكننا في الوقت الّذى نملك فيه أغنى تاريخ عرفته أمة لا نملك من كتب التاريخ و التراث

ص: ٢٦

ما نستطيع أن نعول عليه في إعطاء صورة كاملة و شاملة و دقيقة عن كل ما سلف من أحداث؛ لأن أكثر ما كتب منه تتحكم فيه النظرة الضيقة (عملية ملاحظة الحدث منفصلاً عن جذوره و أسبابه، ثم عن نتائجه و آثاره) و يهيمن عليه التعصب والهوى المذهبي و يسير في اتجاه التزلف للحكام.

إذن، فلا بد لمن يريد دراسة التاريخ و الاستفادة من الكتب التاريخية و التراثية، من أن يقرأها بحذر و وعي، و بدقه و تأمل، حتى لا يقع في فخ التضليل و التجهيل.

و ليس ذلك بالأمر اليسير و السهل، و لا سيما فيما يربط بتاريخ الإسلام الأول الذي هبت عليه رياح الأهواء الرخيصة، و العصبية الظالمة، و عبت به أيدي الحاقدين، و ابتزت منه رواءه و صفاءه إلى حد كبير و خطير.

... و نحن بدورنا في كتابنا هذا سوف نحاول استخلاص صورة نقيّة و واضحة قدر الإمكان عن تاريخ نبينا الأعظم (ص).

مِيزَاتُ أُسَاسِيَّةٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ الْمَدُون

إن تاريخ الإسلام المدون على ما فيه من هنات و نقص أغنى تاريخ مكتوب لأيّة أمّة من الأمم، و هو يمتاز عن كل ما عداه بدقته و شموله، حتى إنك لتجده كثيراً ما يسجل لك الحركات، و اللّفات، و اللّمحات، فضلاً عن الكلمات و المواقف و الحوادث، بدقه متناهية و استيعاب لا نظير له.

أضف إلى ذلك أنه يملك من الآيات القرآنية، ثم من النصوص الصّحيحة والصّريحة الشّيء الكثير، ممّا لا تجده في أي تاريخ آخر على الإطلاق، و لا سيما في جزئيات الأمور، و في التفاصيل و الخصوصيات.

و ميزة أخرى يمتاز بها تاريخ الإسلام، و هي أنه يمتلك قواعد و منطلقات تستطيع أن توفر للباحث السّبل المأمونة، التي يستطيع من خلال سلوكها أن

ص: ٢٧

يصل إلى الحقائق التي يريدّها.

البداية الطَّبِيعِيَّةُ لتاريخ الإسلام

و واضح أنّ البداية الطَّبِيعِيَّةُ لتاريخ الإسلام، و أعظم و أهمّ ما فيه هو سيرة سيّد المرسلين محمّد (ص) الطّاهرين).
فلا بدّ من البدء بها، ولو ببحث قضايا و أحداث رئيسة فيها، ليكون ذلك بمثابة خطوةٍ أوّلى على طريق التّصدى لبحوثٍ مستوعبةٍ و
شاملة، من قِبَلِ المتخصّصين والباحثين من ذوى الكفاءات و الهمم العالية.

ص: ٢٩

القسم الاول ما قبل البعثه

اشاره

ص: ٣١

الفصل الاول ما قبل ميلاد النبي (ص)

اشاره

الوضع الجغرافي لشبه جزيرة العرب

هي شبه جزيرة مستطيلة يحدها شمالاً: الفرات، و آخر قطعاتها بادية الشام و السّماوة، و فلسطين، و شرقاً خليج فارس، و جنوباً خليج عدن و المحيط الهندي، و غرباً البحر الأحمر.^(١) ولا يعنينا الوضع الجغرافي هنا إلّا في النواحي التالية:

الأولى: إنّّه لم يكن في جزيرة العرب حتّى نحر واحد، بالمعنى الصّحيح للكلمة،^(٢) و أكثرها جبالاً، و أوديه و سهول جرداء، لا تصلح للزّراعة والعمل، و من ثمّ فهي لا تساعد على الاستقرار و تنظيم الحياة.

و من هنا فقد كان أكثر سكّانها، بل قيل خمسة أسداسهم من البدو الرّحل، الّذين يمسون في مكان، و يصبحون في آخر.

الثّانية: إنّ هذا الوضع قد جعل هذه المنطقة في مأمن من فرض السيطرة عليها من قِبَل الدّولتين العظيمتين آنئذ: الرّومان و الفُرس، و غيرهما، فلم تتأثر المنطقة بمفاهيمهم و أديانهم كثيراً، بل لقد هرب اليهود من حكامهم الرّومان إلى جزيرة العرب و اجتمعوا فيها في يثرب و غيرها.

و قد نشأت عن هذا الوضع للجزيرة العربيّة ظاهرة الدّويلات القَبليّة، فلكلّ قبيلة حاكم و كلّ ذى قوّة له سلطان.

١- راجع: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٤٠ فيما بعدها

٢- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٥٧ فيما بعدها.

ص: ٣٤

الثالثة: إنّ هذه الحياة الصّعبة، وهذه الحكم القبلي، وعدم وجود روادع دينية أو وجدانية قوية، قد دفع بهذه القبائل إلى ممارسة الإغارة والسلب ضد بعضها البعض، كوسيلة من وسائل العيش أحياناً، وأحياناً لفرض السيطرة والسلطان، وأحياناً أخرى للثأر وإدراك الأوتار إلى آخر ما هنا لك، فتغيّر هذه القبيلة على تلك؛ فتستولي على أموالها، وتسبي نساءها وأطفالها، وتقتل أو تأسر من تقدر عليه من رجالها، ثم تعود القبيلة المنكوبة لتتربص بهذه الغالبة الفرصة لمثل ذلك، وهكذا.

ومن هنا، فإنّ من الطبيعي أن يكون شعور أفراد كلّ قبيلة بالنسبة لأبناء قبيلتهم قوياً جداً، بدافع من شعورهم بالحاجة إلى بعضهم البعض للدّفاع عن الحياة والكفاح من أجلها ممّا كان سبباً قوياً لزيادة حدّة التعصب القبلي، الذي لا يرثى ولا يرحم ولا يلين، حيث لا بدّ من الوقوف إلى جانب ابن القبيلة، سواء أكان الحقّ له، أو عليه، حتّى لقد قال شاعرهم يتمدّحهم بذلك:

لا يسئلون أخاهم حين يندبهم في الثّائبات على ما قال برهاناً^(١) ومن الجهة الأخرى، فإنّ القبيلة تتحمّل كلّ جناية أو جريمة يرتكبها أحد أبنائها، و تحميه من كلّ من أراده بسوء، بل يكون أخذ الثأر من غير الجاني إذا كان من قبيلته كافياً و شافياً للموتورين، الذين يريدون شفاء ما في نفوسهم وإدراك أوتارهم.

الحضر في شبه جزيرة العرب

أمّا الحضر في جزيرة العرب، وهم الذين يسكنون المدن و يستقرّون فيها، فإنّهم وإن كانوا في حياتهم أرقى من العرب الرّحل، إلّا أنّ رقيهم هذا لم يكن

١- البيت منسوب لقريط بن أنيف العنبري. راجع تفسير جامع الجوامع، ج ٢، ص ٦٨٢ عن خزائن الأدب، ج ٧، ص ٤٤١.

ص: ٣٥

بحيث يجعل الفارق بينهما كبيراً. ومن هنا، فإننا نلاحظ تشابهاً كبيراً فيما بينهما في العقلية و في المفاهيم و العادات و التقاليد و أساليب الحياة و بدائيتها. هذا إن لم نقل: إن العرب الرّحل كانوا أصحّ أبداناً، و أفصح لساناً، و أقوى جناناً، و أصفى نفساً و فكراً و قريحاً.

الحالة الاجتماعية عند العرب

إنّ من يطالع كتب التاريخ يرى بوضوح إلى أي حدّ كانت الحالة الاجتماعية متردّية في العصر الجاهلي. وقد قدّمنا أنّ السِّلَب و النّهب و الإغارة و التعصب القبلي و غير ذلك قد كان من مميّزات الإنسان العربي، حتّى إنّّه اذا لم تجد القبيلة من تُغيّر عليه من أعدائها أغارت على أصدقائها، و حتّى على أبناء عمّها، يقول القطامي:

و كنّ إذا أغرن على قبيل و أعوزهنّ نهب حيث كانا
أغرن من الضّباب على حلال(١) و ضبّه إنّّه من حان حاناً
و أحياناً على بكر أخيناً إذا ما لم نجد إلّا أخانا

و لقد رأينا أنّ تلك الظروف الصّعبة، و الفقر، والجوع، و الخلافات التي كانوا يعانون منها، و المفاهيم الخاطئة التي كانت تعيش في أذهانهم و خصوصاً عن المرأة و كذلك ظروف الغزو و الإغارة التي تعنى سبي النّساء و الأطفال، قد

١- الضّباب اسم قبيلة، و الحلال: المجاور.

ص: ٣٦

دفعتهم إلى قتل، أو وأد أولادهم، ولا سيما البنات، و كان ذلك في قبائل تميم و قيس و أسد و هذيل و بكر بن وائل. (١) بل إننا نستطيع أن نعرف مدى شيوع الوأد بينهم من تعرض القرآن لهذه المسئلة وردعه لهم عنها، حيث قال تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ» (٢)

و قال ايضاً:

«وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» (٣)

كما أننا نجد (ص)، قد نص على ذلك في بيعة العقبة و قد قال محمد بن إسماعيل التيمي و غيره تعليقاً على هذا: «خص القتل بالأولاد، لأنه قتل و قطيعه رحم؛ فالعناية بالنتهي عنه أكد و لأنه كان شائعاً فيهم و هو وأد البنات و قتل البنين خشية الإملاق.» (٤)

المرأة في الجاهلية

و قد كانت حياة المرأة في الجاهلية أصعب حياة، حيث لم يكن لها عندهم قيمة أبداً و يكفي بذلك قوله تعالى: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أُمَسِّكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» (٥) سياق الآية الشريفة يشير إلى كثرة ذلك و شيوعه فيهم.

١- راجع: شرح النهج للمعتزلي، ج ١٣، ص ١٧٤

٢- الأنعام: ١٥١

٣- التكوين: ٨ و ٩

٤- راجع: فتح الباري، ج ١، ص ٦١

٥- النحل: ٥٨ و ٥٩

حالة العرب الجاهلية في منظار أمير المؤمنين

و عن حالة العرب في الجاهلية يكفي أن نذكر بعض ما قاله أمير المؤمنين (ع) ذلك: «بعته والناس ضلال في حيرة و حاطبون في فتنه و قد استهوتهم الأهواء، و استزلتهم الكبرياء و استخففتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر و بلاء من الجهل» (١) و قال: و انتم معشر العرب على شر دين و في شر دار، تنيخون (٢) بين حجارة خشن و حيات صم، (٣) تشربون الكدر، و تأكلون الجشب، (٤) و تسفكون دماءكم و تقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، و الآثام بكم معصوبة (٥). و قال أيضاً: «فالأحوال مضطربة، و الأيدي مختلفة، و الكثرة متفرقة، في بلاء أزل، و أطباق جهل، من بنات مؤودة، و أصنام معبودة، و أرحام مقطوعة، و غارات مشنونة» (٦) لقد أوضح لنا الإمام أمير المؤمنين (ع) في هذه الكلمات حالة العرب و مستواهم العلمي و الثقافي و الإقتصادي، و أنهم كانوا يعيشون في ظلمات الجهل و الحيرة و الضلالة.

١- نهج البلاغه، الذي بهامشه شرح الشيخ محمد عبده، الخطبة ٩١، والامامة والسياسة، ج ١، ص ١٥٤

٢- تنيخون: تقيمون

٣- الصم جمع أصم وهي الحية التي لا تقبل الرقي والرجل الأصم: أي به انسداد السمع و ثقل الأذن

٤- الجشب من الطعام: الغليظ الخشن

٥- نهج البلاغه، شرح عبده، الخطبة ٢٥، والمعصوبة: المشدودة

٦- نهج البلاغه، شرح عبده، الخطبة ١٨٧.

ص: ٣٨

نسب النبی (ص)

هو أبو القاسم محمّد (ص) بن عبد الله بن عبد المطلب «شعبة الحمد» بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن نضر بن كنانة بن خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. قالوا: إنّ هذا هو المتفق عليه من نسبه الشريف؛ أمّا ما فوقه ففيه اختلاف كثير، غير أنّ ممّا لا شكّ فيه هو أنّ نسب عدنان ينتهي إلى إسماعيل (ع) وقد روى أنّه (ص) قال: «إذا بلغ نسبي إلى عدنان فأمسكوا» (١) و نحن نمسك هنا امتثالاً لأمره (ص).

إيمان آباء النبی (ص) إلى آدم (ع)

إنّ كلمة الإمامية قد اتفقت على أنّ آباء النبی (ص) من آدم إلى عبد الله كلّهم مؤمنون موحدون، (٢) بل و يضيف المجلسي قوله: «بل كانوا من الصّديقين، إمّا أنبياء مرسلين، أو أوصياء معصومين، و لعلّ بعضهم لم يُظهر الإسلام لتقيّة، أو مصلحة دينيّة.» (٣)

- ١- كشف الغم، للإربلي، ج ١، ص ١٥
- ٢- راجع: أوائل المقالات، ص ١٢، و تصحيح الاعتقاد، ص ٦٧، و تفسير الرازي، ج ٢٤، ص ١٧٣، دار الكتب العلميّة بطهران و في طبعة أخرى، ج ٤، ص ١٠٣، و البحار، ج ١٥، ص ١١٧ و مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٢٢، و ليراجع البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٨١
- ٣- البحار، ج ١٥، ص ١١٧.

ص: ٣٩

و يضيف الصدوق هنا: أن أم النبي (ص) آمنه بنت وهب كانت مسلمة أيضاً. (١) ومعنى ذلك هو أنه ليس في آباء الرسول (ص) إلا الاستقامة على جادة الحق والخير والبركة، وهذا هو ماورثه الرسول عنهم ويتأكد بذلك طهارته (ص) من الأرجاس والزنا، حتى ما يكون عن طريق الوراثة، والناس معادن كمعادن الذهب والفضة، وهو ما أثبتته العلم الحديث أيضاً، حيث لم يبق ثمّة أيّة شبهة في تأثير عامل الوراثة في تكوين شخصيّة الإنسان وفي خصاله ومزايه.

قال أبوحيان الأندلسي:

«ذهب الرافضة إلى أن آباء النبي (ص) كانوا مؤمنين». (٢) أمّا غير الإماميّة، فذهب أكثرهم إلى كفر والدي النبي وغيرهما من آبائه (ص) وذهب بعضهم إلى إيمانهم. وممن صرح بإيمان عبدالمطلب وغيره من آبائه المسعودي، واليعقوبي، وهو ظاهر كلام الماوردي والرازي في كتابه «أسرار التنزيل»، والسنوسي، والتلمساني محشى الشفا، والسيوطي، وقد ألف هذا الأخير عدّة رسائل لإثبات ذلك. (٣) وفي المقابل، قد ألف بعضهم رسائل لإثبات كفرهم، مثل إبراهيم الحلبي، وعلى القاري الذي فصل ذلك في شرح الفقه الأكبر، واتهموا السيوطي بأنه متساهل، لا عبرة بكلامه، ما لم يوافقه كلام الأئمة النقاد.

والسبب الرئيسي في تكفير آباء رسول الله (ص) وأعمامه من ذلك البعض هو مشاركة علي (ع) له فيهم، أو أنهم يريدون أن لا يكون آباء الخلفاء من بني أمية

١- تفسير البحر المحيط، ج ٧، ص ٤٧

٢- تفسير بحر المحيط، ج ٧، ص ٤٧

٣- رسائل السيوطي هي التالية: ١. مسالك الحنفاء ٢. الدرج المنيفة في الآباء الشريفة ٣. المقامة السندسية في النسبة المصطفوية ٤. التعظيم والمنّة في أن أبوى رسول الله (ص) في الجنة ٥. السبل الجليّة في الآباء العلية ٦. نشر العلمين المنيفين في إثبات عدم وضع حديث إحياء أبويه (ص) وإسلامهما على يديه (ص).

ص: ٤٠

و من غيرهم، و آباء رجالات الحكم و أعوانه كفّاراً، و يكون آباء النّبى و أهل بيت النّبى (ص) مؤمنين، فلا بدّ من سلب هذه الفضيلة عنه (ص) ليستوى هو و غيره فى هذا الأمر.

بعض الأدلة على إيمانهم

إنّ ثمة روايات كثيرة تدلّ على إيمان آبائه (ص) بالإضافة إلى إجماع الطائفة المحقّقة، و مستند ذلك هو الأخبار و هذا هو الدليل المعتمد. (١) و استدّلوا على ذلك أيضاً:

١. بقوله (ص) «لم يزل ينقلنى الله من أصلاب الطّاهرين إلى أرحام المطهّرات حتّى أخرجنى فى عالمكم و لم يدنسنى بدنس الجاهليّة». (٢) ولو كان فى آبائه، أو أمّهاته (ص) كافر لم يصفهم كلّهم بالطّهارة، مع أنّ الله تعالى يقول: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ». (٣) و إطلاق قوله (ص) «لم يدنسنى بدنس الجاهليّة» شامل لكلّ دنس، والكفر من هذه الأدناس، فلا وجه لتخصيص الطّهارة بالطّهارة من العهر، أو من الأرجاس والزّائل فقط؛ فإنّه تخصيص بلا مخصّص.

٢. و استدّلوا على ذلك أيضاً بقوله تعالى: «الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَ تَقْلُبُكَ فِى

-
- ١- ذكر طائفة منها العلامة المجلسى (ره) فى البحار، ج ١٥ والسيوطى فى رسائله المشار إليها، فراجع: رسالة السبل الجليّة، ص ١٠ فيما بعدها، و راجع أيضاً: السيرة الحليّة و غير ذلك و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٣٤ فيما بعدها
 - ٢- مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٢٢، و البحار، ج ١٥، ص ١١٧ و ١١٨، و تفسير الرازى، ج ٢٤، ص ١٧٤، و السيرة الحليّة، ج ١، ص ٣٠، والدّر المنثور، ج ٥، ص ٩٨
 - ٣- التّوبة: ٢٨.

ص: ٤١

السَّاجِدِينَ» (١).

لما روى عن ابن عباس، و أبي جعفر و أبي عبدالله [أنه (ص) لم يزل ينقل من صلب نبي إلى نبي، و لا يجب أن يكونوا أنبياء مبعوثين فلعل أكثرهم كان نبياً لنفسه أو لبيته.

٣. ويمكن أن يستدل على إيمان آبائه (ص) إلى إبراهيم، بقوله تعالى، حكاية لقول إبراهيم و إسماعيل: «وَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا» (٢) مع قوله تعالى: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» (٣) أى فى عقب إبراهيم؛ فيدل على أنه لابد أن تبقى كلمة الله فى ذرية إبراهيم، ولو فى واحدٍ واحدٍ، على سبيل التسلسل المستمر فيبقى أناس منهم على الفطرة، يعبدون الله تعالى حتى تقوم الساعة، و لعل ذلك استجابة منه تعالى لدعاء إبراهيم (ع) الذى قال: «وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» (٤) و قوله: «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي» (٥).

و واضح أنه، لو أنه تعالى قد استجاب لإبراهيم فى جميع ذريته لما كان أبولهب من أعظم المشركين و أشدهم على رسول الله (ص) و هذا ما يفسر الإتيان بـ «مِنْ» التبعيضية فى قوله: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي» و لا يصح القول: بأنه كما خرج أبولهب، فلعل بعض آباء النبي (ص) قد خرج أيضاً، و ذلك لأن كلمة «بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» تفيد الاتصال و الاستمرار من دون انقطاع؛ أما خروج أبى لهب فهو لا يقطع هذا الاتصال.

١- الشعراء: ٢١٨ و ٢١٩

٢- البقرة: ١٢٨

٣- الزخرف: ٢٨

٤- إبراهيم: ٣٥

٥- إبراهيم: ٤٠

ص: ٤٣

الفصل الثاني عهد الطفولية

اشاره

ص: ٤٥

مولد النَّبِيِّ (ص)

ولد رسول الله (ص) بمكة عام الفيل على المشهور، (١) أى قبل البعثة بأربعين سنة. والمشهور عند الإمامية وبعض من غيرهم أنه ولد فى السابع عشر من شهر ربيع الأول؛ والمشهور عند غيرهم ووافقهم الكليني: أنه ولد لاثنتى عشرة ليلة خلت منه. (٢) وثمة أقوال آخر لا مجال لذكرها.

ونص الطبرسى والكليني على أنه (ص) قد ولد فى يوم الجمعة، وعند غير الإمامية أنه ولد فى يوم الإثنين. و أمه (ص) هى آمنه بنت سيد بنى زهرة، وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. لقد ورد أن أمه قد حملت به فى أيام التشريق، و هى الحادى عشر، والثانى عشر، والثالث عشر من ذى الحجة. (٣) ولا يخلو ذلك من إشكال؛ لأنها إن كانت ولدت فى تلك السنة، فإن حملها به (ص) يكون ثلاثة أشهر و تزيد قليلاً، وإن كانت ولدت فى السنة الثانية، فمدة حمله تكون خمسة عشر شهراً، مع أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وأقصاها سنة عند المشهور من الإمامية.

١- راجع: سيرة مغلطى، ص ٦٧ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ١٩٥ و غير ذلك و حكى الاتفاق عليه

٢- أصول الكافى، ج ١، ص ٣٦٤

٣- أصول الكافى، ج ١، ص ٣٦٤، و ليراجع: تاريخ الخميس، ج ١، ص ١٩٦.

ص: ٤٦

و أجيب بأن ذلك مبنى على النسئ فى الأشهر الحُرْم عند العرب، فإنهم كانوا يقولون مثلاً: إن الأشهر الحُرْم توضع بعد أربعة أشهر مثلاً، ثم يستحلون القتال فى نفس الأشهر التى رفع الإعتبار عنها.

ولكن، إن لم نقل بأن الحمل به (ص) أربعة أشهر قد كان من خصوصياته، فلا يمكننا قبول تلك الرواية حتى ولو صحَّ سندها و ذلك لأنَّ كون تلك الرواية واردة بناءً على أشهر النسئ يحتاج إلى إثبات؛ إذ لم نعهد فى تعبيرات المعصومين بناء كلامهم على النسئ الذى هو زيادة فى الكفر، كما لم نعهد ذلك فى كلمات المحدثين و المؤرخين و لا سيما مع عدم نصب قرينه على ذلك.

تعقيب هام

لقد قال الإربلى بعد أن أشار إلى الإختلاف فى تاريخ ولادته (ص):

إنَّ اختلافهم فى يوم ولادته سهل، إذ لم يكونوا عارفين به و بما يكون منه و كانوا أميين لا يعرفون ضبط مواليد أبنائهم؛ فأما اختلافهم فى موته فعجيب، و الأعجب من هذا، اختلافهم فى الأذان و الإقامة بل اختلافهم فى موته أعجب؛ فإنَّ الأذان ربَّما ادعى كلَّ قوم أنَّهم رووا فيه روايه، فأما موته فيجب أن يكون معيَّناً معلوماً. (١) فإذن ... فما هو مدى معرفتهم بأحكام الله التى يقلُّ الا بتلاء بها، و التَّعَرُّض لها عادة يا ترى؟!

و أيضا ... هل يصحَّ اعتبار أقوال هؤلاء و أفعالهم سِنَّة ماضية، و شريعة متَّبعة؟- كما هو عند بعض الفرق الإسلامية بل تجد بعضهم ربَّما يردُّ الحديث الصحيح لقول صحابى، أو لقول حاكم. إنَّ ذلك عجيب و أى عجيب!

ص: ٤٧

و إذا كانوا يختلفون حتى في مثل هذه الأمور، فهل يعقل بعد هذا أن يصح قول البعض: إنه (ص) قد ترك الأمّة هكذا هملاً بلا قائد و لا رائد و لا معلّم و لا مرشد؟ على اعتبار أن الأميّة تكون مستغنيّة عن الهداية و الرعاية. و هذا موضع هامّ جداً يحتاج إلى بحث و تمحيص بصورة مفصّلة.

مصير الدار التي ولد (ص) فيها

و كانت ولادته في شعب بنى هاشم، أو شعب أبي طالب، في الدار التي اشتراها محمد بن يوسف، أخو الحجاج من ورثة عقيل بن أبي طالب (ره) بمائة ألف دينار، ثم صيرتها الخيزران، أمّ الرشيد مسجداً يصلّي فيه الناس (١) و يزورونه، و يتبرّكون به و بقي على حالته تلك. فلما «أخذ الوهايتون مكّة في عصرنا هذا، هدموه و منعوا من زيارته، على عادتهم في المنع من التبرّك بآثار الأنبياء و الصّالحين و جعلوه مربوطاً للدواب» (٢).

رضاعه (ص)

و يقولون: إن أمّه (ص) قد أرضعته يومين أو ثلاثة، ثم أرضعته ثويبة مولاة أبي

١- اصول الكافي، ج ١، ص ٢٦٤. و قيل: إن زبيدة قد فعلت ذلك. راجع: التبرك، ص ٢٤٣ و ٢٥٥ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ١٩٨ و أيضاً: الروض الأنف، ج ١، ص ١٨٤ و المواهب اللدنيّة، ج ١، ص ٢٥ و تاريخ الأئمّ و الملوك، ج ١، ص ٥٧١ و الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٤٥٨ و أخبار مكّة للأزرق، ج ١، ص ٤٣٣

٢- أعيان الشيعة، ج ٢، ص ٧. و كانت على هذه الحالة حتى تصدّى الشيخ عبّاس القطن إدارة بلدية مكّة في ذلك الوقت (١٣٦٤ ق) فطلب من الملك عبدالعزيز آل سعود و أصرّ عليه أن تنشأ مكتبة في مكانها، فوافق الأخير، و تمّ ذلك و سميت بـ «مكتبة مكّة المكرمة» و لا تزال موجودة حتى وقتنا الحاضر.

ص: ٤٨

لهب أياماً. (١) ثم قدمت حليمة السعدية مكّة مع رفيقات لها بحثاً عن ولد ترضعه، لتستفيد من رعاية أهله و معوناتهم، فعرض (ص) عليها فرفضته في بادى الأمر ليئيمه و لكنّها عادت فقبلته، حيث لم تجد غيره فرأت فيه كلّ خير و بركه، فأرضعته سنتين، ثم أعادته إلى أهله، و هو ابن خمس سنين و يومين كما يقولون ليكون في كفالة جدّه عبدالمطلب، ثم عمّه أبى طالب.

و يقول بعض المحققين (٢): «إنّ قولهم: إنّها رفضته في أول الأمر ليئيمه إنّما يصح بالنسبة لئيم ضائع، لا أهميّه له، و أمّا بالنسبة لمحمّد (ص) فإنّ كافله عبدالمطلب سيّد هذا الوادى، و أمّه آمنه، بنت وهب من أشرف مكّة؛ بل ثمّ من يقول: إنّّه لم يكن حينئذ يتيماً، و إنّ أباه قد توفّى بعد ولادته بعدّة أشهر، قيل: ثمانية و عشرين شهراً و قيل: سبعة أشهر». (٣) و كذلك شكّ في قولهم: إنّ ثويبه قد أرضعت النّبى (ص) أياماً و أن أبا سلمه كان أخاً للنّبى (ص) من الرضاعة و أخوهما منها أيضاً حمزة بن عبدالمطلب، أرضعتهم ثويبه بلبن ولدها مسروح، (٤) و شكنا في ذلك ناشىء عن أمرين:

أحدهما، تناقض الروايات في ذلك؛ ففي بعضها أنّها أرضعته أياماً (٥) و في بعض الآخر: أربعة أشهر تقريباً. (٦)

١- قاموس الرجال، ج ١٠، ص ٤١٧، ترجمة ثويبه، عن البلاذرى

٢- هو العلّامة الفاضل السيّد مهدي الرّوحانى رحمه الله عليه

٣- صفه الصفوة، ج ١، ص ٥١ و كشف الغمه، ج ١، ص ١٦

٤- راجع: أسد الغابة، ج ٣، ص ٩٥ و ج ٢، ص ٤٦ و البدأ و التاريخ، ج ٥، ص ٨ و تاريخ يعقوبى، ج ٢، ص ٩، و طبقات ابن

سعد، ج ١، قسم ١، ص ٦٧؛ والبحار، ج ١٥، ص ٣٨٤ و قاموس الرجال، ج ١٠، ص ٤١٧

٥- الإصابة، ج ٤، ص ٢٥٨ و البحار، ج ١٥، ص ٣٣٧ و كشف الغمه، ج ١، ص ١٥

٦- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٢٢، عن شواهد النبوة.

ص: ٤٩

و في حين نجد بعضها يقول: إنّ أمّه أرضعته ثلاثة أيام، (١) و قيل: سبعة، (٢) و قيل: تسعة (٣) و قيل: سبعة أشهر، (٤) و بعضها لم تحدّد مدّة إرضاعها له (٥) (ص).

ثمّ إنّنا في حين نجدهم يقولون ذلك بالنسبة لإرضاع أمّه له، نجدهم يذكرون أنّ حليمه السّعدية أرضعته بعد سبعة أيام من مولده فقط، (٦) من دون تحديد من أرضعته مدّة الأيام السبعة نفسها، مع العلم أنّه بعد إرضاع حليمه له، لم يرتضع من غيرها و إذا كانت أمّه قد أرضعته فيها، فمتى أرضعته ثوبية ياترى؟؟.

و من جهة أخرى، فإنّ البعض يصرح بأنّ أول من أرضعته ثوبية (٧) و بعضهم بأن أمّه أول من أرضعته. (٨) ثانيهما، عدم صحّة ارتضاع النّبي (ص) و حمزة من لبن ثوبية، لولدها مسروح لأنّ حمزة كان أكبر من النّبي (ص) بأربع سنين (٩) و قيل: بسنتين. (١٠)

١- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٢٢ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ٨٨ و نور الأبصار، ص ١٠

٢- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٢٢ و نور الأبصار، ص ١٠

٣- السيرة الحلبية؛ ج ١، ص ٨٨. و لعلّ احدهما تصحيف للآخر، بسبب عدم النقط في تلك العصور و تشابه رسم الكلمتين

٤- السيرة الحلبية، ج ١، ص ٨٨ عن الإمتاع

٥- راجع: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٩ و إسعاف الرّاغيين بهامش نور الأبصار، ص ٨ و تاريخ ابن الوردي، ج ١، ص ١١٣

٦- مختصر التاريخ لابن الكازروني، ص ٣٨

٧- راجع: الأنس الجليل، ج ١، ص ١٧٦ و صفه الصفوة، ج ١، ص ٥٦ ٥٧ و دلائل النبوة لأبي نعيم، ص ١١٣ و غيرها من المصادر

٨- راجع: السيرة الحلبية، ج ١، ص ٨٨ عن الإمتاع

٩- إعلام الوري، ص ٧ و كشف الغمّة، ج ١، ص ١٥ و تهذيب الأسماء، ج ١، ص ١٦١ بلفظ قيل

١٠- (١٠) ١٠. تهذيب الأسماء، ج ١، ص ١٦٨ و الإصابة، ج ١، ص ٣٥٤ و الإستيعاب بهامشه، ج ١، ص ٢٧١ عن البكائي واختاره

في أسد الغابة، ج ٢، ص ٤٦ و ٤٩.

ص: ٥٠

فإننا حتّى لو أخذنا بالسّنتين، فإنّ حمزة يكون قد بلغ الفطام قبل أن يولد رسول الله (ص) كما أنّها إذا كانت قد ولدت ولدها قبل فطام حمزة، فلا بدّ أن يفطم قبل ولادة رسول الله (ص) فكيف تكون قد أرضعت الرّسول بلبن ولدها؟ وإن كان قد ولد بعد فطام حمزة فكيف تكون قد أرضعت حمزة بلبن ولدها مسروح.

و أمّا إذا أخذنا بالقول الأول فإنّ القضية تصبح أكثر إشكالاً و أبعد منالاً.

فقد النَّبِيِّ (ص) لأبويه

لقد شاءت الإرادة الإلهيّة أن يفقد النَّبِيُّ (ص) أباه و هو لا يزال جنيناً أو طفلاً صغيراً. و ربّما يقال: إنّ الأصحّ هو الأوّل؛ لأنّ يتمه هذا كان هو الموجب لتردّد حليمه السّعديّة في قبوله رضيعاً،^(١) و لكن قد تقدّم بعض المناقشة في ذلك.

ثمّ فقد أمّه بعد عودته من بنى سعد و هو فى الزّابعة من عمره، أو فى السّادسة، أو أكثر، حسب الرّوايات.

و لعلّ ما تقدم من إرجاع حليمه له إلى أمّه، و هو فى الخامسة من عمره، يؤيّد أنّ أمّه قد توفيت و هو فى السّادسة، إلّا أن يقال: إنّّه يمكن أن يكون المراد أنّه قد أُرْجِعَ إلى أهله، ولكنّه احتمال بعيد عن مساق الكلام.

هذا ... و قد استأذن رسول الله (ص) ربّه فى زيارة قبر أمّه، فأذن له. فقد روى مسلم فى صحيحه أنّه (ص) قال: «استأذنت ربّى فى زيارة أمّى، فأذن لى، فزوروا القبور تذكركم الموت».^(٢)

- ١- و بذلك يعلم أنّ ماورد فى كشف الغمّة، ج ١، ص ١٦ من أنّه عاش مع أبيه سنتين و أربعة أشهر لا يمكن المساعدة عليه؛ رغم أن الإربلى قد نصّ بعد ذلك فى صفحه ٢٢ على أنّ أباه قد توفّى و أمّه حبلى به
- ٢- كشف الغمّة، ج ١، ص ١٦ عن مسلم و صحيح مسلم ط سنة ١٣٣٤ هـ - ج ٣، ص ٦٥ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٥ و الحديث موجود فى مصادر عديدة كما يظهر من مراجعة كتاب الجنائز فى كتب الحديث.

ص: ٥١

و هذا الحديث حجة دامغة على من يمنع من زيارة القبور، وله مؤيدات كثيرة، كزيارة فاطمة (ع) لقبر حمزة (ع) و غير ذلك.

كفيل النَّبِيِّ (ص)

ولقد عاش (ص) في كنف جدّه عبدالمطلب الذي كان يرعاه خير رعايه، و لا يأكل طعاماً إلّا إذا حضر، و كان عارفاً بنبوته حتّى لقد روى: أنّه قال عنه لمن اراد أن ينحيه عنه و هو طفل يدرج: دع ابني فإنّ الملك قد أتاه،^(١) والزوايه معتبره على الظاهر. و في السّينه الثّامنه من عمره (ص) توفّي جدّه عبدالمطلب بعد أن اختار له أباطالب (ره) ليكفله و يقوم بشؤونه، و يحرص على حياته، رغم أن أباطالب لم يكن أكبر ولد عبدالمطلب سنّاً و لا أكثرهم مالاً؛ لأنّ الأسنّ فيهم كانت هو الحارث، و الأكثر مالاً هو العباس. ولكن عذر العباس هو أنّه كان حينئذٍ صغيراً أيضاً؛ لأنه كان أسنّ من النَّبِيِّ (ص) بسنتين فقط، كما يقولون^(٢)، و إن كُنّا قد قلنا: إنّّه كان يكبره بأكثر من ذلك.

كما أن أباطالب قد كان شقيق عبدالله، والد النَّبِيِّ (ص) لأبيه و أمّه؛ فإنّ أمّهما هي فاطمة المخزوميّه، و طبعي أن يكون لأجل ذلك أكثر حناناً و عطفاً عليه و حبّاً له.

ثمّ إنّ أباطالب الذي كان هو و زوجته، أمّ أميرالمؤمنين (ع) يحملان نور

١- أصول الكافي، ج ١، ص ٣٧٢ ط سنه ١٣٨٨ هـ -

٢- و إن كُنّا نعتقد أنّه حتّى ولو كان سنّه إلى الحدّ الذي يتمكّن فيه من كفالته (ص) فإنّ عبدالمطلب لا يعهد به إليه؛ فإنّه هو الذي احتفظ بالسّقيه دون الرّفاده بسبب حرصه على المال و ضنّه به و هو الذي كان يحاول أن يحصل على فضله من المال من عمر بأسلوب عاطفي و بطريقه لا يتبعها إلّا من يهتمّ بالمال و بجمعه بشكل ظاهر.

ص: ٥٢

الولاية، قد كانا يحملان من المكارم والفضائل النفسية والمعنوية ومن الطهارة ما يؤهلها لأن يكونا كفلين لرسول الله (ص) و أبوين لوصيه وللائمة من ذريته.

الزَّحْلَةُ الأولى إلى الشَّام

و يقولون: إنه (ص) قد سافر إلى الشَّام بصحبة عمه أبي طالب وراهب بَصْرِي، وأخبر عمه أنه نبي هذه الأمة وأصرَّ عليه بأن يُرجعه إلى مكَّة، حتَّى لا يغتاله اليهود الذين يرون العلامات التي في كتبهم متحققة فيه، فخرج به عمه أبوطالب حتَّى أقدمه مكَّة. وكان عمر النَّبي (ص) حينئذٍ اثني عشر سنة، وقيل: تسع سنين. (١) وللنبي (ص) سفره أخرى إلى الشَّام للتجارة، ستأتي الإشارة إليها إن شاء الله في موضعها.

رعيه الغنم

و يذكر المؤرخون: أنه (ص) قد رعى الغنم في بني سعد، وأنه رعاها لأهله، بل و يقولون: رعاها لأهل مكَّة أيضاً؛ حتَّى ليزكرونها والبخاري منهم في كتاب الإجارة وغيره أنه (ص) قال: «ما بعث الله نبياً إلَّا رعى الغنم! قال أصحابه: وأنت؟ قال: نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكَّة». (٢)

١- راجع الطبري، ج ٢، ص ٣٣ و البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٨٦ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٢٠ و قال: إنَّ صاحب كتاب الهدى قد رَحَّجَ هذا القول

٢- البخاري هامش فتح الباري، ج ٤، ص ٣٦٣ و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ٥١ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٢٥.

ص: ٥٣

و فسّرت القراريط بأنّها أجزاء الدّراهم و الدّنانير يُشترى بها الحوائج الحقيرة. (١) ولكنّا نشكّ كثيراً في أن يكون (ص) قد رعى لغير أهله بأجر كهذا، تزهّد به حتّى العجائز، و لا- يصحّ مقابلته بذلك الوقت و الجهد الّذى يبذله في رعى الغنم، لأنّنا نجد أوّلًا؛ أنّ اليعقوبى و هو المؤرّخ الثّبت قد نصّ على أنّه (ص) لم يكن أجيراً لأحدٍ قطّ. (٢) و ثانياً؛ تناقض الروايات فبعضها يقول: لأهلى، و بعضها يقول: لأهل مكّة؛ و بعضها يقول: بالقراريط، و أخرى قد أبدلت ذلك بكلمة «بأجساد»، و إذا كان الرّاوى واحداً لم يقبل منه مثل هذه الاختلاف.

و يمكن أن يدفع هذا: بأنّ من المحتمل أن يكون قراريط إسم جبل في مكّة و قد رعى (ص) الغنم عليه. ولكن هذا و سواه من الاحتمالات لا شاهد له و إنّما يلجأ إليه لو كانت الرواية صحيحة السّند عن معصوم، و ليست كذلك، بل هى عن أبى هريرة و غيره ممّن لا يمكن الاعتماد عليهم.

١- السيرة النبوية، ج ١، ص ٥١ لزينى دحلان و السيرة الحليّة، ج ١، ص ١٢٥ و فتح البارى، ج ٤، ص ٣٦٤

٢- تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٢١ ط صادر.

ص: ٥٥

الفصل الثالث خديجه فى بيت النبى (ص)

اشاره

ص: ٥٧

السفر الثاني إلى الشام

و يقولون: إنه (ص) قد سافر سفره الثاني إلى الشام، و هو في الخامسة و العشرين من عمره. (١)

و يقولون: إن سفره هذا كان في تجارة لخديجة، و إن أبا طالب هو الذي اقترح عليه ذلك، حينما اشتد الزمان و ألحت عليهم سنون منكرة، فلم يقبل (ص) أن يعرض نفسه على خديجة؛ فبلغ خديجة ما جرى بينه (ص) و بين أبي طالب، فبادرت هي، و بذلت للرسول (ص) ضعف ما كانت تبدله لغيره، لما تعرفه من صدق حديثه و عظيم أمانته و كرم أخلاقه.

و يرى بعضهم: أن أبا طالب نفسه قد كلم خديجة في ذلك فأظهرت سرورها و رغبتها و بذلت له ما شاء من الأجر.

فسافر (ص) إلى الشام و ربح في تجارته أضعاف ما كان يربحه غيره، و ظهرت له في سفره بعض الكرامات الباهرة، فلمّا عادت القافلة إلى مكة أخبر ميسرة غلام خديجة سيده بذلك، فذكرت ذلك بالإضافة إلى ما ظهر لها هي منه (ص)

لورقة بن نوفل، ابن عمّها كما يقولون! و إن كنّا نحن نشكّ في ذلك فقال لها: إن كان ذلك حقاً فهو نبي هذه الأمة. (٢)

١- و في البحار عن بعضهم: أن سفره كان إلى سوق حباشة بتهامة، و كذا في كشف الغمّة، ج ٢، ص ١٣٥ عن الجنازدي في معالم العترة

٢- راجع: البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩٦ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٣٦.

ص: ٥٨

ثم اهتمت خديجة بالعمل على الاقتران به (ص) كما سنرى.

هكذا يقولون؛ ولكننا نشك في بعض ما تقدم، لا سيما وأن ورقة لم يسلم حتى بعد أن بعث رسول الله (ص). كما أن قولهم: إن خديجة قد استأجرته في تجارتها لا يمكن المساعدة عليه؛ وذلك لأننا نجد المؤرخ الأقدم، الثبت، ابن واضح المعروف باليعقوبى يقول: «وإنه ما كان مما يقول الناس: إنها استأجرته بشيء، ولا كان أجيراً لأحد قط» (١). ولعل في عزه نفس النبي (ص) وإبائها، و أيضاً في تسديد الله تعالى له، و أيضاً في شرف أبى طالب و مؤدده ما يبعد كثيراً أن يكون قد صدر شيء مما نسب إلى أبى طالب منه.

و على هذا، فقد يكون سفره (ص) إلى الشام، لا لكونه كان أجيراً لخديجة، بل لأنه كان يضارب بأموالها أو شريكاً لها و يدل على ذلك تصريح رواية الجنازى بالمضاربة، (٢) فراجع. و يؤيده ما رواه المجلسى من أن أباطالب قد ذكر له (ص) اتجار الناس بأموال خديجة و حثه على أن يبادر إلى ذلك، ففعل و سافر إلى الشام. (٣)

زواجه بخديجة

و لقد كانت خديجة (ع) من خيرة نساء قريش شرفاً و أكثرهن مالاً و أحسنهن جمالاً و كانت تدعى فى الجاهلية بـ «الطاهرة» (٤) و يقال لها: «سيده قريش» و كل

- ١- تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٢١ و نقل عن سفر السعادة، أنه (ص) بعد البعثة و قبل الهجرة كان يشتري أكثر مما يبيع، و بعد الهجرة لم يبيع إلّا ثلاث مرّات، أما شراؤه فكثير.... و أما شراسته مع غيره ففيها كثير من الإضطراب و ليس لنا مجال لتحقيق ذلك
- ٢- البحار، ج ١٦، ص ٩ و كشف الغمة، ج ٢، ص ١٣٤ عن معالم العترة للجنازى
- ٣- البحار، ج ١٦، ص ٢٢ عن البكرى و ص ٣ عن الخرائج و الجرائح، ص ١٨٦ و ١٨٧
- ٤- راجع: الإصابة، ج ٤، ص ٢٨٢ ٢٨١ و البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩٤ و تاريخ الإسلام للذهبي، ج ٢، الترجمة النبوية، ص ١٥٢ و قسم السيرة النبوية، ص ٢٣٧ و تهذيب الأسماء، ج ٢، ص ٣٤٢.

ص: ٥٩

قومها كان حريصاً على الإقتران بها لو يقدر عليه. (١) وقد خطبها عظماء قريش و بذلوا لها الأموال. و ممن خطبها عقبه بن أبي معيط، و الصّلت بن أبي يهاب، و أبو جهل و أبوسفیان، (٢) فرفضتهم جميعاً و اختارت النّبيّ (ص) لما عرفته فيه من كرم الأخلاق و شرف النّفس و السّجيا الكريمة العالية. و نكاد نقطع بسبب تظافر النّصوص بأنّها هي الّتي قد أبدت أوّلًا رغبتها في الاقتران به (ص). فذهب أبوطالب في أهل بيته و نفر من قريش إلى وليها و هو عمّها عمر و بن سعد؛ لأنّ أباهما كان قد قُتل قبل ذلك في حرب الفجار أو قبلها. (٣) و أمّا أنّه خطبها إلى ورقة بن نوفل و عمّها معاً، أو إلى ورقة وحده (٤) فمردود بأنّه أدعى الإجماع على الأوّل. (٥) نعم، إنّ أباطالب قد ذهب لخطبة خديجة، و ليس حمزة الّذي اقتصر عليه ابن هشام في سيرته؛ (٦) لأنّ ذلك لا ينسجم مع ما كان لأبي طالب من المكانة و السّودد في قريش، من جهة؛ و لأنّ حمزة كان يكبر النّبيّ (ص) بسنتين أو بأربع (٧) كما قيل

- ١- راجع: البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩٤ و بهجة المحافل، ج ١، ص ٧ و السيرة النبويّة لابن هشام، ج ١، ص ٢٠١ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٦٣ و طبقات ابن سعد، ج ١، ص ١٣١ ط - دار صادر
- ٢- البحار، ج ١٦، ص ٢٢
- ٣- كشف الغمّة، ج ٢، ص ١٣٩ و البحار، ج ١٦، ص ١٢ عنه و ص ١٩ عن الواقدي
- ٤- البحار، ج ١٦، ص ١٩ عن الواقدي و السيرة الحلبيّة، ج ١، ص ١٩٢ و الكافي، ج ٥، ص ٣٧٥ ٣٧٤، و فيه أن ورقة كان عمّ خديجة و كذا في البحار، ج ١٦، ص ١٤ و ٢١ عنه و عن البكري، و هو غير صحيح، لأنّ ورقة هو ابن نوفل بن اسد و خديجة هي بنت خويلد بن أسد
- ٥- السيرة الحلبيّة، ج ١، ص ١٣٧
- ٦- السيرة النبويّة، ج ١، ص ٢٠١ و السيرة الحلبيّة، ج ١، ص ١٣٨
- ٧- تقدمت مصادر ذلك حين الحديث حول إرضاع ثويبة لرسول الله (ص).

ص: ٦٠

من جهة أخرى. هذا بالإضافة إلى مخالفة ذلك لما يذكره عامة المؤرخين في المقام. و يظهر: أن ثمة من يهتم بسلب هذه المكرمة عن أبي طالب (ع) و إعطائها لأي كان من الناس سواء، سواء لحمزة أو لغيره.

خطبة أبي طالب (ع)

و على كل حال فقد خطبها أبو طالب له (ص) قبل بعثته (ص) بخمس عشرة سنة على المشهور، و قال في خطبته على المشهور: الحمد لرب هذا البيت، الذي جعلنا من زرع إبراهيم و ذريته إسماعيل و أنزلنا حرماً آمناً و جعلنا الحكام على الناس و بارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه.

ثم إن ابن أخي هذا يعني رسول الله (ص) ممن لا يوزن برجل من قريش إلّا حج به، و لا يقاس به رجل إلّا عظم عنه، و لا عدل له في الخلق، و إن كان مُقلاً في المال؛ فإنّ المال رقد جار و ظلّ زائل، و له في خديجة رغبة، و قد جئناك لنخطبها إليك برضاها و أمرها، و المهر علىّ في مالي الذي سألتموه عاجله و آجله. و له و ربّ هذا البيت حظّ عظيم، و دين شائع، و رأى كامل. (١) هذه الخطبة تُظهر مكانة الرسول الفضلى في قلوب الناس، و هي صريحة في أنّ الناس كانوا يجدون في الرسول علامات النبوة و نور الهداية و يتوقعون أن يكون هو الذي بشر به عيسى و موسى، و أنّه كان لا يوزن به أحد إلّا رجح به و لا يقاس به رجل إلّا عظم عنه. ثمّ إنّ كلمات أبي طالب تدلّ دلالة واضحة على ما كان يتمتع به بنو هاشم، من

١- الكافي، ج ٥، ص ٣٧٥ ٣٧٤ و البحار، ج ١٦، ص ١٤ عنه و ص ١٦ عمّن لا- يحضره الفقيه، ص ٤١٣ و في ص ٥ عن شرف المصطفى و الكشف و ربيع الأبرار و الإبانة لابن بطّة؛ و السيرة للجويني، عن الحسن و الواقدي و أبي صالح و العتبي، و المناقب، ج ١، ص ٤٢.

ص: ٦١

شرف و سؤدد، حتّى ليقول (رحمه الله): «وَجَعَلْنَا الْحَكَامَ عَلَى النَّاسِ». ثمّ إنّ حديثه عن فقر النّبى (ص) و إعطاء الضابطة للتفضيل بين الرجال يدلّ على واقعيّة أبى طالب، و أنّه ينظر إلى الإنسان بمنظار سام و نبيل، كما أنّه يتعامل مع الواقع بحنكة و وعى و أناة.

مهر خديجة

إنّ إبطال قد ضمن المهر فى ماله كما هو صريح خطبته و لكن خديجة (ع) عادت فضمنت المهر فى مالها، فقال البعض: يا عجباً! المهر على النساء للرجال؟! فغضب أبوطالب و قال: إذا كانوا مثل ابن أخى هذا طلبت الرجال بأعلى الأثمان و أعظم المهر، و إن كانوا أمثالكم لم يزوجوا إلّا بالمهر الغالى. و عن مقدار المهر، قيل: إنّه عشرون بكرة، (١) و قيل: اثنا عشر أوقية (٢) و نش، (٣) أى ما يعادل خمس مئة درهم، و قيل غير ذلك. (٤)

عمر خديجة حين الزواج

و يلاحظ هنا مدى الاختلاف فى عمر خديجة حين اقترانها بالرسول الأعظم (ص) و هو يتراوح ما بين ٢٥ سنة إلى ٤٦ سنة و هو على النحو الآتى:

- ١- البكر: الفتى من الإبل بمنزلة غلام من الناس و الأنثى بكرة
- ٢- الأوقية إسم لأربعين درهماً
- ٣- النش نصف الأوقية و هو عشرون درهماً
- ٤- راجع السيرة الحليّة، ج ١، ص ١٣٩ ١٣٨.

ص: ٦٢

٢٥ سنة و صححه البيهقي؛ (١) ٢٨ سنة و هو ما رجحه كثيرون؛ (٢) ٣٠ سنة، (٣) ٣٥ سنة (٤)، ٤٠ سنة، (٥) ٤٤ سنة، (٦) ٤٥ سنة (٧) و ٤٦ سنة. (٨) و قد تقدم أن الكثيرين قد رجحوا القول الثاني كما ذكره ابن العماد؛ فإذا كانت (ع) قد تزوجت برسول الله قبل البعثة بخمس عشرة سنة كما جزم به البيهقي نفسه، فيكون عمرها حين زواجها خمسا و عشرين سنة. أما الحاكم الذي روى لنا القول الثاني عن ابن إسحاق، فإنه لم يوضح لنا حقيقة ما يذهب إليه، غير أنه حين روى عن هشام بن عروة قوله: «إن خديجة قد توفيت و عمرها خمس و

١- دلائل النبوة ط دار الكتب العلمية، ج ٢، ص ٧١ و البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩٥ ٢٩٤

٢- شذرات الذهب، ج ١، ص ١٤، و اقتصر عليه في بهجة المحافل، ج ١، ص ٤٨، و رواه عن ابن عباس كل من أنساب الأشراف (قسم حياة النبي (ص))، ص ٩٨ و تهذيب تاريخ دمشق، ج ١، ص ٣٠٣ و سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١١١ و مختصر تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٢٧٥ و البحار، ج ١٦، ص ١٢ عن الجنابذي كلهم عن ابن عباس. و رواه في مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٨٢ عن ابن إسحاق دون أن يذكر له قولاً آخر، و راجع ايضاً: سيرة مغلطاي، ص ١٢، و المحبر، ص ٧٩، و تهذيب الأسماء، ج ٢، ص ٣٤٢ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٦٤ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٤٠

٣- راجع: السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٤٠ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٦٤ و سيرة مغلطاي، ص ١٢ و تهذيب تاريخ دمشق، ج ١، ص ٣٠٣

٤- البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩٥ و السيرة النبوية لابن كثير، ج ١، ص ٢٦٥ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٤٠

٥- أنساب الأشراف (قسم حياة النبي (ص)) ص ٩٨ و سيرة مغلطاي، ص ١٢ و المحبر، ص ٤٩ و المواهب اللدنية، ج ١، ص ٣٩ و ٣٠٣ و شذرات الذهب، ج ١، ص ١٤ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٦٤ و أسد الغابة (دار الشعب) ج ٧، ص ٨٠ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٤٠ و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ٥٥ ط دار المعرفة

٦- تهذيب تاريخ دمشق، ج ١، ص ٣٠٣ عن الواقدي

٧- تهذيب الأسماء، ج ٢، ص ٣٤٢ و مختصر تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٢٧٥ عن الواقدي

٨- راجع: أنساب الأشراف (قسم حياة النبي (ص)) ص ٩٨.

ص: ٦٣

ستون سنة» قال: هذا قول شاذّ فإنّ الذي عندي، أنّها لم تبلغ ستين سنة. (١) فكلامه يدل على أنّه يعتبر القول بأنّها قد تزوّجت بالنبي (ص) و عمرها اربعون سنة شاذّ.

هل تزوّج (ص) خديجة طمعاً في مالها؟!

هذا، وقد جاء في كلمات بعض المتّهمين على الإسلام كلام باطل، تكذب به كل الشواهد التاريخية، وهو أنّه (ص) إنّما تزوج خديجة طمعاً في مالها. (٢) ولسنا نريد الإسهاب في الإجابة على هذا الهذيان، فإنّ حياة النبي (ص) من بدايتها إلى نهايتها لخير شاهدٍ على أنّه (ص) ما كان يقيم للمال وزناً. وقد أنفقت خديجة (ع) كلّ أموالها طائعه راغبة، ليس على النبي (ص) و مملّذاته، (٣) و إنّما على الدّعوة إلى الإسلام و في سبيل هذا الدين. و أيضاً، فإنّ خديجة هي التي عرضت نفسها على النبي (ص) و لم يتقدّم هو (ص) بطلب يدها، ليقل: إنّّه إنّما فعل ذلك طمعاً في مالها.

و يرى الشيخ محمد حسن آل ياسين أنّ حبه (ص) و تقديره لها في أيام حياتها، بل و بعد مماتها حتّى لقد كان ذلك منه يشير بعض زوجاته اللواتي ما رأين و لا عشن مع خديجة دليل واضح على بطلان هذا الزّعم. (٤)

هل تزوّجت خديجة بأحد قبل النبي (ص)؟

ثمّ إنّّه قد قيل: إنّّه (ص) لم يتزوّج بكرةً غير عايشة؛ و أما خديجة، فإنّها قد

١- مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٨٢

٢- النبوة، للشيخ محمد حسن آل ياسين، ص ٦٣

٣- الملائد و المملذات: الشهوات، الواحدة ملذّة

٤- كتاب النبوة، ص ٦٣.

ص: ٦٤

تزوّجت قبله (ص) برجلين و لها منهما بعض الأولاد و هما «عتيق بن عائذ بن عبدالله المخزومي» و «أبوهالة التميمي». أمّا نحن، فنشكّ في دعواهم تلك، و نحتمل جدّاً أن يكون كثير ممّا يقال في هذا الموضوع قد صنعتها يد السياسة، و لا نريد أن نسهب في الكلام عن اختلافهم في اسم أبي هالة و هل هو صحابي أولاً، و هل تزوّجته قبل عتيق، أو تزوّجت عتيقاً قبله؟ (١) و لا في كون هند الذي ولدته خديجة هو ابن هذا الزوج أو ذاك، فإن كان ابن عتيق فهو انثى (٢) و إلّا فهو ذكر، و أنّه هل قتل مع علي (ع) في حرب الجمل أو مات بالطّاعون بالبصرة. (٣) لا، لا نطيل بذلك و إنّما نكتفي بتسجيل الملاحظات التالية: أوّلها؛ قال ابن شهر آشوب: «و روى أحمد البلاذري، و أبو القاسم الكوفي في كتابيهما، و المرتضى في الشّافي، و أبوجعفر في التّليخيص: أن التّبيّ (ص) تزوّج بها و كانت عذراء. يؤكّد ذلك ما ذكر في كتابي الأنوار و البدع: أن رقيّة و زينب كانتا ابنتي هالة اخت خديجة». (٤) ثانياً؛ قال أبو القاسم الكوفي: «إنّ الإجماع من الخاصّ و العام من أهل الآثار و نقله الأخبار على أنّه لم يبق من أشراف قريش و من ساداتهم و ذوى النّجدة منهم،

١- راجع: الأوائل، ج ١، هامش، ص ١٥٩

٢- راجع: الأوائل، ج ١، ص ١٥٩ و قال: «إنّ هنداً هذه قد تزوّجت من صيفي بن عائذ فولدت محمد بن صيفي»

٣- للإطلاع على هذا الاختلافات و غيرها راجع: المصادر التالية و قارن بينها: الإصابه، ج ٣، ص ٦١٢ ٦١١ و نسب قريش لمصعب الزبيرى، ص ٢٢ و السيرة الحليّة، ج ١، ص ١٤٠ و قاموس الرّجال، ج ١٠، ص ٤٣١ و نقل عن البلاذري و اسد الغابة، ج ٥، ص ١٣ و ٧١، و غير ذلك

٤- مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٥٩ و البحار و رجال المامقاني و قاموس الرّجال كلّهم عن المناقب.

ص: ٦٥

إلّا من خطب خديجة و رام تزويجها، فامتنعت على جميعهم من ذلك، فلمّا تزوّجها رسول الله (ص) غضب عليها نساء قريش و هجرنها و قلن لها: خطبك أشراف قريش و أمراؤهم فلم تتزوجي أحداً منهم، و تزوّجت محمداً يتيماً أبى طالب، فقيراً لا مال له. فكيف يجوز في نظر أهل الفهم أن تكون خديجة يتزوّجها أعرابي من تميم و تمتنع من سادات قريش و أشرافها على ما وصفناه؟! ألا يعلم ذوو التمييز و النظر أنّه من أبين المحال و أفضع المقال؟! (١) و أمّا الردّ على ذلك بأنّه لا يمكن أن تبقى امرأة شريفة و جميلة هذه المدّة الطويلة بلا زواج، فليس على ما يرام؛ لأنّ ذلك لا يبرّر رفضها لعظماء قريش و قبولها بأعرابي من بنى تميم. و أمّا كيف يتركها أبوها أو وليها بلا تزويج؟ فقد قلنا إنّ أباهما قد قتل في حرب الفجار أو قبلها، و أمّا وليها، فلم يكن له سلطه الأب ليجبرها على الزّواج ممّن أراد. و بقاء المرأة الشريفة و الجميلة مدّة بلا زواج ليس بعزيز إذا كانت تصبر إلى أن تجد الرّجل الفاضل الكامل الذي كان يعزّ وجوده في تلك الفترة.

ثالثاً؛ كيف لم يعيها زعماء قريش الذين خطبوا فردّتهم، بزواجها من أعرابي بوالٍ على عقبيه كعتيق أو غيره؟! رابعاً؛ قد ذكروا أنّ أوّل شهيد في الإسلام ابن لخديجة (ع) اسمه الحارث بن أبي هاله، استشهد حينما جهر رسول الله (ص) بالدعوة. (٢) و ذلك لا يمكن قبوله؛ حيث قد روى بسند صحيح عندهم، عن قتاده، أنّ أوّل شهيد في الإسلام هو سميّة والدّة عمّار (٣)، و كذا روى عن مجاهد. (٤)

١- الإستغاثه، ج ١، ص ٧٠

٢- الأوائل لأبي هلال العسكري، ج ١، ص ٣١٢ ٣١١ و الإصابة، ج ١، ص ٢٩٣ عنه و عن ابن الكلبي و ابن حزم و محاضرة الأوائل، ص ٤٦

٣- الإصابة، ج ٤، ص ٣٣٥ و طبقات ابن سعد، ج ٨، ص ١٩٣ ط ليدن

٤- الإستيعاب هامش الإصابة، ج ٤، ص ٣٣١.

ص: ٦٦

و عن ابن عباس: «قتل أبوعمار و أمّ عمار و هما أوّل قتيّتين قتلتا من المسلمين» (١) إلّا أن يدّعى: أن سميّة كانت أوّل من استشهد من النساء و الحارث كان أوّل من استشهد من الرجال، ولكنّه احتمال بعيد و مخالف لظاهر كلماتهم، لا سيّما و أن كلمة شهيد تطلق على الذّكر و الأنثى بلفظ واحد، مثل قتل و جريح.

فظهر ممّا تقدم: أن هذا النص لا يدل على وجود ابن لخديجة، مادام أنّه قد ثبت حصول الكذب في جزء منه. و لعلّ هذا الكذب قد جاء لأجل الإيحاء بطريق غير مباشر بأنّ لخديجة ولداً من النّبيّ (ص) و أنّ ذلك غير قابل للنّقاش، و لكن قد قيل: لا حافظه لكذوب. خامساً؛ لقد روى أنّه كانت لخديجة أخت اسمها «هالة»، تزوّجها رجل مخزومي، فولدت له بنتاً اسمها «هالة»، ثمّ خلف عليها - أي على هالة الأولى - رجل تميمي يقال له: «أبو هند»، فأولدتها ولداً اسمه «هند». و كان لهذا التّميمي امرأة أخرى قد ولدت له «زينب» و «رقية»، فماتت و مات التّميمي، فلحق ولده «هند» بقومه، و بقيت «هالة» أخت خديجة و الطّفلتان اللّتان من التّميمي و زوجته الأخرى، فضمّتهم خديجة إليها، و بعد أن تزوّجت بالرّسول (ص) ماتت «هالة» فبقيت الطّفلتان في حجر خديجة و الرّسول (ص). و كان العرب يزعمون أن الرّبيّة بنت، و لأجل ذلك نُسبتا إليه (ص) مع أنّهما ابنتا أبي هند، زوج اختها و كذلك كان الحال بالنّسبة لهند نفسه. (٢) و لربّما يمكن تأييد هذه الروايات بماورد من الاختلاف في اسم والد هند، فلتراجع المصادر التي ذكرناها ثمّة.

١- صفين للمنقري، ص ٣٢٥

٢- راجع: الإستغاثه، ج ١، ص ٦٩ ٦٨ و رساله حول بنات النّبيّ (ص)، مطبوعه ط حجريه في آخر مكارم الأخلاق، ص ٦.

ص: ٦٧

الفصل الرابع حتى البعثة

اشاره

حضور النبى (ص) حرب الفجار

و يذكر المؤرخون أنّ حرباً قد هاجت بين قيس من جهة، و قريش و كنانة من جهة أخرى فى الأشهر الحُرُم (أشهر الحج و رجب معها) و لذلك سميت حرب الفجار. و يقال: إنّه (ص) قد حضر بعض أيامها و شارك فيها فعلاً، بنحو من المشاركة. و لكننا بدورنا لا نستطيع أن نؤكد صحّة ذلك، بل و نشكّ كثيراً فيه و ذلك لأمور:

الأوّل؛ لقد وقعت حرب الفجار فى الأشهر الحرم، فى رجب، و لا نرى مبرراً لأن يهتك أبوطالب و معه الرّسول (ص) حرمة الأشهر الحرم، كما يظهر لمن راجع سيرتهما و مدى تقيدهما بمثل هذه الأمور؛ فإنّهما كانا مسلمين. (١) إلّا إذا وُجّهت المشاركة بأنّ حرب الفجار قد وقعت فى أشهر النّسّى، أو فى شعبان، أو شوال و كان بسببها فى الأشهر الحُرُم. (٢) و لكنّه توجيه لا يعتمد على أى سند تاريخى، فلا مجال للتّعويل عليه.

الثانى؛ قال يعقوبى: «و قد روى أنّ أباطالب منع أن يكون فيها (فى حرب الفجار) أحدٌ من بنى هاشم، و قال: هذا ظلم و عدوان و قطيعه رحم و استحلال للشّهر الحرام، و لا أحضره، و لا أحد من أهلى؛ فأخرج الزّبير بن عبدالمطلب

١- راجع: البحار، ج ١٥، ص ١١٧

٢- راجع: السّير الحلبى، ج ١، ص ١٢٨.

ص: ٧٠

مستكرهاً، وقال عبدالله بن جُددان التميمي و حرب بن امية: لا نحضر أمراً تغيب عنه بنوهاشم» (١). الثالث؛ اختلاف الروايات حول الدور الذي أداه النبي (ص) في هذه الحرب؛ (٢) بل نجد البعض يناقض نفسه، فيقول: إن النبي (ص) قد ولد عام الفيل، و أنه حضر الفجار و عمره أربع عشرة سنة، ثم يقول في آخر كلامه: إن حرب الفجار كانت بعد عام الفيل بعشرين سنة. (٣) و التناقض الآخر هو أن الكلام الذي نقلناه عن اليعقوبي ينص على أن حرب بن امية قد تغيب عن هذه الحرب؛ بينما نجد الروايات الأخرى تنص على أنه كان قد حضرها و كان قائد قريش و كنانة.

حلف الفضول

و بعد منصرف قريش من حرب الفجار دعا الزبير بن عبدالمطلب (٤) إلى حلف الفضول، و عقد الاجتماع في دار عبدالله بن جُددان، و غمسوا أيديهم في ماء زمزم، و تحالفوا و تعاهدوا على نصره المظلوم، و التأسي بالمعاش، و التهي عن المنكر، و كان أشرف حلف.

- ١- تاريخ اليعقوبي، ط صادر، ج ٢، ص ١٥
- ٢- فبعضهم يروى: أن عمله (ص) قد اقتصر على مناولة أعمامه النبل و رد نبل عدوهم عليه و حفظ متاعهم (سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٩٨ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٥٩) و آخر يروى: أنه قد رمى فيها برميات ما يحب أنه لم يكن قدرهاها (السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ٥١ والسيرة الحلبية، ج ١، ص ١٢٧) و ثالث يروى: أنه طعن أبا براء ملاعب الأسنة فصرعه (المصدران المتقدمان) مع أنهم يقولون: إن عمره حينئذ كان أربع عشرة سنة! (المصادر الأربعة المتقدمة، إلا أن صفحة ابن هشام هي ١٩٥) أو أنه كان حينئذ غلاماً (تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٦، ط صادر)
- ٣- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٥٩ و سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٩٥ و ١٩٨
- ٤- هو غير زبير بن العوام، الذي حارب أمير المؤمنين (ع) في وقعة الجمل.

ص: ٧١

والمتحالفون على ذلك هم: بنو هاشم و بنو المطلب و بنو أسد بن عبد العزى و زهرة و تميم. (١) و قد حضر هذا الحلف نبينا الأعظم (ص) و أثنى عليه بعد نبوته و أمضاه. فقد روى أنه (ص) قال: «ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم، ولو دُعيت به لأجبت». (٢) و سبب هذا الحلف، أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، فجلس عنه حقّه، فاستعدى عليه الزبيدى الأحلاف، الذين كانوا يُسمون «لعقة الدّم»؛ لأنهم حين تحالفوا، غمسوا أيديهم بالدم. والأحلاف هم: عبدالدار و مخزوم و جَمَح و سهم و عَيدى بن كعب. فأبى الأحلاف معونة الزبيدى على العاص بن وائل، و انتهبوه؛ و ذلك لما كان يتمتع به العاص هذا من نفوذ.

فلما رأى الزبيدى الشر، صعد على أبى قبيس و استغاث، فقام الزبير بن عبدالمطلب و دعا إلى الحلف المذكور، فعقد؛ ثم مشوا إلى العاص، و انتزعوا منه سلعة الزبيدى، فدفعوها إليه. (٣)

ملاحظات على حلف الفضول

١. إن موقف النبى (ص) لهذا الحلف و إمضائه آياه، يدلّ على أن الإسلام قد أمضى هذا الحلف؛ لأنه قائم على أساس الحقّ و العدل و الخير، و هل الإسلام إلّا

١- راجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلى، ج ١٤، ص ١٢٩ و نسب قريش لمصعب، ص ٣٨٣ و البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩٣ و الأغانى، ج ١٦، ص ٦٦ ٦٥. و أنكر البعض أن يكون بنو أسد بن عبد العزى فى حلف الفضول (الأغانى، ج ١٦، ص ٦٦) و قالوا: إنّ عبدالله بن الزبير قد ادعى ذلك لهم فى الإسلام (المصدر السابق، ص ٧٠).

٢- أعيان الشيع، ج ٢، ص ١٣ و سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٤٢ و البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩١ و ٢٩٣ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٦١

٣- البداية و النهاية، ج ٢، ص ٢٩٢ ٢٩١ و السيرة الحليّة، ج ١، ص ١٣٢ و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ٥٣.

ص: ٧٢

ذلك؟ إنه يمضيه مع انّ الذين قاموا به كانوا وقتها على الشّرك والكفر، و لكنّه يهدم مسجد الضّرار، مع انّ الذين بنوه كانوا يتظاهرون بالإسلام و يتعاملون على أساسه، بحسب الظّاهر.

و هذا ما يؤكّد واقعِيّة الإسلام، و أنّه إنّما ينظر إلى عمل يدي الصّياد لا إلى دموع عينيه و أنّه لا يغتبر بالمظاهر و لا تخدعه الشّعارات مهما كانت برّاقّة، إذا كانت تخفي وراءها الوصوليّة، و الخيانة و التّأمر؛ فالحقّ حقّ و مقبول و لا بدّ من الالتزام به و التّعامل على أساسه، ولو صدر من مشرك؛ و الباطل باطل و مرفوض و لا يجوز الالتزام به و لا التّعامل على أساسه، مهما كانت الشّعارات برّاقّة و مُغريّة.

٢. إنّ اهتمام النّبى (ص) بحلف الفضول إنّما يدلّ على انّ الإسلام ليس منغلّقاً على نفسه و إنّما هو يستجيب لكلّ عمل إيجابى فيه خيرٌ للانسان، و يشارك فيه على أعلى المستويات، انطلاقاً من الشّعور بالمسؤوليّة و انسجاماً مع أهدافه العليا، و مع المقتضيات الفطريّة و أحكام العقل السليم.

٣. أمّا استجابة الذين استجابوا للزّبير بن عبدالمطلب حينما دعا لعقد هذا الحلف، فلعلّ لهم دوافع مختلفة باختلاف الأشخاص و البيوتات و القبائل، و من هذه الدّوافع:

- الف. الدّافع الفطرى الإنسانى؛ لأنّ هذا هو ما تحكم به الفطرة و العقل السليم، ثمّ هو ينسجم مع الشّعور الإنسانى و الأخلاقى.
- ب. الدّافع المصلحى، و ذلك لأنّ عدم الأمن فى مكّة لسوف يقلّل من رغبة التّجار فى الوفود عليها و التّعامل مع أهلها.
- ج. و ثمة دوافع أخرى ربّما تكون لدى بعضهم كالحفاظ على قدسيّة مكّة و أهلها فى نفوس العرب، و غير ذلك.

ولادة الزّهاء (ع)

يذكر البعض: أنّ فاطمة الزّهاء (ع) بنت الرّسول الأعظم (ص) قد ولدت قبل

ص: ٧٣

البعثة، ثم يختلفون أولئك البعض فيما بينهم في تمديد سنة ولادتها، فبعضهم يقول: أنها ولدت سنة بناء الكعبة، أى قبل البعثة بخمس سنين، (١) وبعضهم يقول: إنها ولدت قبل البعثة بسبع سنين، (٢) وقيل: بإثنتى عشرة سنة. (٣) والقائلون بأنها ولدت بعد البعثة اختلفوا أيضاً، بين قائل: إنها ولدت سنة البعثة، (٤) وقيل: فى الثانية، (٥) وقيل: سنة إحدى وأربعين من عمره الشريف. (٦) والقول الحق هو ما عليه شيعه أهل البيت تبعاً لأئمتهم (ع) وأهل البيت أدري بما فيه و تابعهم عليه جماعة من غيرهم، و هو أنها قد ولدت فى السنة الخامسة من البعثة و توفيت و عمرها ثمانية عشر عاماً. (٧) و يدل على ذلك و يؤيده مايلي:

- ١- راجع: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٧٧ و ذخائر العقبى، ص ٥٢ و مقاتل الطالبين، ص ٤٨ و سيرة مغلطاي، ص ١٧ عن ابن الجوزى و البحار، ج ٤٣، ص ٩
- ٢- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٧٨ و ذخائر العقبى، ص ٥٢
- ٣- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٧٧ و ذخائر العقبى، ص ٥٢ و المواهب اللدنية، ج ١، ص ١٩٨ و الاستيعاب، بهامش الإصاغة، ج ٤، ص ٣٧٤ و اختاره الحاكم فى المستدرک، ج ٣، ص ١٦١
- ٤- البحار، ج ٤٣، ص ٨ عن إقبال الأعمال، عن حدائق الرياض للشيخ المفيد. و تاريخ الخلفاء، ص ٧٥
- ٥- البحار، ج ٤٣، ص ٩ و فى الاستيعاب (بهامش الإصاغة) ج ٤، ص ٣٧٤ و نهاية الإرب، ج ١٨، ص ٢١٣
- ٦- فى مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٦٣ ذكر أنها ماتت و عمرها (٢١) سنة و ولدت على رأس (٤١) من مولده (ص) و كذا فى نهاية الإرب، ج ١٨، ص ٢١٣ و دلائل النبوة للبيهقى (ط دار الكتب العلمية) ج ٢، ص ٧١
- ٧- ذخائر العقبى، ص ٥٢ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٧٨ نقلًا عن الإمام أبى بكر أحمد بن نصر بن عبدالله الدراع فى كتاب تاريخ مواليد أهل البيت. و مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٨٩ و البحار، ج ٤٣، ص ١٠١ عن الكافى بسند صحيح و المصباح الكبير و دلائل الإمامة و مصباح الكفعمى و الروضة و مناقب ابن شهر آشوب.

ص: ٧٤

١. قول أمير المؤمنين (ع) وهو يتحدث عن بعثة النبي (ص):

ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وأنا ثالثهما. (١) فقد دلت هذه الفقرة على أن الوحي قد نزل على النبي (ص) وأصبح رسولاً وبرز فجر الإسلام في حضور علي (ع) وكان أول بيت تكون في الإسلام بضم رسول الله (ص) وخديجة وعلياً (ع) فقط، فلو كانت فاطمة (ع) قد ولدت قبل البعثة بخمس سنوات، لم يصح حصره (ع) أهل ذلك البيت بهؤلاء الثلاث.

١. تصريح بعض المؤرخين بأن أولاد خديجة كلهم قد ولدوا بعد الإسلام باستثناء عبد مناف، (٢) مع العلم بأن فاطمة (ع) كانت أصغر أولاده (ص). ويدل على ذلك ما ذكر في الاستيعاب في ترجمة خديجة بأن الطيب قد ولد بعد النبوة، وولدت بعده أم كلثوم، ثم فاطمة (ع).

٢. وتدل على أنها قد ولدت بعد البعثة روايات كثيرة أوردها جماعة من العلماء على اختلاف نحلهم ومشار بهم، تدل على أن نطفتها قد انعقدت من ثم جاء به جبرئيل (ع) إلى النبي (ص) من الجنة، حين الأسراء والمعراج، وذلك مروي عن عدد من الصحابة، منهم عايشة وعمر بن الخطاب وسعد بن مالك وابن عباس وغيرهم. (٣) وإذا أمكن المناقشة في بعض تلك الروايات فإن البعض الآخر لا
٣.

١- نهج البلاغة (بشرح عبده) ج ٢، ص ١٥٧، الخطبة رقم (١٩١) وهي المسماة ب- «القاصعة»

٢- راجع: البدء والتاريخ، ج ٥، ص ١٦ والمواهب اللدنية، ج ١، ص ١٩٦ وتاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٧٢

٣- تجد بعض هذه الروايات في كتب الشيعة، مثل: البحار، ج ٤٣، ص ٤ و ٥ و ٦ عن أمالي الصيّدوق و عيون أخبار الرضا و معاني الأخبار و علل الشرايع و تفسير القمي و الإحتجاج و غير ذلك، و الأنوار النعمانية، ج ١، ص ٨٠ و في كتب غيرهم، مثل المستدرک على الصحيحين، ج ٣، ص ١٥٦ و تلخيصه للذهبي، و نزل الأبرار، ص ٨٨ و الدر المنثور ج ٤، ص ١٥٣ و تاريخ بغداد، ج ٥، ص ٨٧.

ص: ٧٥

مجال للنقاش فيه.

و يؤيد ذلك أيضا ما روى من أن خديجة (ع) كانت قد هجرتها نساء قريش؛ فلما حملت بفاطمة (ع) كانت تحدّثها من بطنها و تصبرها. (١) بقي هنا شيء و هو استبعاد حمل خديجة بفاطمة (ع) في السنة الخامسة من البعثة، لأن سنّ خديجة كان حينئذ عالياً. و فيه أن سنّ خديجة حينئذ كان ما بين ٤٥ حتى ٥٠ سنة بناءً على عدد من الأقوال في مقدار عمرها، و لعل من بينها ما هو الأقوى و إن كان المشهور خلافه.

و حتّى على هذا المشهور، فإنّ عمر خديجة حينئذ كان لا يأبى عن الحمل؛ فإنّ القرشيّة يستمرّ حيضها إلى الستين، كما هو مقرّر في الفقه، و هذا يعنى: أن قابليّة الحمل موجودة أيضاً، كما هو ظاهر. (٢) و بعد كلّ ما تقدّم، فإنّه إذا كانت فاطمة (ع) قد ولدت في السنة الخامسة من البعثة، فإنّها تكون قد توفيت و عمرها ثمانية عشر عاماً فقط، كما هو ظاهر.

بماذا كان يدين النبي قبل البعثة؟

إنّ إيمان النبي (ص) و توحيده قبل بعثته يعتبر من المسلّمات؛ ولكن يبقى أنّهم قد اختلفوا في أنّه (ص) هل كان متعبداً بشرع أحد من الأنبياء قبله أولاً؟ فهل هو متعبّد بشرع نوح، أو إبراهيم، أو عيسى، أو بما ثبت أنّه شرع، أو لم يكن متعبداً

١- البحار، ج ٤٣، ص ٢

٢- و ممّا ذكرنا و من قول المصباح: «و العاميّة تروى أن مولدها كان قبل المبعث بخمس سنين (البحار، ج ٤٣، ص ٢) نعرف أن المسعودي قد اشتبه في نسبة القول بالتسع و العشرين إلى أكثر أهل البيت و شيعتهم (التنبيه و الإشراف) ص ٢٥٠، و لعلّه سهو من قلمه، أو عمد، أو سهو من النسخ، بحيث كان في الأصل تسع عشرة، فبدّل إلى تسع و عشرين.

ص: ٧٦

بشرع أحد؟ ذهب إلى كل فريق، (١) وتوقف في ذلك بعض، منهم عبد الجبار والغزالي والسيد المرتضى. وذهب المجلسي إلى أنه (ص) حسب ما صرحت به الروايات كان قبل البعثة، مذ أكمل الله عقله في بدو سنه نبياً مؤيداً بروح القدس، (٢) يكلمه الملك و يسمع الصوت، و يرى في المنام، ثم بعد أربعين سنة صار رسولاً، و كلمه الملك معانته، و نزل عليه القرآن و أمر بالتبليغ. إن ذلك ظهر له من الآثار المعبرة و الأخبار المستفيضة. (٣) و قد استدلوا على نبوته (ص) منذ صغره بأن الله تعالى قد قال حكاية عن عيسى: «قال إني عبد الله آتاني الكتاب و جعلني نبياً و جعلني مباركاً أين ما كنت و أوصاني بالصلاة و الزكاة ما دمت حياً» (٤) و يقول الله تعالى عن يحيى (ع): «و آتيناه الحكم صبياً» (٥) فاذا أضفنا إلى ذلك: أنه قد ورد في أخبار كثيرة بعضها صحيح كما في رواية يزيد الكناسي في الكافي إن الله لم يعط نبياً فضيلة و لا كرامة و لا معجزة، إلّا أعطاها نبينا الأكرم (ص). فالنتيجة: هي أن الله تعالى قد أعطى نبينا محمداً (ص) الحكم و النبوة منذ صغره أو قل: منذ ولد- (٦) ثم أرسله للناس كافة، حينما بلغ الأربعين من عمره، و

١- راجع: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٥٤

٢- و كان عيسى أيضاً مؤيداً بروح القدس؛ قال تعالى: «و أيدناه بروح القدس» و لو لم يكن نبينا مؤيداً بروح القدس لكان يحيى و عيسى أفضل منه

٣- البحار، ج ١٨، ص ٢٧٧

٤- مريم: ٣٠ و ٣١

٥- مريم: ١٢

٦- راجع: البحار، ج ١٨، ص ٢٧٩ ٢٧٨.

ص: ٧٧

قد أيد المجلسي هذا الدليل بوجوه كثيرة^(١) و أشار العلامة الأميني أيضاً إلى حديث: إنه (ص) كان نبياً و آدم بين الروح و الجسد، و رواه عن العديد من المصادر من غير الشيعة^(٢) والمتحصّل من مجموع الروايات: أنّه (ص) كان مؤمناً موحّداً، يعبد الله و يلتزم بما ثبت له أنّه شرع الله تعالى ممّا هو من دين الحنيفيّة شريعته إبراهيم (ع) و بما يؤدّي إليه عقله الفطري السليم، و أنّه كان مؤيداً و مسدّداً، و أنّه كان أفضل الخلق و أكملهم خلقاً و خلقاً و عقلاً، و كان المَلَك يعلمه و يدلّه على محاسن الأخلاق.

١- المصدر السابق، ص ٢٨١ ٢٧٧

٢- راجع: الغدير، ج ٩، ص ٢٨٧.

ص: ٧٩

القسم الثاني من البعثه حتى الهجره

اشاره

ص: ٨١

الفصل الدهوه فى مراحلها الامولى

اشاره

ص: ٨٣

لقد بعث الله تعالى محمداً (ص) رسولا للناس أجمعين بعد عام الفيل بأربعين عاماً، أى حينما بلغ الأربعين من عمره الشريف على قول أكثر أهل السير و العلم بالأثر، و كان قبل ذلك يسمع الصوت و لا يرى الشخص حتى تراءى له جبرئيل و هو فى سن الأربعين (١) و المروى عن أهل البيت (ع) أن بعثته (ص) كانت فى السابع و العشرين من رجب، و هذا هو المشهور، بل ادعى المجلسى الإجماع عليه عند الشيعة، و روى عن غيرهم أيضاً (٢).

١- و قيل: كان عمره (ص) حين بعثته اثنين، و قيل: ثلاثاً، و قيل: خمساً و أربعين سنة (راجع فى ذلك كلاً أو بعضاً: سيرة مغلطاي، ص ١٤ و السيرة الحليّة، ج ١، ص ٢٢٤ و تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٤٢ و ٤٣). و ربما لا يكون بين هذه الأقوال منافاة إذا كان القائلون بها يأخذ بعضهم، و بعضهم الآخر لا يأخذ السنين الأولى و هى فترة الدعوة الاختيارية. أو لعل بعضهم لم يكن يرى أن النبى (ص) مرسل فى تلك الفترة إلى الناس كافة، أو أنه كان مكلفاً بدعوة الأقرين فقط

٢- راجع: السيرة الحليّة، ج ١، ص ٢٣٨، عن أبى هريرة، و سيرة مغلطاي، ص ١٤، عن كتاب العتقى عن الحسين، و منتخب كنز العمال، هامش مسند أحمد، ج ٣، ص ٣٦٢ و مناقب ابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٧٣ و البحار، ج ١٨، ص ٢٠٤ و ١٩٠. و قيل: إنه (ص) بعث فى شهر رمضان المبارك، و اختلفوا فى أى يوم منه (راجع: تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٤٤ و سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٥٦ و تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٢٢٣ ط صادر و البداية و النهاية، ج ٣، ص ٦) و قيل: فى شهر ربيع الأول و اختلف أيضاً فى أى يوم منه (المواهب اللدنيّة، ج ١، ص ٣٩ و سيرة مغلطاي، ص ١٤ و تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٢٢ و التنبية و الإشراف، ص ١٩٨ و مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٨٧ و السيرة الحليّة، ج ١، ص ٢٣٨).

ص: ٨٤

و كان بدء الوحى فى غار حراء(١)، و كان (ص) يتعبد فى حراء هذا، على النحو الذى ثبت له مشروعيته، و كان قبل ذلك يتعبد فيه عبدالمطلب.

و أول ما نزل عليه (ص) هو قوله تعالى: «بسم الله الرحمن الرحيم إقرأ باسم ربك الذى خلق».(٢) و هذا هو المروى عن أهل البيت (ع)(٣) و روى أيضاً عن غيرهم بكثرة.(٤) فرجع (ص) إلى أهله مستبشراً مسروراً بما أكرمه الله به، مطمئناً إلى المهمة التى أوكلت إليه، فشاركه أهله فى السّيرور و أسلموا، و قد روى هذا المعنى عن أهل البيت (ع)، فعن زرارة أنّه سئل الإمام الصادق (ع): كيف لم يخف رسول الله (ص) فيما يأتيه من قبل الله: أن يكون مما ينزع به الشّيطان؟ فقال: «إنّ الله إذا اتخذ عبداً رسولاً، أنزل عليه السّكينة والوقار، فكان الذى يأتيه من قبل الله مثل الذى يراه بعينه».(٥)

١- هو جبل على ثلاثة أميال من مكّة و يقال: هو جبل فاران، الذى ورد ذكره فى التوراة إلّا أنّ الظاهر هو أنّ فاران إسم لجبال مكّة، كما صرح به ياقوت الحموى، لا لخصوص حراء

٢- الآيتان ١ و ٢ من سورة العلق و راجع تفسير البرهان

٣- تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٩

٤- راجع: الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٦٨ و الاتقان، ج ١، ص ٢٣.

و ربّما يقال: إنّ أول ما نزل عليه (ص) هو فاتحة الكتاب (الدر المنثور، ج ١، ص ٢٤) و لا سيّما بملاحظة أنّه (ص) قد صلّى فى اليوم الثّانى هو (ص) و على (ع) و خديجة (ع) حسب ما ورد فى التّروايات. ولكن من الواضح أنّ ذلك لا يثبت شيئاً؛ إذ يمكن أن تنزل الفاتحة بعد سورة إقرأ بلا فصل، ثم يصلّى و يقرأها فى صلاته؛ كما أنّ من الممكن أن تكون صلاتهم آنئذٍ غير مشمّلة على فاتحة الكتاب، ثمّ وجبت بعد ذلك و إن كان لم يذكر ذلك أحد.

أمّا قوله عن الذى لا يقرأ بفاتحة الكتاب: لا صلاة له (الوسائل، ج ٤، ص ٧٢٣) و قوله (ص): كلّ صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب، فهى خداج (الخداج: النقصان) «المصدر المتقدم، ص ٧٣٣» فهو لا- ينافى ذلك؛ إذ يمكن أن يكون ذلك تشريعاً حادثاً بعد ذلك. هذا كلّه عدا عن أنّهم يروون: أنّ سورة الفاتحة قد نزلت بعد المدّثر (الاتقان، ج ١، ص ٢٤) أى بعد عدّة سنوات من البعثة

٥- التمهيد فى علوم القرآن، ج ١، ص ٤٩ عن العياشى، ج ٢، ص ٢٠١، و البحار، ج ١٨ ص ٢٦٢.

ص: ٨٥

أول من أسلم

إِنَّ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ، وَاتَّبَعَ وَصَدَّقَ، وَآزَرَ وَنَاصَرَ، هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (ع). وَ أورد العلامة الأميني في كتابه القيم، (١) أقوالاً عن العشرات من كبار الصَّحابة و التابعين وغيرهم من الأعلام، و عن العشرات من المصادر غير الشيعة، تؤيد و تؤكد على أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (ع) هُوَ أَوَّلُ الْأُمَّةِ إِسْلَامًا.

هذا، عدا عن الكثير من الروايات الواردة عن النَّبِيِّ الْأَعْظَم (ص) و كلمات أمير المؤمنين (ع) نفسه و عدا عن كلمات الصَّحابة و التابعين و أشعارهم؛ بل لقد ادَّعى البعض الإجماع عليه. (٢) فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: لقد بعث النَّبِيُّ (ص) يوم الإثنين و أسلم على (ع) يوم الثلاثاء. (٣) و ممَّا ورد عن النَّبِيِّ الْأَعْظَم (ص) بسند صحيح قوله: «أَوَّلُكُمْ وَرُوداً عَلَى الْحَوْضِ، أَوَّلُكُمْ إِسْلَاماً عَلَى أَبِي طَالِبٍ» (٤). و عنه (ص): «هذا أول من آمن بي، و صدَّقني، و صلَّى معي». (٥) و على نفسه يصرَّح في كثير من المناسبات بذلك، بأنَّه لم يسبقه أحد في

١- راجع: الغدير، ج ٣، ص ٩٥ و ٩٦ و ٩٩ و ٢٢٤ و ٢٣٦، و ج ١٠، ص ١٥٦ و ١٥٨ و ١٦٤ و ١٦٨ و ٢٩٠ و ٣٢٢، و ج ٩، ص ١١٥ و ١٢٢، و راجع: دلائل الصدق، و الأوائل للطبراني، ص ٧٨ و ٧٩

٢- راجع: الصَّوَاغِقُ الْمَحْرَقَةُ، الفصل الأول، الباب التاسع، و معرفة علوم الحديث للحاكم، ص ٢٢

٣- راجع: الأوائل، ج ١، ص ١٩٥

٤- مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٣٦ و صحَّحه، و تاريخ بغداد للخطيب، ج ٢، ص ٨١ و الاستيعاب، هامش الاصابة، ج ٣، ص ٢٨ و شرح النهج للمعتزلي و السيرة الحليَّة و السيرة النبوية لدحلان و مناقب الخوارزمي و الغدير، ج ٣، ص ٢٢٠ عنهم فراجع

٥- شرح النهج للمعتزلي، ج ١٣، ص ٢٢٥.

ص: ٨٦

الصَّلَاة مع رسول الله، و أنه أول من أسلم مع رسول الله (ص)، و أنه الصديق الأكبر، و أنه لا يعرف أحداً في هذه الأمة عبد الله قبله غير النبي (ص) و أنه صلى قبل أن يصلي الناس سبع سنين (١) و نجد في مقابل ذلك قولاً آخر مفاده أن خديجه كانت هي السابقة إلى الإسلام و أنها أول مخلوق آمن به، بل لقد ادعى البعض الاجماع على هذا القول (٢) و لكنه قول مردود؛ لأن العديد من الروايات عن النبي (ص) و عن علي (ع) و عن الصيابة و التابعين تعبّر بأن علياً (ع) أول من صلى، أو أول من آمن، أو أول الأمة، أو الناس إسلاماً، و لا يمكن أن يكون المقصود بالأمة أو الناس خصوص الرجال.

و أما القول بأوليه إسلام أبي بكر، المروى عن ابن عباس و الشعبي و أبي ذر و بعض آخر، فإنه أيضاً مردود و موضوع في وقت متأخر عن عهد الخلفاء الأربعة و لربما يكون قد حصل ذلك حينما كتب معاوية إلى الأقطار يأمرهم أن لا يدعوا

١- راجع: الغدير، ج ٣ ص ٢١٣ و ٢٢١ و ٢٢٢، ج ١٠، ص ١٦٤ ١٥٨، ج ٢، ص ٣٠ ٢٥ و ٣١٤ عن: شرح النهج، ج ١، ص ٥٠٣ و ٤٠٤ و ٢٨٣، ج ٢، ص ١٠٢، و أبي داود بإسناد صحيح و تاريخ بغداد للخطيب، ج ٤، ص ٢٢٤. و لعل المراد من كلامه الأخير، التعبد مع النبي (ص) قبل البعثة بسنتين، أو خمس سنين؛ حيث بدأت إرهابات النبوة، ثم يضم إليها ثلاث أو خمس سنين، فترة الدعوة الاختيارية غير المفروضة بعد البعثة، أو لعله عبد الله حقاً مع رسول الله قبل البعثة سبع سنين، إذا كان قد أسلم (ع) و هو ابن اثني عشر سنة أو حتى عشر سنين، حيث كان الرسول (ص) يتعبد قبل البعثة، و كان (ص) على دين الحنيفية، فكان علي (ع) يعبد الله معه (ص).

إلا أن يكون الصحيح في الرواية هو ما ذكره ابن بطريق أنه (ص) قال: «صَلَّتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَيَّ وَ عَلَيَّ عَلَى سَبْعِ سِنِينَ»

٢- راجع: السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٦٧ و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ٩٠ و إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار، ص ١٤٨ و الأوائل للطبراني، ص ٨٠.

ص: ٨٧

فضيلةً لعلّى إلّا و يأتوه بمثلها لغيره من الصّحابة. (١) مع أنّ ابن عباس و الشّعبى و أباذر اللّذين روى عنهم القول بأولّية أبى بكر، هم أنفسهم يقولون: إنّ أمير المؤمنين (ع) هو أوّل من أسلم. و يقول الإسكافى: «إنّ حديثهم فى على أقوى سنداً و أشهر من الحديث الآخر المنسوب إليهم فى أبى بكر». (٢) أضف إلى ذلك اعتراف عايشه بأنّ أباهما كان رابعاً فى الإسلام و قد سبقه إلى ذلك خديجه و زيد بن حارثة و على (ع). (٣) و أيضاً أنّنا لم نجد أحداً يعترض على الصّحابة و لا على التّابعين و لا على أمير المؤمنين (ع) فى احتجاجاتهم المتعدّدة على معاوية و غيره بأنّ علياً (ع) و هو أوّل الأئمة إسلاماً، يعترض و يقول: بل أبوبكر هو الأوّل. بل إنّنا لم نجد أبابكر و لا أحداً من أنصاره و محبيه يحتجّ له بأنّه أوّل من أسلم، رغم احتجاجاتهم الشّديدة إلى ذلك و لا سيّما فى السّقيفة. فاتّضح أنّ القول بأنّ أبابكر هو أوّل من أسلم لا- يمكن إلّا أن يكون من القول الجراف، و الدّعى الفارغ، و من المختلقات الّتى افتعلت فى وقت متأخّر، تزلفاً للأمويين.

مراحل الدّعوة

يرى البعض أنّ الدّعوة قد مرّت بمراحل أربع:
الأولى؛ المرحلة السّريّة و استمرّت ثلاث أو خمس سنوات.
الثّانية: الإعلان بالدّعوة إلى الله بالقول فقط، دون اللّجوء إلى العنف، و استمرّت

- ١- راجع: النّصائح الكافية لمن يتولى معاوية، من ص ٧٢ حتّى ص ٧٤
- ٢- راجع: الغدير و شرح النهج للمعتزلى، ج ١٣ و آخر كتاب العثمانيّة
- ٣- راجع: الأوائل، ج ١، ص ٢٠٢ و ٢٠٦.

ص: ٨٨

حتى الهجرة.

الثالثة؛ مرحلة الدفاع عن الدعوة بالسيف، واستمرت إلى صلح الحديبية.

الرابعة؛ قتال كل من وقف في سبيل الإسلام، من الوثنيين والمشركين وغيرهم، وهو ما استقر عليه أمر الدعوة وحكم الجهاد. (١) و لكننا لا- نوافق على استعمال مصطلح «الفترة السرية» هنا؛ إذ إن الظاهر هو أن النبي (ص) لم يكن حينما بُعث. مأموراً بدعوة عموم الناس، ولكنه كان يعرض هذا الدين بصورة طوعية و عفوية، وبدون أن يوجه الأنظار إلى ذلك، فكان هناك أفراد يسلمون تبعاً. وقد كان هذا الأسلوب في تلك الفترة ضرورياً من أجل الحفاظ إلى مستقبل الدعوة، حتى لا تتعرض لعمل مسلح يقضى عليها في مهدها، حيث لابد من إيجاد ثلثة من المؤمنين، و من مختلف القبائل، يحملون هذه العقيدة و يدافعون عنها، حتى لا- يبقى مجال لتصفيتهم السريعة و الحاسمة من قبل أعدائهم الأشرار.

كما أنه (ص) أراد أن لا تهدر الطاقات و تذهب الجهود سدى، و ينتهى الأمر إلى تمزق، و توزع في الثلثة المؤمنة، ثم إلى ضياع مُدَمَّر. و أيضاً، فقد كانت هذه الفترة بمثابة إعداد نفسي و تربية عقيدية و روحية لتلك الصفة المؤمنة برّبها، و برسالة نبيه الأكرم (ص) تمكّنهم من الصمود في وجه التهديدات التي تنتظرهم.

و إذا كان (ص) يريد أن يقود عملية تغيير شاملة، فلا بد له من إتاحة الفرصة لتهيئة و إعداد القوى التي تستطيع أن تحقق هدفاً كبيراً كهذا، و تتمكّن من الحفاظ و الاحتفاظ بالوجود الفعال و المؤثر في بقاء ذلك الهدف.

ص: ٨٩

قريش و مرحلة ما قبل الإعلان

كان المشركون قد عرفوا بتنبؤ النبي (ص) من أول الأمر، ولكنهم لم يهتموا كثيراً بالأمر باديء ذي بدء ربّما لأنهم اعتبروا أنّ القضية ليست بذات أهميّة كبيرة إلّا من جهة قبليّة بالدرجة الأولى؛ ولكنهم ظلّوا يتسمّون (١) الأخبار، و يستطلعونها و كانوا يقولون: إنّ فتى عبدالمطلب ليكلّم من السماء.

١- تنسّم الخبر: تلطف في التماسه شيئاً فشيئاً، و يقال: تنسّمت منه علماً: أي أخذته.

ص: ٩١

الفصل الثاني إنذار العشير

اشاره

ص: ٩٣

إنَّه بعد السنوات الثلاث الأولى، بدأت مرحلة جديدة و خطيرة و صعبة، هي مرحلة الدَّعوة العليَّة إلى الله تعالى. وقد بدأت أولَّها على نطاق ضيق نسبيًّا، حيث نزل عليه (ص) قوله تعالى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (١) فيقول المؤرِّخون ما ملَّخصه: (٢) إنَّه لما نزلت هذه الآية دعا عليًّا (ع)، فأمره أن يصنع طعاماً و يدعو له بنى عبدالمطلب ليكلّمهم و يبلغهم ما أمر به. فصنع على (ع) صاعاً من طعام، و جعل عليه رجلَ شاة، و ملأ عساً من لبن، ثم دعاهم، و هم يومئذٍ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً، أو ينقصونه؛ فيهم أعمام النَّبي (ص): أبوطالب، حمزة، العباس و أبولهب، فأكلوا. قال على (ع): فأكل القوم، حتَّى ما لهم بشيءٍ من حاجة، و ما أرى إلَّا موضع أيديهم، و أيم الله الَّذي نفس علىَّ بيده، و إن كان الرَّجل الواحد منهم ليأكل ما قُدِّمت لجميعهم. ثم قال: إسقِ القوم، فجئتهم بذلك العس، فشربوا منه، حتَّى رووamته جميعاً، و أيم الله، إن كان الرَّجل الواحد منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله (ص) أن يكلّمهم، يَدْرَهُ أبولهب، فقال: لَقَدْ مَّا سَيَحْرُكُم صاحبكم، فتفرَّق القوم و لم يكلّمهم الرَّسول (ص) فأمر (ص) عليًّا (ع) في اليوم الثاني أن يفعل كما فعل آنفاً، و بعد أن

١- الشعراء: ٢١٤

٢- النَّص للطبري في تاريخه، ج ٢، ص ٦٣.

ص: ٩٤

أكلوا و شربوا، قال لهم رسول الله (ص): يا بني عبدالمطلب! إنني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا قد جئتكم به، إنني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه؛ فأتيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى و وصيى و خليفتى فيكم؟

قال: فأحجم (١) القوم عنها جميعاً، وقال على: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي، ثم قال: إن هذا أخى و وصيى و خليفتى فيكم، فسمعوا له و أطيعوا.

قال: فقام القوم يضحكون و يقولون لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع لا بنك و تطيع (٢).

نقاط هامة في حديث الإنذار

ألف. لماذا تخصيص العشيرة بالدعوة؟

لا- يخفى أن الاهتمام بدعوة عشيرته الأقربين كان خير وسيلة لتثبيت دعائم دعوته و نشر رسالته؛ لأنّ الإصلاح يجب أن يبدأ من الدّاخل، حتّى إذا ما استجاب له أهله و قومه، اتّجه إلى غيرهم بقدّم ثابتة و عزم راسخ و مطمئن. كما أنّ دعوته لهم سوف تمنحه الفرصة لاكتشاف عوامل الضّعف و القوّة فى البنية الدّاخلية، من حيث ارتباطاته و علاقاته الطّبيعية، و ليعرف مقدار الدّعم الذى سوف يلاقيه؛ فيقدر موافقه و إقدامه على أساسه. أضف إلى ذلك: أنّه حين يبدأ بالأقربين من عشيرته و لا يبدو أنّه على

١- أحجم فلان عن الشّىء: كفّ أو نكص

٢- راجع هذه القضية فى: تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٦٣، و مختصر تاريخ أبى الفداء، ج ٢، ص ١٤، و شواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٧٢ و ٤٢١، و كنز العمال، ج ١٥، ص ١٦ و ١١٧ و ١١٣ و ١٣٠. و تاريخ ابن عساكر، ترجمة الإمام على بتحقيق المحمودى، ج ١، ص ٨٧ و ٨٨، و شرح النهج للمعتزلى، ج ١٣، ص ٢٤٤.

ص: ٩٥

استعداد لتقديم أى تنازل أو مُساومة حتى بالنسبة إلى هؤلاء فإن معنى ذلك هو أن على الآخرين أن يقتنعوا بأنه منسجم مع نفسه، و مقتنع بصحة ما جاء به، و يريد لأحب الناس إليه، الذين لا يريد لهم إلّا الخير، أن يكونوا في طليعه المؤمنين الذين يضحون بكلّ غالٍ و نفيس في سبيل هذا الدين. و قد رأينا أن التصارى قد تتبها إلى ذلك في قضيه المباهله، فراجع.

و من الجهه الأخرى؛ فإنه يعيش في مجتمع يقيم علاقاته على أساس قبلى فحين يريد أن يقدم على مواقف أساسيه و مصيريه و حين لا يكون هو نفسه يرضى بالاعتماد على القبليه كعنصر فعال في حمايه موافقه و تحقيق أهدافه؛ فإن من اللازم، أن يتخذ من ذوى قرياه موقفاً صريحاً، و يضعهم في الصوره الواضحه، و أن يهتئ لهم الفرصه ليحدّدوا مسؤولياتهم بحريه و صراحه و صفاء، بعيداً عن أى ضغط و ابتزاز و لو كان هذا الضغط من قبيل العرف القبلى فيما بينهم؛ لأنه عرف مرفوض إسلامياً.

و هنا تبرز واقعيه الإسلام في تعامله مع الأمور، و في معالجته للقضايا؛ الإسلام الذى لا يرضى أن يستغلّ جهل الناس و بساطتهم، و حتى أعرفهم الخاطئه التى ارتضوها لأنفسهم في سبيل منفعه و تحقيق أهدافه.

و على كلّ حال، فقد خرج (ص) من ذلك الاجتماع بوعدٍ أكيد من شيخ الأبطح؛ أبى طالب (ع) بالنصر والعون؛ فإنه لما رأى موقف أبى لهب اللّما إنسانى، و اللّما معقول، قال له: «يا عوره، والله لننصرنه، ثم لنعيننه!! يا ابن أخى، إذا أردت أن تدعو إلى ربك فأعلمنا، حتى نخرج معك بالسلاح».(١)

ب. على (ع) في يوم الإنذار

و نجد في يوم الإنذار، أن اختيار النبيّ (ص) يقع على أمير المؤمنين (ع) ليكون المضيف لجماعه يناهز عددها الأربعين رجلاً، فيأمره بأن يصنع طعاماً و

ص: ٩٦

ي

دعوههم إليه.

والظاهر أن ذلك قد كان في بيت النبي (ص) نفسه؛ لأن علياً (ع) كان عند رسول الله (ص) في بيته على ما يظهر، وقد كان بإمكانه (ص) أن يطلب من خديجه أن تصنع لهم الطعام، هذا مع وجود آخرين، أكثر وجاهةً و معروفيةً من علي (ع) كأبي طالب، و كجعفر الذي كان يكبر علياً في العمر، و غيرهما ممن يمكن أن يستفيد من نفوذه و شخصيته في التأثير على الحاضرين، و لكنه قد اختار علياً بالذات ليتفادى أي إحراج يبعد القضية عن مجالها الطبيعي، الذي يركز على القناعة الفكرية و الوجدانية بالدرجة الأولى؛ و لأن علياً و إن كان حينئذٍ صغير السن، إلّا أنه كان في الواقع كبيراً في عقله و في فضائله و ملكاته؛ كبيراً في روحه و نفسه؛ كبيراً في آماله و أهدافه؛ و لا أدل على ذلك من كونه هو المجيب للرسول دون كل من حضر، ليؤازره و يعاونه على هذا الأمر.

وقد رآه النبي (ص) منذئذٍ أهلاً لأن يكون أخاه و وصيه و خليفته من بعده، و هي الدرجة التي قصرت همم الرجال عن أن تنالها، بل و حتى عن أن يدخل في وهمها، أن تصل ولو في يوم ما إليها و تحصل عليها.

ولكن علياً كان منذ نعومة أظفاره هو السباق إليها دون كل أحد، لأنه عاش في كنف الرسول و كان (ص) كفيله و مربيه، و كان يبرد له الطعام، و يشمه عرفة، و كان يتبع الرسول اتباع الفصيل أثر أمه، و كان كأنه ولده.

«ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (١)

ج. موقف أبي طالب (ع)

و أمّا أبوطالب (ع) فكان موقفه الرّاعي لهذا الأمر، و المحامي عنه، و الحريص عليه. و كان يعلم أنه لم يكن هو المقصود بهذا الخطاب؛ لأنه لم يكن يرى أنه يعيش إلى ما بعد وفاة النبي (ص) ليكون وصيه و وزيره و خليفته من بعده.

ص: ٩٧

د. موقف أبى لهب

و لقد أدرك أبولهب مغزى تلك الدعوة، و رأى أن الأمر قد بلغ مرحلة الجد، و ها هو يرى بأم عينيه معجزة أخرى تضاف إلى الكثير ممّا رآه من معاجز و كرامات للنبي (ص) طيلة السنوات الكثيرة التي عرف فيها النبي (ص) و أحواله، فيرى أن فخذ شاء و عساً من لبن، يكفي أربعين رجلاً، و أبولهب هو ذلك الرجل الذي يعرف أهداف هذا الدين الذي يبشر فيه محمد (ص) و أنه لا يقيم وزناً لأي امتياز أو مكسب شخصي حصل عليه الإنسان من طريق الابتزاز و الظلم، و سائر أنواع التعدي و الإنحراف.

إذن، فلا بد لأبى لهب بحسب منطق الله منطقي أن يقف في وجه هذا الدين و يمنعه من تحقيق أهدافه بكل وسيلة ممكنة. و لابد من تضييع الفرصة على النبي (ص)، و ذلك حفاظاً على ما يراه أنه مصلحته أولاً، و ليرضى حقه و حسده الذي يعتمل في صدره ثانياً؛ ذلك الحقد الذي لا مبرر له إلا أنه يرى في شخصيته النبي الأعظم (ص) الصفات الحميدة و الأخلاق الرزية و السيئات الفاضلة، فإن ذلك يعتبر عنده ذنباً، و أي ذنب.

فبادر إلى المواجهة الصريحة، والقيحة، حيث استغل معجزة الطعام التي يراها الجميع بأم أعينهم، فرمى النبي الأكرم (ص) بالسحر و قال: لقدماً سحركم صاحبكم، فتفرق الجمع في اليوم الأول، و لم يستطع الرسول (ص) أن يقول كلمته حتى اليوم التالي؛ حيث استطاع النبي (ص) أن يصدع بما أمره الله تعالى و يقيم عليهم الحجة.

ه. الإنذار أولاً

أنه (ص) قد أمر من قبل الله تعالى بالإنذار أولاً لعشيرته، و كذلك الحال بالنسبة لغيرهم من سائر الناس، كما جاء في سورة المدثر، التي هي من العتائق النازلة في أوائل البعثة: «قم فأندر» مع أنه (ص) قد أرسل مبشراً و نذيراً، و مع أن القرآن هدى

ص: ٩٨

و بشرى أيضاً؛ لأنَّ النَّاسَ لم يكونوا على واقع الفطرة و الغفلة و عدم الالتفات؛ بل كانوا فى أوّل البعثة كفّاراً، معاندين، و منغمسين فى الظّلم و الانحراف إلى أبعد مدى؛ فلا بدّ من إنذارهم أوّلًا؛ ليلتفتوا إلى عواقب ما هم عليه من واقع سيّء يعيشونه، و إلى العواقب المدمّرة و المرعبة، الّتى تنتظرهم نتيجةً لذلك. و التفاتهم هذا، لسوف يؤثّر فيهم للتّطلّع، ثمّ الحركة نحو الخروج من ذلك الواقع و التّخلّص منه.

ثمّ يأتى بعد ذلك دور تخليص المجتمع من رواسبه، و من حركاته و أعماله و مواقفه السيّئة، على مستوى الفرد، و على مستوى الجماعة، و تطهيره من كلّ غريب و مريض. و هذا الّذى ذكرناه فى أسلوب الإسلام فى دعوته، هو التحرك الطّبيعى لأئمة دعوة تستهدف الإصلاح الجذرى،^(١) و التّغلّب على مشاكل الحياة و التخطيط لمستقبل مشرق سعيد.

١- الجذر و الجذر من كلّ شىء: أصله.

ص: ٩٩

الفصل الثالث حتى الهجره الى الحبشه

اشاره

ص: ١٠١

فاصدع بما تؤمر

و بعد أن أندر (ص) عشيرته الأقربين، و انتشر أمر نبوته في مكّة، بدأت قريش تتعرّض لشخص النبي (ص) بالاستهزاء و السخرية و أنواع التّهم، إذ أنّهم قد عرفوا جدّيّة القضية و أدركوا أبعادها.

و كان لذلك الاستهزاء تأثير على إقبال النّاس على الدّخول في الإسلام؛ فاغتنم النبي (ص) لذلك جدّاً، و اعتبر ذلك عائقاً في سبيل انتشار دعوته و أداء مهمّته.

فأنزل الله عليه قرآناً يأمره بإظهار الدّعوة و الطّلب من كلّ أحدٍ، حتّى من جبابرة قريش و من جميع القبائل و الفئات، أن تُسلم لربّها، مشعوراً بذلك بوعد أكيد، بأنّ الله سوف يكفيه المستهزئين، فيجب أن لا يهتمّ لهم، و أن يتجاهلهم، و ذلك حين نزل قوله تعالى:

«فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» (١)

فامثل النبي (ص) أمر الله و أظهر دعوته و طلب من النّاس جميعاً أن يسلموا لربّهم و يقولون: إنّّه قام على الحجر، فقال:

«يا معشر قريش، يا معشر العرب! أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلّا الله، و أنّي رسول الله و آمركم بخلع الأنداد و الأصنام؛ فأجيئوني تملكون بها العرب، و تدين لكم العجم، و تكونون ملوكاً في الجنّة.

ص: ١٠٢

فاستهزؤوا به و قالوا: جنّ محمد بن عبدالله، و لم يجسروا عليه لموضع أبى طالب» (١) و جاء أيضاً: أنّه (ص) قام على الصّيف و نادى قريشاً، فاجتمعوا له، فقال لهم: أرايتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً فى سفح هذا الجبل قد طلعت عليكم، أكنتم مصدّقى؟ قالوا: نعم، أنت عندنا غير متّهم و ما جرّينا عليك كذباً قطّ. فقال: فإنّي «نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد» (٢) فنهض أبولهب، و صاح به: تبّاً لك سائر اليوم، (٣) ألهدنا جمعت الناس؟ و تفرّقوا عنه؛ فأنزل الله تعالى: «تَبَّتْ يدا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ» إلى آخر السورة.

المفاوضات الفاشلة

فلَمّا بادر رسول الله (ص) قومه بالإسلام و صدع به، أعظموه و ناكروه و أجمعوا على خلافه و عداوته، إلّا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام و هم قليل مستخفون. و حذب على رسول الله (ص) عمّه أبوطالب، و منعه، و قام دونه، و مضى رسول الله (ص) على أمر الله مُظهراً لا يردّه شيء. فلَمّا رأت قريش أنّ رسول الله (ص) لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه، من فراقهم و عيب آلهتهم، و رأوا أنّ عمّه أباطالب قد حذب عليه، و قام دونه، فلم يُسلمه لهم، حاولوا مفاوضة أبى طالب و هذه المفاوضات كما يرى ابن إسحاق و غيره قد مرّت بثلاث مراحل، انتهت كلّها بالفشل الذريع. الأولى؛ إنّ مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب، فقالوا: يا أباطالب، إنّ

١- راجع: تفسير نورالثقلين، ج ٣، ص ٣٤، عن تفسير القمى

٢- سبأ: ٤٦

٣- مثّل؛ يقولون: أسائر اليوم و قد زال الظّهر، و هو مثّل فى اليأس من الحاجة، أى أطمع فيها بعد، و قد تبيّن لك اليأس

ص: ١٠٣

ابن أخيك قد سب آلهتنا، و عاب ديننا، و سفه أحلامنا، و ضلل آباءنا؛ فإما أن تكفّه عنا، و إما أن تخلّي بيننا و بينه؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبوطالب قولاً رقيقاً، و ردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه.

الثانية؛ إنهم رأوا أنّ رسول الله (ص) قد استمرّ على ما هو عليه، يُظهر دينه، و يدعوا إليه، حتّى شَرى الأمر بينه و بينهم، و حتّى تباعد الرّجال، و تضاعنوا، و أكثرت قريش ذكر رسول الله (ص) بينها، ذهبوا إلى أبي طالب، فتهدّدوه: إن لم يكفّ ابن أخيه عن شتم آبائهم، و تسفيه أحلامهم، و شتم آلهتهم، فلسوف ينازلونه و إيّاه، حتّى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا. فأرسل أبوطالب إلى رسول الله (ص)، فأخبره، و طلب إليه أن يبقى على نفسه و عليه، و لا يحمله ما لا يطيق. فظنّ أنّه قد بدى لعمّه فيه بداءً، و أنّه قد ضعف عن نصرته و القيام دونه، فقال له (ص):

«يا عمّ! والله لو وضعوا الشّمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتّى يُظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته.» فوعده أبوطالب النّصر.

الثالثة؛ عرضوا على أبي طالب أن يتخذ «عمارَةَ بن الوليد» ولدًا له، و يسلمهم النّبيّ (ص) الّذى فارق دين أبي طالب و دين آبائه، و فرّق جماعتهم و سفه أحلامهم، ليقتلوه؛ فإنّما هو رجلٌ برجلٍ.

فقال أبوطالب: والله، لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم آخذوه لكم، و أعطيكُم ابني تقتلونه، هذا و الله ما لا يكون أبداً. فقال المطعم بن عدى: والله يا أباطالب! لقد أنصفك قومك و جهدوا على التّخلّص ممّا تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً. فقال أبوطالب: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت على خذلاني، و مظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدالك. أو كما قال: فحقب الأمر، و حميت الحرب، و تنابذ

ص: ١٠٤

القوم، و بادى بعضهم بعضاً. (١) و ربما تكون هذه المراحل متداخلة، أو مترتبة؛ فإن ما ذكرناه لا يعدوا عن أن يكون فهماً منا للسَّير الطَّبيعى للأحداث، لا أكثر ولا أقل.

ماذا بعد فشل المفاوضات؟

و بعد فشل المفاوضات، فقد ظهر لأبى طالب أن السَّيل قد بلغ الزُّبى، (٢) و أنه على وَشك الدَّخول فى صراع مكشوف مع المشركين؛ فلا بدَّ من الحذر، و الإحتياط للأمر؛ فجمع بنى هاشم، و بنى المطلب و دعاهم إلى منع الرِّسول، و القيام دونه. فأجابوه، و قاموا معه، باستثناء أبى لهب لعنه الله؛ و منع الله عزَّوجلَّ رسوله، فلم يكن لهم إلى أن يضروه فى شَعْرِهِ و بَشَرِهِ سَبِيلٌ، غير أنَّهم يرمونه بالجنون، و السَّيحر، و الكهانة، و الشَّعر؛ و القرآن ينزل عليه (ص) بتكذيبهم، و رسول الله (ص) قائم بالحق، ما يثنيه ذلك عن الدَّعاء إلى الله تعالى سرّاً و جهراً.

و ذلك لأنَّ المشركين بعد أن أدركوا أن الاعتداء على شخصه (ص) سوف يتسبب فى صِراع مسلَّح لم يعدوا له عُدَّة، و ليسوا على يقين من أن تكون نتائجه لصالحهم، خصوصاً مع ما كان لبنى هاشم من علاقات و أحلاف مع القبائل كحلف المُطِئيين (٣) و حلف عبدالمطلب مع خزاعة التى كانت تقطن (٤) خارج مكة. بل قد

١- راجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٦ ٢٨٢، و البدء و التاريخ، ج ٤، ص ١٤٧ و ١٤٩ و تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٦٨ ٦٥

٢- الزُّبى جمع زُبَيْة و الزُّبَيْة: الزَّابِيَةُ لا يعلوها ماءٌ و منه المثل: بلغ السَّيل الزُّبى، أى اشتدَّ الأمر حتَّى انتهى إلى غايته بعيدة

٣- المتحالفون فى حلف المُطِئيين هم بنو عبد مناف، و بنو أسد بن عبد العزى، و بنو زهرة بن كلاب، و بنو تيم بن مرة بن كعب، و بنو حارث بن فهد بن مالك بن النضر؛ تحالفوا على أن لا يتخاذلوا و لا يسلم بعضهم بعضاً بل يحزُّ صَوْفَةً (يريد إلى الأبد، و صوف البحر: شىء على شكل الصَّوف الحيوانى، واحده: صوفة) فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً، فيزعمون أن بعض نساء بنى عبد مناف أخرجتها لهم، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقوا و تعاهدوا، هم و حلفائهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسَمَّوا المُطِئيين (سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٣٩ ١٣٨)

٤- قَطَنَ فى المكان و به قُطونا: أقام فيه و توطَّنه.

ص: ١٠٥

توجب هذه الحرب - لو نشبت التمكين لمحمد (ص) من نشر دعوته. (١) فمن أجل كل ذلك آثر المشركون أن يبتعدوا عن الحرب، ويتبعوا أساليب أخرى لتضعيف أمر محمد (ص) والوقوف في وجه دعوته فنجدهم:

أ. ينهون الناس عن الالتقاء بالنبي (ص)، وعن أن يسمعوها ما جاء به من قرآن.

قال تعالى: «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ» (٢).

وقال تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ» (٣).

ب. يتبعون أسلوب السخرية والاستهزاء، وإلصاق التهم الباطلة بهدف:

١. التأثير على شخص النبي الأعظم (ص)، عله (٤) ينهزم نفسياً وجعله يعيش عقده الحقد والضعفه فلربما يتخلى عن هذا الأمر، و يكذب نفسه.

٢. الحط من كرامه النبي (ص)، وابتذال شخصيته، بهدف تنفير أصحاب النفوس الضعيفة من متابعتة، و صرفهم عن الدخول فيما جاء به.

ولهذا نجدهم يغزون سفهاءهم بإيذائه وتكذيبه، وأحياناً كان يتولى ذلك منه سادتهم وكبرائهم، بل لقد رأيناهم يأمرؤن غلاماً منهم بأن يلقي عليه سلى (٥)

١- و يروى بعض المحققين أن من المحتمل أن أباطالب كان يستعمل أسلوب اللين تارة والشدّة أخرى؛ بهدف إثارة حرب كهذه، تهدف إلى تمكين النبي (ص) من نشر دعوته

٢- الأنعام: ٢٦

٣- فصلت: ٢٦

٤- علّ فلاناً: سقاه ثانية أو تباعاً

٥- السلى: الجلده التي يكون فيها الولد من الناس و المواشى.

ص: ١٠٦

جزور وفرثه، و هو قائم يصلّي، فيلقيه بين كتفيه، فيغضب أبوطالب، و يأتي فيمّر السّلى على سبالهم (١) جميعاً و قد ألقى الله الرّعب في قلوبهم. (٢)

و كانوا أيضاً يلقون عليه التّراب (٣)، و رَجِمَ الشّاةُ، (٤) و غير ذلك و قد أثر ذلك إلى حدّ ما في صرف النّاس، و إبعادهم عن الدّخول في الإسلام، حتّى ليقول «عروة بن زبير» و غيره: «و كرهوا ما قال لهم، و أغروا به مَنْ أطاعهم؛ فانصفق عنه (٥) عامّة النّاس». (٦)

المعذبون في مكة

كما أنّهم قد تذا مروا (٧) بينهم على من في القبائل منهم، من أصحاب رسول الله (ص) الّذين أسلموا معه؛ فو ثبت كلّ قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم، و يفتنونهم عن دينهم، و يعذبونهم بالحبس و الضّرب و الجوع و برمضاء مكة و بغير ذلك من الأساليب الوحشية و اللاّ انسانية.

فعذب عمر بن الخطّاب الّذى أسلم قبيل الهجرة جارية بنى مؤمل (حي من بنى عدى) و كانت مسلمة، فكان يضربها، حتّى إذا ملّ، (٨) قال: إنّي أعتذر إليك،

١- السّبال جمع سبلة، و السّبلة محرّكة، الدائرة في وسط الشّفة العليا و قيل: ما على الشّارب من الشّع و قيل مجتمع الشّارين

٢- راجع: البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٣٤

٣- راجع: السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٩١ و ٢٩٢، و السيرة النبوية لدحلان (بهامش الحلبية)، ج ١، ص ٢٠٨ و ٢٠٢ و ٢٣١

٤- راجع: البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٣٤

٥- انصفق: انصرف و ارتدّ و رجع

٦- تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٨

٧- التذامر: التّحاضّ على القتال

٨- ملّ فلان: أصابه الملل، و الملل: السّامة و الضّجر و هو فتور يعرض للإنسان من كثرة مزاوله شىء، فيوجب الكلال و الإعراض عنه.

ص: ١٠٧

إِنِّي لَمْ أَتْرَكْكَ إِلَّا مَلَأَهُ. (١) وُعَذِّبَ الْمُشْرِكُونَ أَيْضًا خَنَابَ بْنِ الْأَرْتِّ، وَ أُمَّ شَرِيكَ، وَ مُصْعَبَ بْنِ عَمِيرٍ، وَ بِلَالَ الْحَبَشِيِّ وَ عَامِرَ بْنَ فَهِيرَةَ وَ كَذَلِكَ آلَ يَاسِرٍ، أَشَدَّ الْعَذَابِ، بَحِثْ اسْتَشْهَدْتَ سَمِيَّةَ أُمَّ عَمَّارٍ عَلَى يَدِ فِرْعَوْنَ قَرِيشٍ أَبِي جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ شَهِيدَةٍ فِي الْإِسْلَامِ، (٢) ثُمَّ اسْتَشْهَدَ يَاسِرٌ (رَحِمَهُ اللَّهُ). وَ عُذِّبَ عَمَّارٌ أَيْضًا عَذَابًا شَدِيدًا مِنْ قِبَلِ بَنِي مَخْزُومٍ، حَتَّى أُكْرِهَ عَلَى التَّنَفُّهِ بِمَا يَعْجَبُ الْمُشْرِكُونَ، فَتَرَكُوهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ (ص) بَاكِيًا وَقَالَ لَهُ: لَمْ أَتْرَكْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ قَدْ أَكْرَهُونِي حَتَّى نَلْتَ مِنْكَ وَ ذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (ص): كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ يَا عَمَّارُ؟ قَالَ: إِنَّهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: لَا عَلَيْكَ فَإِنْ عَادُوا إِلَيْكَ فَعُدْ لِمَا يَرِيدُونَ؛ فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ: «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» (٣).

وَ قَدْ ضَرَبَ هَؤُلَاءِ لَنَا الْمَثَلَ الْأَعْلَى فِي الصَّيْمُودِ وَ الْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ الْمَبْدَأِ وَ الْعَقِيدَةِ مَعَ مَعْرِفَتِهِمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ قُوَّةً تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرُدَّ عَنْهُمْ، غَيْرَ إِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَّحِدُونَ بِإِسْلَامِهِمُ الْعَالَمَ كُلَّهُ، الَّذِي كَانَ بِكُلِّ مَا فِيهِ ضَدُّهُمْ. وَ هُنَا تَكْمُنُ عَظَمَتُهُمْ، (٤) وَ هَذَا هُوَ سِرُّ امْتِيَازِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ.

١- سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٤١، و السيرة الحلبية، ج ١، ص ٣٠٠، و راجع: السيرة النبوية لابن كثير، ج ١، ص ٤٩٣، و المحبر، ص ١٨٤. و لعل بني مؤمل قد سمحوا لعمر بن الخطاب أن يتولَّى تعذيب جارياتها و إِلَّا فَإِنَّ وَضْعَهُ الْاجْتِمَاعِي لَمْ يَكُنْ يَسْمَحُ لَهُ بِأَمْرِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ

٢- الاستيعاب (هامش الاصابة)، ج ٤، ص ٣٣١ و ٣٣٠ و ٣٣٣، و الاصابة، ج ٤، ص ٣٣٥ و ٣٣٤، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ١، ص ٤٩٥ و أسد الغابة، ج ٥، ص ٤٨١، و تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢٨

٣- النحل: ١٠٦

٤- كمن الرجل: توارى و استخفى.

ص: ١٠٩

الفصل الرابع هجره الحبشه

اشاره

ص: ١١١

لابد من حل

لقد استمرت قريش في تعذيب من يدخل دين الإسلام ممن لم يكن لهم عشيرة تمنعهم. و كان الاستمرار في هذا الوضع غير ممكن. و من جهة ثانية، فإن استمرار هذا الوضع الذي يواجهه المسلمون، الملىء بالآلام و المشاق، لسوف يقلل من إقبال الناس على الدخول في الإسلام، مادام أن هذا الدخول لا حصاد له سوى الرعب و التعذيب و المصائب. و من جهة ثالثة، فقد كان لابد من تسديد ضربة لكبرياء قريش و جبروتها ولو نفسياً لتدرك أن قضية الدين تتجاوز حدود تصوراتها و قدراتها، و أن عليها أن تفكر بموضوعية و عقلانية أكثر؛ فكان أن اختار رسول الله (ص) للمسلمين الهجرة إلى الحبشة.

سر اختيار الحبشة

و أمّا عن سر اختيار رسول الله (ص) الحبشة مهاجراً للمسلمين، فقد أشار إليه بقوله: «إن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد و هي أرض صدق» و «إنه يحسن الجوار». و قد كان من الواضح أنه.

١. كان لابد لقريش من أن تبذل محاولاتها لاسترجاع المسلمين، لتبقى هي المهيمنة و صاحبة الاختيار الأول و الأخير في مصير هذا الدين، الذي تراه يتهدد كبرياءها و شرورها و إنحرافها.

ص: ١١٢

٢. لقد كان لقريش نفوذ في بلاد الرّوم و الشّام، لما كان لها من علاقات تجاريّة و اقتصاديّة معها. فالهجرة إلى هذا البلاد إذن سوف تسهّل على قريش استرجاع المهاجرين، أو على الأقل، إلحاق الأذى بهم؛ و لا سيّما إذا كان ملوك تلك البلاد لا يلتزمون بأى من الأصول الأخلاقيّة و الإنسانيّة، و لم يكن لديهم مانع من ممارسة أى نوع من أنواع الظّلم و الجور، و على الأخصّ بالنّسبة لمن ينتسب إلى دعوة يرون أنّها تضرّ بمصالحهم الشّخصيّة و تهدّد كيانهم و جبروتهم.

و أمّا بلاد اليمن، و بعض المناطق العربيّة و القبليّة الأخرى، فقد كانت تحت نفوذ النّظام الفارسي، المتجبر و الظّالم. و يذكر هنا: أنّ بعض القبائل عند ما عرض عليها النّبى (ص) دعوته و طلب منها حمايتها له، قبلت بذلك، و لكنّ ما دون كسرى، أمّا من كسرى فلا. (١) ٣. قد كان لقريش نفوذ قوى في مختلف القبائل العربيّة، حتّى ما كان منها تحت نفوذ الفرس و الرّوم. ٤. ما ذكره النّبى (ص) من أنّ بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، فإنّ كلّ ذلك يجعلنا نضع أيدينا على السرّ الحقيقي لاختيار بلاد الحبشة، البعيدة عن التّفوذ الفارسي و الرّومى و القريشى، و التى لا يمكن لقريش أن تصل إليها على ظهر جواد أو راحلة، و إنّما بالسّفن عبر البحار، و لم تكن قريش تعرف حرب السّفن. فاختار رسول الله (ص) هذه البلاد بالذّات لتكون أرضاً لهجرة المسلمين، الّذين لا يزالون ضعافاً أمام قوّة قريش و جبروتها.

ثمّ إنّنا نستفيد من قوله (ص) عن أرض الحبشة: «إنّها أرض صدق» أنّه قد كان فيها شعبٌ يعيش على الفطرة و يتعامل بالصدّق و الصّفاء، و ربّما كان النّاس في تلك المنطقة أقرب من غيرهم إلى الالتزام بما تبقى لديهم من تعاليم السيّد المسيح (ع)، كما ربّما يستفاد مما جرى لجعفر مع ملك الحبشة في أمر

ص: ١١٣

عيسى (ع)، فيمكن لهؤلاء الثلثة من المسلمين المهاجرين أن يعيشوا مع هؤلاء الناس و أن يتعاملوا معهم، لا سيّما و أنّها بلاد لم يكن فيها من الإنحرافات و الأفكار و الشّبّهات ما كان في بلاد الرّوم و الفرس، فكانت أقرب إلى الفطرة و الحق من غيرها.

الهجرة إلى الحبشة

و هاجر المسلمون بأمر من رسول الله (ص) إلى الحبشة؛ ذهبوا إليها أرسالاً على حسب رواية أمّ سلمة. (١) و يقال: إنّهُ سافر أولاً عشرة رجال و أربع نساء عليهم عثمان بن مظعون (٢)، ثم خرج آخرون حتّى تكاملوا في الحبشة ثنين أو ثلاثاً و ثمانين رجلاً، إن قلنا إنّ عمّار بن ياسر كان معهم، و تسع عشرة امرأة عدا الأطفال. و قد كانت هذه الهجرة في السّنة الخامسة من البعثة كما نصّ عليه عامّة المؤرّخين، و لكن عند الحاكم: أنّ هجرة الحبشة قد كانت بعد وفات أبي طالب، (٣) و هو إنّما توفّي في السّنة العاشرة من البعثة. إلّا إذا كان الحاكم يتحدّث عن هجرة جديدة قام بها بعض المسلمين في هذا الوقت، لعلّها عودة الرّاجعين إلى مكّة هو سماعهم بالهدنة، ففوجئوا بالعكس، فعادوا أدراجهم، و لكنّنا لا نملك شواهد تؤيد أنّ ذلك كان في تلك السّنة بالذّات.

- ١- السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ١٧، البداية و النهاية، ج ٣، ص ٧٢، تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٩٠
- ٢- سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٤٥، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ٥، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ٦٧ و السيرة الحلبية، ج ١، ص ٣٢٤ قال: و به جزم ابن المحدث في سيرته، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٨٨
- ٣- مستدرک الحاكم، ج ٢، ص ٦٢٢.

ص: ١١٤

و كيف كان فإننا نقول: إننا نرجح أنه لم يكن سوى هجرة واحدة للجميع، عليها جعفر بن أبي طالب (ع)، الذي لم يكن غيره من بنى هاشم، فلم يكن ثمة هجرتان، عشرة أولًا، ثم الباقيون ثانيًا، وإن كان خروجهم إنما كان أرسالًا حفاظًا على عنصر السيرة، وذلك بدليل الرسالة التي وجهها الرسول (ص) إلى ملك الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري، والتي جاء فيها: «قد بعثت إليكم ابن عمي جعفر بن أبي طالب، معه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرهم...» (١) وهذا هو الظاهر من رواية أخرى عن أبي موسى، قال: «أمرنا رسول الله (ص) أن نطلق جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي...» (٢) وإن كانت هجرة أبي موسى هذه محل شك، فإنه لم يسلم إلّا في المدينة في السنة السابعة من الهجرة.

و نعتقد أن هجرة جعفر إلى الحبشة لم تكن بسبب تعرضه للتعذيب من قبل قريش، فقد كانت قريش تخشى مكانة أبي طالب و تراعى جانبه و جانب بنى هاشم بصورة عامة؛ و إنما أرسله النبي (ص) مع المهاجرين ليكون أميراً عليهم، و مدبراً لأمرهم، و مشرفاً على شؤونهم و مصالحهم، و حافظاً من أن يذوبوا في هذا المجتمع الجديد، كما كان الحال بالنسبة إلى ابن جحش الذي تنصر في الحبشة.

مماولة قريش اليائسة

و بعد أن صَحاح (٣) مشركو مكة من عنف الصدمة و رأت قريش استقرارهم في

١- البدايه و النهايه، ج ٣، ص ٨٣ و البحار، ج ١٨، ص ٤١٨، و إعلام الوري، ص ٤٦ ٤٥ عن قصص الأنبياء

٢- البدايه و النهايه، ج ٣، ص ٧٠ عن ابن نعيم في الدلائل، و السيره النبويه لابن كثير، ج ٢، ص ١١

٣- صَحى السكران: ذهب سكره و أفاق؛ يقال: صحى من سكره و فلان: ترك الصبا و الباطل. و العنف: ضد الرفق.

ص: ١١٥

الحبشة و أمنهم، انتمرت فيما بينها و قزرت إرسال رجلين من قبلها إلى الحبشة لاسترداد المهاجرين، و وقع اختيارهم على عمرو بن العاص، (١) فأرسلوا هما إلى النجاشي بهدايا له و لبطارقتة. (٢) و ادعى أمام النجاشي أنه قد ضوى (٣) إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دينهم و لم يدخلوا في دينك، و جاؤوا بدين ابتدعوه لا- نعرفه نحن و لا- أنت، و قد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم و أعمامهم و عشائهم لتردهم إليهم

فرفض تسليمهم إليهم حتى يسئلهم عن صحة ما جاء به عمرو و عماره. فجاء المسلمون، فسئلهم. فقال جعفر: «أيها الملك! كنّا قومًا أهل جاهليّة، نعبد الأصنام، و نأكل الميتة، و نأتى الفواحش، و نقطع الأرحام، و نسىء الجوار، و يأكل منا القوى الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه و صدقه و أمانته و عفافه، فدعانا إلى الله لنوحده و نعبده و نخلع ما كنّا نعبد نحن و أبائنا من دونه من الحجارة و الأوثان، و أمرنا بصدق الحديث، و أداء الأمانة، و صلة الرّحم، و حسن الجوار، و الكفّ عن المحارم و الدماء؛ و نهانا عن الفواحش، و قول الزّور، و أكل مال اليتيم، و قذف المحصنات؛ و أمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، و أمرنا بالصّلاة، و الزّكاة و الصّيام و ...» (٤)

١- و قيل: على عماره بن الوليد

٢- البطارقة: جمع بطريق و البطريق: القائد من قواد الرّوم، تحت يده عشرة آلاف رجل

٣- ضوى إليه: انضمّ إليه و لجأ وأوى، و فلان: أتى ليلاً

٤- ذكرت الزّكاة و الصّيام في مختلف المصادر، فراجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٦٠، و السيرة النبوية، لابن كثير، ج ٢، ص ٢١، و الكامل لابن الاثير، ج ٢، ص ٨٠ (و لم يذكر الزّكاة) و إعلام الوري، ص ٤٤ (و لم يذكر الصّيام) و البداية و النهاية، ج ٣، ص ٧٤ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٢٩٠، و حلية الأولياء، ج ١، ص ١١٤، و السيرة الحلبية، ج ١، ص ٣٤٠.

قد شكك البعض في صحة هذه الرواية، و ذلك لذكر الصّيام فيها، و هو إنّما شرع في المدينة (ذكره أحمد أمين في فجر الاسلام، ص ٧٦ و لعله اقتبس من السيرة الحلبية، ج ١، ص ٣٣٩) و لكنّه كلام باطل؛ فإنّ الصّيام و الزّكاة و غير ذلك كلّ قد شرع في مكّة. و منشأ هذه التّحقيقات الرّشيقة!! لأحمد أمين و من هم على شاكلته، إنّما هو التشكيك في موقف يُظهر بطولة جعفر، و جرأته و حكمته و عقله و درايته. و قد ابتلى جعفر بمثل هذا الإجحاف في حقّه في مورد آخر، و هو كونه الأمير الأول في غزوة مؤتة كما سيأتى فإنّ لهم اهتماماً خاصاً في إبعاد جعفر عن هذا المقام و التّأكيد على أنّ الأمير الأول هو زيد بن حارثة. كلّ ذلك من أجل أخوته لعلّ (ع) و قرابته منه.

ص: ١١٦

و قرأ عليه جعفر بعض سورة الكهف، فبكى النجاشي حتّى اخضلت لحيته و كذلك أساقفته. ثم قال: إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة؛ انطلقا. فوالله لا أسلمهم إليكما، و لا يكادون.

ثمّ غدا عمرو في اليوم التالي ليخبر النجاشي بأنّ المسلمين يقولون: إنّ عيسى بن مريم عبدٌ؛ فأرسل إليهم، فقال له جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبيّنا (ص) هو عبدالله و رسوله، و روحه، و كلمته التي ألّقاها إلى مريم العذراء البتول. فتناول النجاشي عوداً و قال: والله، ماعدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود.

فتناخرت بطارقتة، (١) فقال: و إنّ نخرتم، اذهبوا فأنتم شيوم (٢)، من سبكم غرم قالها ثلاثاً ما أحبّ أن لي دبراً (٣) من ذهب و أني أذيت رجلاً منكم، ثم ردّ هدايا قريش. (٤)

قريش و خططها المستقبليّة

حقاً لقد كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة ضربةً قاسيةً لقريش، أفقدتها

- ١- تناخرت بطارقتة: تكلمت و كأنه كلام مع غضب و فتور. و نخر الأنسان و الحمار و الفرس: مدّ الصوت و النفس في خياشيمه
- ٢- أي آمنون
- ٣- الدبر: الجبل
- ٤- راجع المصادر المتقدمة.

ص: ١١٧

صوابها و زعزعت وجودها و كيائها؛ فحاولت أن تتدارك الأمر، فلحقت بهم بهدف إرجاعهم و إبقائهم تحت سلطتها و لكن بعد فوات الأوان.

و كان أن اضطرت قريش للمرّة الأولى لمراجعة حساباتها من جديد، بعد أن أدركت أن زمام المبادرة لم يعد بيدها، و ذلك لأنها:

١. أدركت أن الاستمرار في تعذيب المسلمين الذين أصبحوا متفرّقين في مختلف القبائل لم يعد له كبير جدوى و لا جليل أثر، إن لم يكن سبباً في إثارة حرب داخلية، تكون عواقبها السيئة على سمعتها و كرامتها كبيرة و خطيرة.
٢. رأت أن محمداً (ص) يريد أن تكون دعوته إنسانية عالمية، لا تختصّ بعرب مكّة و الحجاز، و أدركت أن هجرة هؤلاء إلى الحبشة لم تكن متمحّزة في الهروب من التعذيب، لأنّ الكثيرين من هؤلاء لم يكن ممن يعذب.
٣. ترى أن معنى هجرة المسلمين هذه، و خروجهم من تحت سلطتها، هو أنّها سوف تكون أمام مواجهة شاملة، و أنّ مصالحتها في معرض التهديد و البوار.

إذن فإنّ وجود المسلمين و هم من قريش في الصّميم في منطقته بعيدة عن نفوذ القرشيين و سلطانهم، و في ملجأ أمين، و منطلق مطمئن، ليشكل أعظم الأخطار على قريش و مصالحتها؛ الأمر الذي يحتم عليها التّريث (١) و الصّبر، و أحكام التّدبير، لا سيّما و أنّها لا تجد إلى تصفية النّبي (ص) جسدياً حيلةً، و لا إلى إسكاته سبيلاً، ما دام في حماية شيخ الأبطح، أبي طالب (ع) و الهاشميين، عدا أبي لهب. فأرسلت إلى النّجاشي ممثّلين عنها لاسترداد المهاجرين، فرجعها إليها بالفشل الذريع و الخيبة القاتلة؛ فأفقدتها ذلك صوابها و أصبحت تتصرّف بدون وعى و لا تدبّر، فعادت من جديد على من تبقى من المسلمين بالعذاب و التّنكيل، و جعلت تتعرض للنّبي (ص) بالسّخرية و الاستهزاء، و الاتّهام بالجنون و السّحر و الكهانة و بأنواع مختلفة من الحرب النفسيّة و الأذى.

١- تَريث: أبطأ، و التّريث: مقدار المهلة من الزّمان.

ص: ١١٨

عودة بعض المهاجرين

و تسربت (١) أنباء الهدنة القصيرة و العفوية غير المعلنة التي حصلت في مكة إلى مسامع المسلمين في الحبشة، و رأى المسلمون ما جرى للنجاشي بسببهم، (٢) فارتأى فريق منهم العودة إلى مكة، بعد شهرين، أو ثلاثة أشهر، و عاد منهم أكثر من ثلاثين رجلاً، و دخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة، و كان ما كان من رده جواره و رضاه بجوار الله تعالى. نعم، هذا هو السر في رجوع بعض المهاجرين من الحبشة، و ليس ما ذكره أعداء الإسلام من قصة الغرانيق التي لا شك في كذبها. (٣)

١- تسرب: دخل و انتشر

٢- كان وجود المسلمين في الحبشة قد تسبب للنجاشي ببعض المتاعب؛ حيث اتهمه أهل بلاده بأنه خرج من دينهم، فثاروا عليه؛ ولكنه استطاع أن يخدم الثورة بحسن إدراكه و وعيه (راجع: تاريخ الإسلام للذهبي، ج ٢، ص ١٣٦، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٣٦٥، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ٧٧).

٣- ملخص هذه القضية المكذوبة: أنه بعد أن هاجر المسلمون إلى الحبشة بحوالى شهرين، جلس رسول الله (ص) مع المشركين، فأنزل الله تعالى عليه سورة النجم، فقرأها، حتى إذا بلغ قوله تعالى: «أفرأيتم اللات و العزى و مناة الثالثة الأخرى» وسوس إليه الشيطان بكلمتين، فتكلم بهما ظاناً أنهما من جملة الوحي و هما: «تلك الغرانيق (جمع غرنوق: طيور الماء. شبهت الأصنام بها لارتفاعها في السماء فتكون الأصنام مثلها في رفعة القدر؛ والغرنوق أيضاً: الشاب الأبيض الثائم) العلى و أن شفاعتهن لترتجى. "ثم مضى في السورة، حتى إذا بلغ السجدة، سجد و سجد معه المسلمون و المشركون. و أضاف البخاري سجود الإنس و الجن إلى مجموع المسلمين و المشركين، و طار الخبر في مكة و فرح المشركون، بل و يقال: إنهم حملوا الرسول، و طاروا به في مكة من أسفلها إلى أعلاها

و يقولون: إنه لما سمع المسلمون في الحبشة بالسلام و الوثام (الوثام: الوفاق) بين النبي (ص) و قريش عادت طائفة منهم إلى مكة، فوجدوا الأمر على خلاف ذلك.

و نحن نعتقد جازمين بكذب هذه القضية و افتعالها، و يشاركنا في هذا الاعتقاد جمع من العلماء، فقد قال محمد بن إسحاق حين ما سئل عنها: «هذا من وضع الزنادقة» و صنف في تفنيدها كتاباً (راجع: البحر المحيط لأبي حيان، ج ٦، ص ٣٨١). و قال القاضي عبد الجبار عن هذا الخبر: «لا أصل له، و مثل ذلك لا يكون إلّا من دسائس الملحدة» (تنزيه القرآن عن المطاعن، ص ٢٤٣).

ص: ١١٩

الفصل الخامس في شعب أبي طالب (ع)

اشاره

ص: ١٢١

المقاطعة

لَمَّا رَأَتْ قَرِيشَ عَزَّةَ النَّبِيِّ (ص) بِمَنْ مَعَهُ وَ عَزَّةَ أَصْحَابِهِ فِي الْحَبْشَةِ وَ فُشُو الْإِسْلَامِ فِي الْقَبَائِلِ، وَ أَنَّ جَمِيعَ جُهُودِهَا فِي مُحَارَبَةِ الْإِسْلَامِ قَدْ بَاءَتْ بِالْفَشْلِ، حَاولَتْ أَنْ تَقُومَ بِتَجْرِبَةٍ جَدِيدَةٍ، وَ هِيَ الْحَصَارُ الْاِقْتِصَادِي وَ الْاجْتِمَاعِي ضِدَّ الْهَاشِمِيِّينَ، وَ أَبِي طَالِبٍ؛ فَإِذَا أَنَّ يَرْضَخُوا (١) لِمَطَالِبِهَا فِي تَسْلِيمِ مُحَمَّدٍ لَهَا لِلْقَتْلِ، وَ إِذَا أَنَّ يَتَرَاوَعُ مُحَمَّدٌ (ص) نَفْسَهُ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَ إِذَا أَنَّ يَمُوتُوا جُوعًا وَ ذَلًّا، مَعَ عَدَمِ ثُبُوتِ مَسْئُولِيَّتِهِ مُحَدَّدَةٍ عَلَى أَحَدٍ فِي ذَلِكَ، يُمْكِنُ أَنْ تَجْرَ عَلَيْهِمْ حَرْبًا أَهْلِيَّةً، رُبَّمَا لَا يُمْكِنُ لِأَحَدِ التَّكْهَنَةِ (٢) بِنَتَائِجِهَا وَ عَوَاقِبِهَا السَّيِّئَةِ. فَكَتَبُوا صَحِيفَةً تَعَاقَدُوا فِيهَا عَلَى عَدَمِ التَّزْوُجِ وَ التَّرْوِيجِ لِبْنِي هَاشِمٍ وَ بَنِي الْمُطَّلِبِ، وَ أَنَّ لَا يَبِيعُوهُمْ شَيْئًا، وَ لَا يَبْتَاعُوا مِنْهُمْ، وَ أَنَّ لَا يَجْتَمِعُوا مَعَهُمْ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، أَوْ يَسْلَمُوا لَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ (ص) لِيَقْتُلُوهُ. وَ قَدْ وَقَعَ عَلَى هَذِهِ الصَّحِيفَةِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنْ وَجْهِ قَرِيشٍ وَ خَتَمُوهَا بِخَوَاتِيمِهِمْ، وَ عُلِّقَتِ الْوُثِيقَةُ فِي الْكَعْبَةِ مَدَّةً وَ يُقَالُ: أَنَّهُمْ خَافُوا عَلَيْهَا السَّرْقَةَ؛ فَنَقَلُوهَا إِلَى بَيْتِ أُمِّ أَبِي جَهْلٍ. (٣)

١- رَضِخَ لَهُ مِنْ مَالِهِ: أَعْطَاهُ وَ رَاضِخُ الشَّيْءِ: أَعْطَاهُ كَارِهًا

٢- كَهَنَ لَهُ كَهَانَةً: قَضَى لَهُ بِالْغَيْبِ وَحَدَّثَ بِهِ

٣- هَكَذَا جَاءَ فِي بَعْضِ الزُّوَايَاتِ فِي الْبَحَارِ، ج ١٩، ص ١٦ عَنْ الْخَرَائِجِ وَ الْجَرَائِحِ وَ لَا يَهْمُنَا تَحْقِيقُ هَذَا الْأَمْرِ.

ص: ١٢٢

و كان ذلك فى سنة سبع من البعثة على أشهر الروايات، وقيل ستّ.

و أمر أبوطالب بنى هاشم أن يدخلوا برسول الله (ص) الشعب الذى عُرِفَ بشعب أبى طالب و معهم بنو المطلب بن عبد مناف باستثناء أبى لهب لعنه الله و أخزاه. (١)

و استمروا فيها إلى السنة العاشرة، و وصغت قريش عليهم الرّقاء حتى لا يأتيتهم أحدٌ بالطعام، و كانوا ينفقون من أموال خديجه و أبى طالب، حتى نفدت، حتى اضطروا إلى أن يقتاتوا (٢) بورق الشجر.

و كان صبيّتهم يتضاغون جوعاً، (٣) و يسمعهم المشركون من وراء الشعب، و يتذكرون ذلك فيما بينهم، فبعضهم يفرح، و بعضهم يتذمّم (٤) من ذلك.

و لم يكونوا يجسرون على الخروج من الشعب إلّا فى موسم العمرة فى رجب، و موسم الحجّ فى ذى الحجة، فكانوا يشترون حينئذٍ و يبيعون ضمن ظروف صعبة جداً، حيث أنّ المشركين كانوا يلتقون بكلّ من يقدم مكة أولاً، و يطمعونه بمبالغ خياليّة ثمناً لسلعته، بشرط أن لا يبيعها للمسلمين.

و كان أبو لهب هو رائدهم فى ذلك، فكان يوصى التّجار بالمغالة عليهم، حتى لا يدركوا معهم شيئاً، و يضمن لهم، و يعوّضهم من ماله كلّ زيادة تبذل لهم؛ بل لقد كان المشركون يتهدّدون كلّ من يبيع المسلمين شيئاً بنهب أمواله، و يحذّرون كلّ قادم إلى مكة من التّعامل معهم، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله (ص). (٥)

- ١- و قيل: إنّ أبا سفيان بن حارث أيضاً لم يدخل الشعب معهم، و لكنّه قول نادر، و الأكثر على الاقتصار على أبى لهب لعنه الله
- ٢- اقتات الحبوب: اتّخذها قوتاً
- ٣- تضاعى من الطّوى: تضرّ من الجوع و صاح
- ٤- تذمّم الرّجل: استنكف
- ٥- البدايه و النهايه، ج ٣، ص ٨٤.

ص: ١٢٣

وقد استمرت هذه المحنة سنتين أو ثلاثاً، وكان أمير المؤمنين (ع) أثناءها يأتيهم بالطعام سرّاً من مكّة، من حيث يمكن، ولو أنّهم ظفروا به لم يبقوا عليه، كما يقول الإسكافي وغيره (١) و كان أبوطالب كثيراً ما يخاف على النّبي (ص) البيات؛ فإذا أخذ الناس مضاجعهم، اضطلع النّبي (ص) على فراشه، حتّى يرى ذلك جميع من في الشعب، فإذا نام الناس، جاء وأقامه، وأضجع ابنه عليّاً مكانه (٢).

أموال خديجة و سيف علي

من المعروف أنّ الإسلام قد قام بسيف علي (٣) (ع) و بأموال خديجة (ع) التي انفقها في سبيل الله؛ فهل معنى ذلك أنّ خديجة كانت ترشو الناس من أجل أن يدخلوا في الإسلام؟ وهل يمكن العثور على مورد واحد من هذا القبيل في التاريخ؟!
لعلّك تقول: إنّ النّبي (ص) كان يتألّف كثيرين على الإسلام، فيعطيه الأموال ترغيباً لهم في ذلك، وقضيّة غنائم حنين الآتية إن شاء الله أوضح دليل على ذلك، ولا يجهل أحدّ سهم المؤلّفه قلوبهم في الإسلام.
والجواب: أنّ هذا ليس معناه أنّهم كانوا يأخذون الرّشوة على الإسلام؛ وإنّما يريد الإسلام لهؤلاء أن يعيشوا في الأجواء الإسلاميّة و يتفاعلوا معها، و ينظروا لها نظرة سليمة؛ فكان هذا المال المعطى لهم يساعد على التغلّب على تلك الحواجز

١- شرح النهج للمعتزلي، ج ١٣، ص ٢٥٦

٢- المصدر المتقدم، والغدير، ج ٧، ص ٣٥٨ ٣٥٧ عن كتاب الحجّة لابن معد

٣- كما قال رسول الله (ص):

لا فتى إلّا على لا سيف إلّا ذوالفقار

و سيأتي في غزوتي بدرٍ و أحد.

ص: ١٢٤

الوهميّة في أكثرها، و يجعلهم يعيشون في الأجواء و المناخات الإسلاميّة، و يتعرّفون على خصائص الإسلام و أهدافه؛ و لتحصل لهم من ثمّ القناعات الوجدانيّة و الفكرية بأحقّية الإسلام و سُمُو أهدافه.

و أمّا أموال خديجة، فلم تكن تُعطى كرشوة على الإسلام، و لا كانت تنفق على المؤلّفه قلوبهم؛ و إنّما كانت تسدّ رمق ذلك المسلم، الّذى يعاني أعظم المشاقّ و الآلام، في سبيل إسلامه و عقيدته؛ هذا المسلم، الّذى لم تتوزّع قريش عن محاربته بكلّ ما تملكه من أسلحة لا انسانيّة و لا اخلاقيّة، حتّى بالفقر و الجوع.

فكانت تلك الأموال تسدّ رمق من يتعرّض للأخطار الكبيرة، و تخدم الإسلام عن هذا الطّريق؛ و هذا معنى قولهم: «إنّ الإسلام قام بأموال خديجة». فإنّ أموالها، الّتي أنفقت في المقاطعة، كانت في غالبها، من النوع الّذى يمكن الانتفاع به في سدّ رمق الجائع، و كسوة العارى؛ و أمّا ما سواه، فلربّما لم يتعرّض لذلك، بسبب عدم القدرة على البيع و الشّراء في غالب الأحيان.

نقض الصّحيفة

و بعد ثلاث سنوات تقريباً من الحصر في الشّعب، أخبر النّبيّ (ص) عمّه أبطالب بأنّ الأرضة (١) قد أكلت كلّ ما في صحيفتهم من ظلم و قطيعه رحم و لم يبق فيها إلّا ما كان اسماً لله.

فخرج أبطالب من شعبه و معه بنوهاشم إلى قريش. فقال المشركون: الجوع أخرجهم. و قالوا له: يا أبطالب، قد آن لك أن تصالح قومك. قال: قد جئتكم بخير؛ ابعثوا إلى صحيفتكم، لعلّه أن يكون بيننا و بينكم صلح فيها. فبعثوا، فأتوا بها، فلمّا وضعت و عليها أختامهم، قال لهم أبطالب: هل تنكرون منها شيئاً؟ قالوا: لا. قال:

١- الأرضة: دُوَيْبَةُ تَأْكُلُ الخشب.

ص: ١٢٥

إِنَّ ابْنَ أَخِي حَدَّثَنِي وَ لَمْ يَكْذِبْنِي قَطُّ: أَنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ عَلَى هَذِهِ الصَّحِيفَةِ الْأَرْضِ، فَأَكَلَتْ كُلُّ قِطْعَةٍ وَ إِثْمٌ، وَ تَرَكَتْ كُلُّ اسْمٍ هُوَ لِلَّهِ؛ فَإِنْ كَانَ صَادِقًا أَقْلَعْتُمْ عَنْ ظُلْمِنَا، وَ إِنْ يَكُنْ كَاذِبًا نَدْفَعُهُ إِلَيْكُمْ فَتَقْتُلُونَهُ.

فَصَاحَ النَّاسُ: أَنْصِفْنَا يَا أَبَا طَالِبٍ، فَفَتَحَتْ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ، فَإِذَا هِيَ كَمَا قَالَ (ص)، فَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ، وَ امْتَقَعَتْ (١) وَجْهَ الْمُشْرِكِينَ. فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: أَتَبَيَّنَ لَكُمْ، أَيُّنَا أَوْلَى بِالسَّحَرِ وَ الْكِهَانَةِ؟ فَأَسْلَمَ يَوْمَئِذٍ عَالَمٌ مِنَ النَّاسِ.

وَلَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَقْنَعُوا بِذَلِكَ، بَلْ اسْتَمَرُّوا عَلَى الْعَمَلِ بِمُضْمُونِ الصَّحِيفَةِ، حَتَّى قَامَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ: هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ رَبِيعَةَ، وَ زَهِيرُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدَى، وَ أَبَانُ الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ، وَ زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ وَ كُلُّهُمْ رَحِمَ بَيْنِي هَاشِمٌ وَ الْمُطَّلِبُ وَ تَكَلَّمُوا فِي نَقْضِهَا؛ فَعَارَضَهُمْ أَبُو جَهْلٍ فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى مَعَارَضَتِهِ، وَ مُزَّقَتِ الصَّحِيفَةُ، وَ بَطُلَ مَفْعُولُهَا، وَ خَرَجَ الْهَاشِمِيُّونَ حِينَئِذٍ مِنْ شَعْبِ أَبِي طَالِبٍ (ع). (٢)

حُكْمَةُ أَبِي طَالِبٍ وَ إِيْمَانِهِ

إِنَّ الْمُطَالَعَ لِأَحْدَاثِ مَا قَبْلَ الْهَجْرَةِ لِيَجِدَ عَشْرَاتِ الشُّوَاهِدِ الدَّالَّةِ عَلَى حُكْمَةِ (٣) أَبِي طَالِبٍ (ع). وَ خَيْرُ شَاهِدٍ نَسُوْقُهُ الْآنَ عَلَى ذَلِكَ، هُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ آنَفًا، حَيْثُ رَأَيْنَاهُ

١- امْتَقَعَ الرَّجُلُ مَجْهُولًا: تَغَيَّرَ لَوْنُهُ مِنْ حَزَنٍ أَوْ فَرْحٍ أَوْ رِيْبَةٍ

٢- رَاجِعٌ فِيمَا تَقْدَمُ: السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ كَثِيرٍ، ج ٢، ص ٤٤، وَ السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ، ج ٢، ص ١٦، وَ دَلَائِلُ النَّبَوَةِ لِذَحْلَانَ (ط). دَارُ الْكِتَابِ ج ٢، ص ٣١٢، وَ الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ، ج ٢، ص ٨٨ وَ السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِذَحْلَانَ، ج ١، ص ١٣٨ ١٣٧ (ط). دَارُ الْمَعْرِفَةِ وَ تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ، ج ٢، ص ٣١، وَ الْبَدَايَةُ وَ النِّهَايَةُ، ج ٣، ص ٨٥ وَ ٨٦

٣- الْحُكْمَةُ: السَّنُّ وَ التَّجَرُّبَةُ وَ الْبَصَرُ بِالْأُمُورِ، وَ حَنَكُ الشَّيْءِ: فَهْمَتُهُ وَ أَحْكَمَتُهُ، وَ حَنَكَةُ السِّنِّ: إِذَا حَكَمْتَهُ التَّجَارِبُ وَ الْأُمُورُ، اسْتَعَارَةً فِي التَّجَرُّبَةِ وَ الْحِكْمَةِ وَ الْفِرَاسَةِ.

ص: ١٢٦

ى

طلب منهم أن يحضروا صحيفتهم، و يمزج ذلك بالتعريض بإمكان أن يكون ثمة صلح فيما بينهم و بنيه. و ما ذلك إلّا من أجل أن لا تُفتَح الصّحيفة إلّا علناً، يراها كلّ أحدٍ، و أيضاً، حتّى يهيئهم للمفاجأة الكبرى، و يمهد السبيل أمام طرح الخيار المنطقي عليهم، ليسهل عليهم تقبله، ثم الالتزام به، و لا سيّما إذا استطاع أن ينتزع منهم وعداً بما يريد، و يضعهم أمام شرف الكلمة، و على محك قواعد النّبيل و احترام الذات، حسب المعايير الّتي كانوا يتعاملون على أساسها. و قد نجح في ذلك إلى حدّ بعيد، حتّى ليصبح النّاس: أنصفتنا يا أباطالب.

ثمّ تبرز لنا من النّصوص المتقدّمة حقيقة أخرى، لها أهمّيتها و انعكاساتها، و هي تدلّ على مدى ثقة أبى طالب بصدق النّبى الأعظم (ص)، و بسداد أمره، و واقعيّة ما جاء به، حتّى قال: «إنّ ابن أخى حدّثنى و لم يكذبنى قطّ». و كان يتألّم جدّاً من اتّهام ابن أخيه بالسّحر والكهانة، و يعتبر ذلك افتراءً ظاهراً و يغتنم الفرصة السانحة للتعبير عن خطل رأيهم، و سفه أحلامهم، فيقول لهم: «أتبين لكم أيّنا أولى بالسّحر و الكهانة؟». و كانت النتيجة: أن أسلم بسبب هذه المعجزة يومئذٍ عالم من النّاس.

ما بعد نقض الصّحيفة

و استمرّ الرّسول الأعظم (ص) يعمل على نشر دينه، و أداء رسالته؛ و استمرّت قريش تضع في طريقه العراقيل (١)، و تحاول أن تمنع النّاس من الاجتماع به، و الاستماع إليه، بكلّ الوسائل الّتي تقع تحت اختيارها، و النّبى (ص) يتحمّل و يصبر، لا يكلّ و لا يملّ، و لم تفلح قريش في ذلك و لا وصلت إلى نتيجة، و الأحداث

١- العراقيل: الدّواهي و عراقيل الأمور صعابها.

ص: ١٢٧

التي في هذا السبيل كثيرة لو أردنا استقصاءها لطال المقام ولا محيص لنا عن تجاوزها إلى غيرها.

عام الحزن

و في السنة العاشرة من البعثة كانت وفاة الرجل العظيم، أبي طالب (ع)، ففقد النبي (ص) بفقده نصيراً قوياً و عزيزاً و فياً، كان هو الحامي له و الدافع عنه و عن دينه و رسالته، منذ طفولته و حتى الآن، و واجه المصائب الكبيرة، و المشاق العظيمة في سبيل الدفع عنه، و الذود عن دينه و رسالته.

و هو أيضاً الذي كان يُقدّمه على أولاده جميعاً، و رضى بعداء قريش له، و بمعاناة الجوع و الفقر، و التبدد الاجتماعي، و وقف ذلك الموقف العظيم من جابرة قريش و فراعنتها.

و في الشعب كان يحرس النبي (ص) بنفسه و ينقله من مكان إلى آخر، و يجعل ولده علياً (ع) في موضع النبي (ص)، حتى إذا كان أمراً، أصيب ولده دونه. كل ذلك في سبيل الدفع عن الرسول الأعظم (ص) و نصر دينه، و إعلاء كلمته، و رفعه شأنه.

ثم توفيت بعده بمدة و جيزة قيل: بثلاثة أيام، و قيل: بعده بحوالي شهر (١) - خديجة أم المؤمنين (ع) أفضل أزواج النبي (ص) و أحسنهن سيرةً و أخلاقاً مع النبي (ص) و قد كانت عايشة تغار منها غير شديدة، رغم أنها لم تجتمع معها في بيت الزوجية؛ لأن النبي (ص) قد تزوجها بعد وفاة خديجة بزمان (٢) و نستطيع أن نعرف: كم كان لأبي طالب و لخديجة من خدمات جلّي في

١- السيرة الحلبية، ج ١، ص ٣٤٦، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ١٣٢، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٢٧، و التنبية و الإشراف، ص ٢٠٠

٢- البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٢٨ ١٢٧، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ١٣٥ ١٣٣.

ص: ١٢٨

سبيل هذا الدين، من تسمية النبي (ص) عام وفاتهما ب- «عام الحزن»^(١) و من الواضح: أن النبي (ص) لم يكن ينطلق في حبه لهما، و حزنه عليهما من مصلحته الشخصية، أو من عاطفة رحيته، و إنما هو في سبيل الحب في الله و البغض في الله فقط.

فإنه (ص) لم يتأثر على أبي طالب و خديجة، لأن هذه زوجته و ذاك عمه، و إلا فقد كان أبولهب عمه أيضا، و إنما لئلا يمس فيهما من قوة إيمان، و صلابته في الدين، و توضيحات و تفان في سبيل الله، و العقيدة، و في سبيل المستضعفين في الأرض، و لئلا خسرت الأمة فيهما، من جهاد و إخلاص، قل نظيره في تلك الظروف الصعبة و المصيرية.

وقد ألمح النبي (ص) إلى ذلك حينما جعل موت أبي طالب و خديجة مصيبة للأمة بأسرها، كما هو صريح قوله في هذه المناسبة:

«اجتمعت على هذه الأمة مصيبتان، لا أدري بأيهما أنا أشدّ جزعا»^(٢).

-
- ١- سيرة مغلطاي، ص ٢٦، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٠١، و المواهب اللدنية، ج ١، ص ٥٦ و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ١٣٩ (دار المعرفة) و أسنى المطالب، ص ٢١
- ٢- تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥ (ط. صادر).

ص: ١٢٩

الفصل السادس حتى بيعه العقبه

اشاره

ص: ١٣١

لابد من تمرّك جديد

لقد فقد النبي (ص) بوفاء أبي طالب نصيراً قوياً، دافع عنه (ص) دعوته الإلهية بيده ولسانه كما قدّمنا فاعتقدت قريش أنه (ص) سيضعف عزمه عن مواصلة جهوده، بعد أن مات ناصره؛ فنالته بعد وفاء شيخ الأبطح بأنواع الأذى، ممّا عجزت عنه في حياة عمّه العظيم، ووجدت الفرصة للتنفيس عن حقدها، وصبّ جام غضبها عن ذلك الذي ترى فيه سبباً لكلّ مشاكلها ومتاعبها. و رأى (ص) أنّ الدّعوة الإسلامية تتعرّض لضغوط قويّة تمنع من انتشارها، و من دخول الآخرين فيها، ماداموا لا يرون في ذلك الدّخول إلّا العذاب والنّكال.

و من هنا، فقد كان لابدّ من تحرّك جديد، يعطى للدّعوة دفعةً جديدة، و يجعلها أكثر حيويّة و أكثر قدرة على مواجهة الأخطار المحتملة، و إذا كان بقاؤه (ص) في مكّة إن لم يكن فيه خطر على الدّعوة معناه جمودها و شلّ حركتها، فإنّ من الطّبيعي أن يبحث عن مكان آخر، تتوفّر فيه له حريّة الحركة، و الدّعوة إلى الله، بعيداً عن أذايا قريش و مكائدها. فكان كلّ ذلك و سواء دافعاً إلى الهجرة إلى الطائف.

الهجرة إلى الطائف

بعد أن أذن الله له (ص) بالخروج من مكّة، إذ قدّمت ناصره، خرج إلى الطائف و

ص: ١٣٢

معه على (ع)، أو زيد بن حارثة، أو هما معاً (١) - على اختلاف الثقل و ذلك لئلا يقين من سؤال سنة عشر. فأقام في الطائف عشرة أيام و قيل شهراً لا يدع من أشرافهم أحداً إلّا جاءه و كلمه، فلم يجيبوه، و خافوا على أحداثهم، فطلبوا منه أن يخرج عنهم، و أعزوا به سفهاءهم، فجلسوا له في الطريق، يرمونه بالحجارة، و على يدافع عنه، حتى شجّ في رأسه. (٢) ثم انصرف (ص) راجعاً إلى مكّة، فاستعدّ أعداؤه للقائه بأنواع من الأذى لم يعرفها من قبل؛ ولكنّه (ص) كان مصمماً على مواجهة كلّ الاحتمالات، حيث قال لرفيقه على (ع) أو زيد: «إنّ الله جاعل لما ترى فرجاً و مخرجاً، و إنّ الله ناصر دينه و مظهر نبيّه».

نكات هامة

١. الطائف و علاقاتها بمن حولها

إنّ أهل الطائف كانوا مرتبطين اقتصادياً بأهل مكّة و من حولهم؛ لأنّهم كانوا يصدرون الفاكهة التي هي عمدة محاصيلهم إلى مكّة و غيرها من الأطراف المحيطة بهم. فهم يرون مصيرهم مرتبطاً اقتصادياً و اجتماعياً بغيرهم، و هم بحاجة إلى التقرّب و التلّف إلى هؤلاء، و استجلاب محبتهم و رضاهم، حتّى لا يتعرّضوا للضغط الاجتماعي، أو إلى حصار اقتصادي، لا سيّما مع المكيين، حيث السوق الرئيس لمنتجاتهم.

١- شرح النهج للمعتزلي، ج ٤، ص ١٢٧ عن المدائني، و سيرة المصطفى، ص ٢٢٢ ٢٢١

٢- و قيل: إنّ الذي شجّ في رأسه هو زيد بن حارثة.

ص: ١٣٣

ثم إنه قد كان لهم صنم يقال له اللات، وكانت له سَدَنَةٌ (١) و يزوره العرب، (٢) إذ كانت لهم مكانة ديتية أيضاً بين العرب، يهتمون جداً بالمحافظة عليه.

و من هذا و ذاك، نعرف السرّ في أنّهم كانوا أشدّاء في مواجهة النّبىّ (ص) و حريصين على إخراجهم من بينهم بسرعة. (٣)

٢. الإسلام دين الفطرة

إنّنا نلاحظ، أنّ أهل الطائف قد خافوا على أحداثهم من دعوة النّبىّ (ص)، رغم أنّه (ص) لم يقم بينهم سوى فترة قصيرة؛ الأمر الذى يؤكّد على أنّ الإسلام كان يجد سبيله بيسر و سهولة إلى العقول الصّافية و النفوس البريئة و ينسجم مع الفطرة السليمة، التى لم تتلوث بعد بالمفاهيم المنحرفة و العصبية القبليّة و غير ذلك.

و كيف لا يجد سبيله إليها بيسر، و هو الدّين القائم على الدّليل و البرهان العقلى، و المنسجم مع الفطرة، و هو دين الضّمير و الوجدان الحى.

و من هنا، فإنّنا نلاحظ أنّهم لم يمكنهم الرّدّ عليه و مناقشته، بل طلبوا منه أن يخرج من بينهم، و حاولوا أن يشوّها صورته فى أذهان أولئك الذين استمعوا إليه و فى أذهان الصّغار الذين أغروهم به (ص) و الذين يمكن أن تؤثر فيهم دعوته

١- سدن الرّجل: خدّم الكعبة أو بيت الصنم. يقال: هو سادن فلان: أى حاجبه. السّادن: اسم فاعل، جمعه: سَدَنَةٌ.

٢- الأصنام للكلبى، ص ١٦، و السيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش الحليّة، ج ٣، ص ١١، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ١٣٥

٣- و يشار هنا: إلى أنّ أهل الطائف الذين قتلوا عروة بن مسعود الدّاعى إلى الإسلام، قد تأخّر إسلامهم إلى أواخر حياة النّبىّ (ص)، فوفدوا عليه فى سنّة تسع (سنّة الوفود) و لم يؤمنوا إلّا بعد أن أدركوا أنّه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، فلا يخرج لهم مال إلّا نهب، و لا انسان إلّا أخذ؛ فلمّا رأوا عجزهم، اجتمعوا و أرسلوا الخ... (راجع: الكامل فى التاريخ، ج ٢، ص ٢٨٣، و السيرة النبوية لدحلان، ج ٣، ص ٩، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ٤، ص ١٨٣).

ص: ١٣٤

بما استعملوه ضده من أساليب غير منطقية، وإنما تتميز بالإهانة والأذى، ثم السخرية والاستهزاء الجارح والمهين.

٣. هل كان هذه سفره فاشلة؟!

و لربما يتساءل البعض عن الفائدة لهذه الرحلة الفاشلة؟ فنقول: إن هذه الرحلة لم تكن فاشلة؛ فإن من الطبيعي أن تترك هذه الحادثة آثاراً إيجابية من نوع ما في أذهان من التقى بهم و كلمهم و أن تثمر فيما بعد ثمارها المطلوبة و المرجوة منها، حيث قد أثرت بشكل واضح في تهيئة الجو لإيمان ثقيف فيما بعد ذلك عندما قويت شوكة الإسلام، و لم تعد تخشى الضغوط الاقتصادية و الاجتماعية عليها ممن حولها، و لا سيما من قريش؛ بل أصبح الضغط من جانب المسلمين؛ لأن القبائل كانت تفد إلى النبي (ص) فتعلن عن إسلامها، و يكتب لها كتاباً، و يشترط قطع العلاقات مع المشركين فأخافهم ذلك و أربعهم.

و قد كانت قريش تشيع عن النبي (ص) أنه مجنون، أو ساحر، أو كاهن، أو ... فهذا هو (ص) يتصل بالناس مباشرة، و يلمسون بأنفسهم حقيقة الأمر، و يتعرفون عن قرب على شخصيته و خصائصه، بحيث تسقط كل الإشاعات الكاذبة و المغرضة، و ليصير الإيمان به و برسالته و نبوته أسهل و أيسر، و ليصبح أكثر قوة و عمقاً و رسوخاً.

عرض الإسلام على القبائل

لقد كان النبي الأكرم (ص) يغتنم الفرصة في مواسم الحج؛ فيعرض على القبائل، قبيلة قبيلة، أن تعتنق الإسلام، و تعمل على نشره و تأييده، و حمايته و نصرته، بل كان لا يسمع بقادم إلى مكة، له اسم و شرف إلّا تصدى له و دعاه إلى الإسلام.

ولكن عمه أبا لهب كان يتبعه أنى توجه، و يعقب على كلامه، و يطلب منهم أن لا يقبلوا منه و لا يطيعوه فى شىء. هذا بالإضافة إلى اتّهامه بالجنون و السحر و

ص: ١٣٥

الكهانة و الشعر و غير ذلك.

و كان الناس في الغالب يسمعون من قريش، إِمَّا خشيَةً من سلطانها و نفوذها، و إِمَّا حفاظاً على مصالحهم الاقتصادية في مكة، لا سيما في مواسم الحجّ و عكاظ.

كما أنّ تصدّى أبى لهب، عمّ النبيّ (ص) بالذات لإفساد الأمر عليه (ص) كان أبعد تأثيراً في ذلك، على اعتبار أنّه عمّه و أعرف الناس به.

و قد صرّح المؤرّخون بأنّ العرب كانوا ينتظرون بإسلامهم قريشاً و كانوا إمام الناس، و أهل الحرم، و صريح ولد اسماعيل لا تنكر العرب ذلك.

فلَمَّا فتحت مكة و استسلمت قريش، عرفت العرب أنّها لا طاقة لها بحرب رسول الله، و لا عداوته، فدخلوا في الدين أفواجاً. (١) بل إنّ (ص) حينما كان يعرض دعوته على القبائل، كانوا يردّون عليه أقبح الرد، و يقولون: أسرتك و عشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك. (٢) و هذا يدلّ على أنّ الخوف من قريش لم يكن هو الدافع الوحيد للامتناع عن الدخول في الإسلام، لا سيما و أنّ الكثيرين من العرب كانوا بعيدين عن مكة و لا يخشون سطوتها.

و نقطة أخرى لا بدّ من الإشارة إليها و هي أنّ تحرّك النبيّ (ص) و عرض دين الله على القبائل، و هجرته المتعدّدة في سبيله ليعتبر إدانته للمنطق القائل: إنّ على صاحب الدعوة أن يجلس في بيته، و لا- يتحرّك، و على الناس أن يقصدوه و يسئلوه عمّا يهمهم، و يحتاجون إليه.

بنو عامر بن صعصعة و نصره النبيّ (ص)

اشاره

و نشير هنا إلى واقعة هامّة حدثت في خلال عرض النبيّ (ص) دعوته على القبائل و هي: أنّ رسول الله (ص) قد أتى بنى عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله.

١- راجع: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٨٦ و ٢٨٧

٢- السيرة الحليّة، ج ٢، ص ٣.

ص: ١٣٦

فقال لهم رجل منهم، اسمه «بيحرة بن فراس» والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب. ثم قال له: أرايت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيقون لنا الأمر من بعدك؟ قال (ص): الأمر لله يضعه حيث يشاء. فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك؛ فأبوا عليه. (١) و نحن نسجل هنا ما يلي:

١. الأمر لله

لقد نصّت الرواية على أن الأمر لله يضعه حيث يشاء، ونستفيد من ذلك:

أ. إن الرسول لم يعط هؤلاء وعداً بما طلبوه منه، من جعل الأمر لهم بعده، بل أجابهم بأن الأمر لله، يضعه حيث يشاء؛ أي أنه لا يمكن أن يعدّ بما لا يعلم قدرته على الوفاء به تماماً، على العكس من السياسيين، الذين عرفناهم في عصرنا الحاضر، وعلى مَرَّ العصور، الذين لا يتورعون عن إغداق الوعود المعسولة على الناس، (٢) حتى إذا وصلوا إلى غايتهم وجلسوا على كرسى الزعماء، فإنهم ينسون كل ما قالوه وما وعدوا به.

ولكن نبي الإسلام (ص) رغم أنه كان بأمس الحاجة (٣) إلى من يمدّ له يد العون، لا سيّما من قبيلة كبيرة تملك من العدد والعدة ما يمكنها من حمايته، والرد عنه،

١- راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٦٦، والثقات لابن حبان، ج ١، ص ٩١ ٨٩، وبهجة المحافل، ج ١، ص ١٢٨، و حياة محمد لهيكل، ص ١٥٢، و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ١٤٧، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٣، و الروض الأنف، ج ١، ص ١٨٠، و البدايه و النهاية، ج ٣، ص ١٣٩ و ١٤٠

٢- اغدق المطر: كثر قطره. إغداد الوعود المعسولة على الناس: أي كثرة المواعيد التي يزعم الناس أنها صادقة

٣- مسّت الحاجة إلى كذا: أي ألجأت إليه.

ص: ١٣٧

إلا أنّه يرفض أن يَعدّ بما لا يملك الوفاء به، حتّى ولو كان هذا الوعد يجر عليه الرّبح الكثير فعلاً.
ب. إنّ جواب النّبيّ (ص) لهم بقوله: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» يؤيّد ما يذهب إليه أهل البيت (ع) و شيعتهم الأبرار من أن خلافة النّبوة ليست من المناصب الّتي يرجع البتّ فيها إلى النّاس، بل هي منصب إلهي، و الأمر لله فيها، يضعه حيث يشاء.

٢. الدّين و السّياسة

و قد لاحظ بعض المحقّقين هنا أنّ هذا العربي من بنى عامر لما أخبروه بما يدعوا إليه النّبيّ (ص)، قد أدرك أنّ هذا الدّين ليس مجرد ترهّب في الصّوامع و صلاة و دعاء و أوراد و أذكار؛ بل هو دين يشتمل على التّدبير و السّياسة و الحكم، و لأجل هذا قال: «لو أنّي أخذت هذا الفتى (يعني محمّداً بماله من الدّعوة الشّاملة) لأكلت به العرب»؛ و اشترطوا على النّبيّ (ص) أن يكون لهم الأمر من بعده، فرفض (ص) طلبهم.

فما أبعد ما بين فهم هؤلاء للإسلام و إدعوه القرآن حتّى إنّ هذا الفهم هو الّذي مهّد لإسلام الأنصار، ثمّ الهجرة، و كذلك لبيعته (بيعه العقبة الأولى و الثّانية) و اختيار الثّقباء و الكفلاء على المبايعين و بين ذلك الّذين يعتبر الدّين منفصلاً عن السّياسة، و أنّ السّياسة أمر غريب من الدّين، فإنّ ذلك و لا شكّ من إلقاءات الإستعمار و من الفكر المسيحي الغريب المستورد، كما هو ظاهر.

٣. نتائج عرضه (ص) دعوّته على القبائل

و يمكننا أن نستفيد ممّا تقدم:

أ. ما تقدّمت الإشارة إليه، من أنّ مقابلة النّبيّ الأَظيم (ص) للنّاس و التّحدّث معهم مباشرة، كان من شأنه أن يعطى النّاس الانطباع الحقيقي عن شخصيّة الرّسول الأكرم (ص) و حقيقة ما جاء به، و يدفع كلّ الدّعايات و الإشاعات الكاذبة و

ص: ١٣٨

المغرضه، التي كانت تبثها قريش و أعوانها، ككونه ساحراً، أو كاهناً، أو شاعراً، أو مجنوناً، أو غير ذلك من ترهات. (١) ب. إن ما جرى في قضيه بنى عامر ليدل دلاله واضحه على أن عرضه (ص) دعوته على القبائل. قد أسهم في الدعايه لهذا الدين، و نشر صيته في مختلف الأنحاء و الأرجاء؛ فقد كان من الطبعي أن يتحدث الناس إذا رجعوا إلى بلادهم بما رأوه و سمعوه في سفرهم ذاك، و لم يكن ثمة خبر أكثر إثارة لهم من خبر ظهور هذا الدين الجديد، و في مكه بالذات.

دخول الإسلام إلى المدينة

إشاره

و ثمة خلاف بين المؤرخين في من؟ و متى؟ و كيفيه إسلام أول دفعه من أهل المدينة. و لكننا نستطيع أن نؤكد على أن الإسلام قد دخل المدينة على مراحل؛ فأسلم أولاً؛ أسعد بن زراره و ذكوان بن عبد القيس، حينما كان المسلمون محصورين في الشعب؛ ثم أسلم خمسة، أو ثمانية، أو ستة نفر بعد ذلك؛ ثم كانت بيعه العقبه الأولى؛ ثم كانت بيعه العقبه الثانيه. و هذا هو ما يظهر من مغلطاي و غيره. (٢) فهم يقولون: إن أسعد بن زراره و ذكوان بن عبد القيس الخزرجيين قد ما مكه في أحد المواسم، حينما كانت قريش تحاصر الهاشميين في الشعب، بهدف طلب الحلف من عتبه بن ربيعه على الأوس. فرفض عتبه ذلك و قال: بعدت دارنا عن داركم، و لنا شغل لا نتفرغ لشيء. فاستله عن هذا الشغل؛ فأخبره بخروج النبي (ص) فيهم و أنه أفسد شبابهم، و فرق

١- الترهات: الطرق الصغار تتشعب عن الجادة، واحدها ترهه، فارسي معرب، ثم استعير للباطل

٢- راجع: سيرة مغلطاي، ص ٢٩.

ص: ١٣٩

جماعتهم؛ ثم حذره من الاتصال به، فإنه ساحرٌ يسحره بكلامه.

و أمره إذا أراد الطواف أن يضع القطن في أذنيه، حتى لا يسمع ما يقوله النبي (ص)، الذي كان آتئذٍ يجلس في الحجر مع طائفه من بني هاشم.

و كانوا قد خرجوا من شعبهم ليشهدوا الموسم.

و جاء أسعد للطواف، و رأى النبي (ص) جالساً في الحجر، فقال في نفسه: ما أجد أجهل مني، أن يكون هذا الحديث في مكه فلا أتعرّفه، حتى أرجع إلى قومي، فأخبرهم. ثم أخذ القطن من أذنيه، فرمى به، و جاء إلى النبي (ص)، فسلم عليه و كلمه، فعرض عليه (ص) ما جاء به، فأسلم و أسلم بعده ذكوان.

ثم في سنة إحدى عشرة من النبوة خرج النبي (ص) في الموسم، يعرض على القبائل دعوته، و يطلب منهم نصرته؛ فالتقى على العقبة برهط من الخزرج؛ فدعاهم إلى الله و الإسلام، و قرأ عليهم القرآن؛ فآمنوا به، و كانوا ستّة نفروهم: أسعد بن زرارة، و جابر بن عبد الله بن رئاب، و عوف بن حارث، و رافع بن مالك، و عقيب و قطبة ابنا عامر. (١) و رجع أولئك النفر إلى قومهم في المدينة، فذكروا لهم رسول الله (ص) و دعوهم إلى الاسلام.

ثم كانت بيعة العقبة الأولى في سنة اثنتي عشرة من البعثة، أي قبل الهجرة بسنة. (٢) و نحن قبل أن نمضي في الحديث نشير إلى مايلي:

١. إخبارات أهل الكتاب

إن أهل المدينة، كانوا يسمعون من اليهود خبر ظهور النبي (ص) عن قريب، و

١- و قيل ثمانية نفر، و قيل غير ذلك، و ثم اختلاف في أسمائهم و ذكر أشخاص آخرون مكان بعض من قدّمنا أسماءهم. و لعل أسعد بن زرارة كان قد كتم إسلامه هو و ذكوان، حتى كان لقاء هؤلاء الستّة، أو الثمانية معه (ص) قبل الهجرة بسنة فأعلنوا ذلك

٢- راجع: البحار، ج ١٩، ص ٩، و إعلام الوري، ص ٥٧ عن علي بن ابراهيم.

ص: ١٤٠

إِنَّ ذَلِكَ قَدْ جَعَلَهُمْ مَهَيِّتِينَ نَفْسِيًّا بَقْبُولِ الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ هَذَا النَّبِيُّ (ص)؛ فَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ لَمَّا التَقَى النَّبِيُّ (ص) بِأَسْعَدَ وَ ذَكْوَانَ، قَالَ أَسْعَدُ لِلنَّبِيِّ (ص):

وَاللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ مِنَ الْيَهُودِ خَبْرَكَ وَ يَبْشُرُونَا بِمُخْرَجِكَ، وَ يَخْبِرُونَا بِصِفَتِكَ، وَ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ دَارُنَا دَارَ هَجْرَتِكَ عِنْدَنَا؛ فَقَدْ أَعْلَمَنَا الْيَهُودُ ذَلِكَ.

ثُمَّ أَقْبَلَ ذَكْوَانَ، فَقَالَ لَهُ أَسْعَدُ، هَذَا رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي كَانَتْ الْيَهُودُ تَبْشُرُنَا بِهِ، وَ تَخْبِرُنَا بِصِفَتِهِ، فَهَلَمْ فَأَسْلَمَ، فَأَسْلَمَ ذَكْوَانُ. (١)

٢. المشاكل بين الأوس و الخزرج

لَقَدْ كَانَتْ ثَمَرَةُ حُرُوبِ هَائِلَةٍ بَيْنَ الْأَوْسِ وَ الْخَزْرَجِ، كَانَتْ آخِرُهَا وَقْعَةُ بُعَاثَ الَّتِي انْتَصَرَتْ فِيهَا قَبِيلَةُ الْأَوْسِ، حِينَمَا كَانَ الْهَاشِمِيُّونَ وَ النَّبِيُّ (ص) مُحْصُورِينَ فِي الشَّعْبِ.

لَقَدْ كَانَ وَاضِحًا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَطَلَّعُونَ بِشَوْقٍ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ الْمَأْسَاءِ، وَ يَأْمَلُونَ فِي وَصْلِ الْحِبَالِ الْمَقْطُوعَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، كَمَا عَبَّرَ عَنْهُ أَسْعَدُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ مِنْ أَجْلِ عَقْدِ حِلْفٍ مَعَ عَتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ضِدَّ الْأَوْسِ حِينَمَا التَقَى هُوَ وَ ذَكْوَانُ بِالنَّبِيِّ (ص):

يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَ أُمِّي، أَنَا مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ، مِنَ الْخَزْرَجِ، وَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ أَخَوَتِنَا مِنَ الْأَوْسِ حِبَالٌ مَقْطُوعَةٌ، فَإِنْ وَصَلَهَا اللَّهُ بَكَ، وَ لَا أَجِدُ أَعَزَّ مِنْكَ، وَ مَعِيَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِي، فَإِنْ دَخَلَ فِي هَذَا الْأَمْرِ رَجُوتُ أَنْ يَتِمَّ اللَّهُ لَنَا أَمْرُنَا فَيْكَ. (٢)

٣. تعاليم الشريعة السمحاء

إِنَّ تَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ لَهِيَ التَّعَالِيمُ الْمُوَافِقَةُ لِلْفِطْرَةِ السَّالِمَةِ، وَ بِلَا تَعْقِيدٍ، أَوْ إِبْهَامٍ فِيهَا؛ فَهِيَ بَسِيطَةٌ وَ سَهْلَةٌ، لَا يَحْتَاجُ إِدْرَاكَ حَقَائِقِهَا إِلَى تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ، أَوْ إِجْهَادٍ

١- نفس المصدرين

٢- المصدر المتقدم.

ص: ١٤١

فى فهم مراميهها و التكهّن بنتائجها.

و لذلك نجد أهل المدينة يدركون بسرعة قدرة هذه الدعوة على حل مشاكلهم، فيسارعون إلى قبولها بمجرد سماعهم لأهدافها و مبادئها.

و من الواضح أن أهل المدينة كانوا لا يعانون من ظروف أهل مكة، الذين يحاربون الإسلام؛ لأنهم يروا فيه خطراً على مصالحهم الشخصية، و امتيازاتهم الظالمة التي فرضوها لأنفسهم و أهوائهم و انحرافاتهم.

٤. المدينون و المكيون

إن الوثنية التي كان أهل المدينة يدينون بها لم تستطع أن تحل مشاكلهم الداخلية، على اختلافها، و لا حتى أن تخفف من حدتها؛ كما أنها لم تكن تجلب لهم امتيازات اجتماعية و لا اقتصادية و لا غيرها؛ و لذلك فقد ضعفت و وهنت، و زاد في ضعفها و وهنها مخالفتها للفطرة السليمة و العقل القويم. ثم جاءت إخبارات اليهود لهم بقرب ظهور نبي يخبر عن الله لتزيد من ذلك الضعف و الوهن إلى حد بعيد.

و هذا تماماً على عكس الحال فى مشركى مكة؛ فإنهم كانوا يستفيدون من وثنتهم اجتماعياً و اقتصادياً و جعلوا من أنفسهم محوراً تلتقى عليه سائر الفئات و القبائل فى المنطقة، و كرسوا لأنفسهم الكثير من الامتيازات الظالمة، و لم يكونوا على استعداد للتخلي عن هذه الامتيازات من أجل خدمة الحق و الإنسان، بل كانوا يضحون بالإنسان و الحق فى سبيل امتيازاتهم و انحرافاتهم و مصالحهم تلك.

كل ذلك و سواه قد أسهم فى إقبال أهل المدينة على الإسلام، و تقبل دعوته و التضحية فى سبيله.

ص: ١٤٣

الفصل السابع بيعه العقبه

اشاره

ص: ١٤٥

بيعة العقبة الأولى

يقول المؤرخون: إنه حينما عاد أولئك النفر المدنيون الذين أسلموا، إلى المدينة ذكروا لأهلها رسول الله (ص) و دعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم يبق دأراً من دور الأنصار إلّا وفيها ذكر من رسول الله (ص).

حتى إذا كان العام المقبل (أى السنة الثانية عشرة من البعثة) وأفى الموسم اثنا عشر رجلاً؛ اثنان منهم أوسيان و الباقون من الخزرج؛ فالتقوا مع الرسول (ص) فى العقبة، و بايعوه على بيعه النساء (١) و لما رجعوا إلى المدينة أرسل النبى (ص) معهم (مُصعب بن عمير) ليقراء هم القرآن، و يعلمهم الإسلام، و يفقههم فى الدين، فكان يسمى المُقرى.

و قد نجح مُصعب و من معه ممّن أسلم فى الدعوة إلى الله تعالى و أسلم سعد بن معاذ، الذى كان السبب فى إسلام قومه بنى عمير بن عبد الأشهل.

و أقام مصعب بن عمير يدعوا الناس إلى الإسلام، حتى أسلم الرجال و النساء من الأنصار باستثناء جماعة من الأوس، اتبعوا فى ذلك أحد زعمائهم، الذى تأخر

١- أى البيعة التى لا تشتمل على حرب، أى: «على أن لا يشركوا بالله شيئاً، و لا يسرقون، و لا يزنون، و لا يقتلون أولادهم، و لا يأتون ببهتان يفترونه من بين أيديهم و أرجلهم، و لا- يعصونه فى معروف؛ فإن وفوا فلهم الجنة و إن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عزّوجلّ، إن شاء عذب و إن شاء غفر». و وجه تسمية هذه البيعة ببيعة النساء، هو أن النساء المؤمنات بايعن رسول الله (ص) بهذه البيعة فى الحديث كما أشار إليه فى آية ١٢ من سورة الممتحنة.

ص: ١٤٦

إسلامه إلى ما بعد هجرة الرسول الأعظم. (ص). (١)

مِيزَات البيعة

و نجد أن نص البيعة قد تضمن الخطوط العريضة، وأهم المبادئ التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، وهي تتضمن جانباً عقائدياً، وآخر عملياً، وقد حملهم (ص) مسئوليات معينة في علاقاتهم مع بعضهم بعضاً؛ وجعل التزامهم هذا قائماً على إعطاء تعهد من قبلهم، يرون مخالفته تتنافى مع شرف الكلمة وقد سيتها؛ وذلك تحت عنوان «البيعة» التي تعني إعطاء كلمة الشرف بالالتزام بتلك المبادئ، ولكنه لم يقرر عقاباً عنيفاً لمن ينقض هذا العهد ويتجاوز ويغش فيه؛ فإن الوقت حينئذ لم يكن مناسباً لقرار كهذا. بل أو كل ذلك إلى الوجدان والضّمير الشخصى لكل منهم، مع ربطه بالمبدأ العقيدى، ومع إعطاء الفرصة له للعودة لإصلاح الخطأ إن كان؛ حيث أبقى الأمل حياً لدى ذلك الذى يمكن أن يغش وأوكل أمره إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر.

بيعة العقبة الثانية

و عاد مُصعب بن عمير من المدينة إلى مكة، فعرض على النبى (ص) نتائج عمله، فسرّ بذلك نبى الإسلام سروراً عظيماً. (٢) و فى موسم حج السنّة الثالثة عشرة من البعثة أتى من أهل المدينة جماعة

١- السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ١٨٤ و راجع: تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٩٠، والسيرة لابن هشام، ج ٢، ص ٨٠ ٧٩، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٤

٢- و فى البحار، ج ١٩، ص ١٢: أن مصعباً قد كتب إلى النبى (ص) بذلك و كذا فى إعلام الورى، ص ٥٩.

ص: ١٤٧

كبير بقصد الحج، ربما تقدّر عدّتهم بخمس مئة؛^(١) فيهم المشركون، وفيهم المسلمون، المستخفّون من حُجاج المشركين من قومهم تقيّة منهم.

والتقى بعض مسلميهم بالرّسول (ص) ووعدهم اللقاء في العقبة في أواسط أيام التشريق ليلاً، وأمرهم أن لا يتبّهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً.^(٢) وفي تلك الليلة بالذّات ناموا مع قومهم في رحالهم؛ حتّى إذا مضى ثلث الليل، بدؤوا يتسلّلون^(٣) إلى مكان الموعد، واحداً بعد الآخر، ولا يشعر بهم أحد، حتّى اجتمعوا في الشّعب عند العقبة وهم سبعون، أو ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان. والتقوا بالرّسول (ص) هناك في الدّار الّتي كان (ص) نازلاً فيها وهي دار عبدالمطلب، وكان معه حمزة وعليّ والعبّاس.^(٤) وبايعوه على أن يمنعوه وأهلهم ممّا يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وأولادهم، وأن يؤوؤوهم وينصروهم، وعلى السّمع والطّاعة في النّشاط والكسل، والنّفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأن يقولوا في الله، ولا يخافوا لومة لائم، وتدين لهم العجم، ويكونون ملوكاً.^(٥)

١- طبقات ابن سعد، ج ١، قسم ١، ص ١٤٩

٢- ويلاحظ هنا: مالهذا التوقيت من أهميّة، فلو انكشف أمرهم، فسيكون ذلك بعد تمام حجّهم ومفارقتهم للبلد، ولا يبقى من ثمّ مجال للضغط عليهم بشكل فعّال.

و يلاحظ كذلك: أمره (ص) لهم بأن لا- ينبّهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً، وذلك كي لا ينكشف أمرهم إذا لاحظ غيرهم عدم طبيعته تصرّفاتهم

٣- تسلّل من الرّحام: انطلق في استخفاء

٤- إعلام الوري، ص ٥٩، و تفسير القمي، ج ١، ص ٢٧٣، والبحار، ج ١٩، ص ١٣ ١٢ و ٤٥ عن قصص الأنبياء، و راجع: السيرة الحليّة، ج ٢، ص ١٦، و السيرة النبويّة لدحلان، ج ١، ص ١٥٢. مع الشك في هذا الأخير كما سنشير آنفاً

٥- و يروي المالک (في الموطأ، المطبوع مع تنوير الحوالک، ج ٢، ص ٤) عن عبادة بن الصّامت: «بايعنا رسول الله (ص) على السّمع والطّاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول أو نقوم بالحقّ حيثما كنّا، لا نخاف في الله لومة لائم».

ص: ١٤٨

وقد أدرك العباس بن نضلة خطورة الموقف، ولا سيما من قوله (ص): «و تدين لكم العجم و تكونون ملوكاً» و أنهم مقدمون على مواجهته و مقاومة، ليس فقط مشركى مكّة، أو الجزيرة العربيّة، و إنّما العالم بأسره؛ فأحبّ أن يستوثق من الأمر و يفتح عيون المبايعين ليكونوا على بصيرة من أمرهم، حتّى لا يقولوا فى يوم ما: لو كنّا نعلم أن الأمر ينتهى إلى هذا لم نقدم.

فقال لهم: يا معشر الأوس و الخزرج، تعلمون على ما تقدّمون عليه؟ إنّما تقدّمون على حرب الأحمر و الأبيض و على حرب ملوك الدّنيا؛ فإن علمتم أنّه إذا أصابتكم المصيبة فى أنفسكم خذلتموه و تركتموه، فلا تغزوه؛ فإنّ رسول الله و إن كان قومه خالفوه فهو فى عزّ و منعة.

فقال عبدالله بن جزام والد جابر و أسعد بن زرارّة و أبو الهيثم بن التّيهان: مالّك و للكلام؟ يا رسول الله! بل دَمْنَا بدمك و أنفسنا بنفسك، فاشترط لنفسك و لرّبك ما شئت. (١) و يذكر المؤرّخون: أنّ العباس بن عبدالمطلب قد حضر بيعه العقبة، و أنّه أراد أن يستوثق لابن أخيه، فبدأ بالكلام و قال:

يا معشر الخزرج! إنّ محمّداً منّا حيث قد علمتم، و قد منعناه من قومنا، ممّن هو على مثل رأينا، فهو فى عزّ من قومه و منعة فى بلده؛ و قد أبى إلّا الانحياز إليكم (٢) و اللّحق بكم؛ فإن كنتم ترون أنّكم وافون بما دعوتموه إليه، و ما نعوه ممّن خالفه، فأنتم و ما تحمّلتُم من ذلك؛ و إن كنتم ترون أنّكم مسلموه و خاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنّه فى عزّ و منعة من قومه و بلده. (٣)

١- راجع: البحار، ج ١٩، ص ١٢ و ١٣ عن إعلام الورى و راجع: دلائل النبوة للبيهقى، ج ٢، ص ٤٥٠ (ط. دار الكتب العلميّة) و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣١٨، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٨٨ و البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٦، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ٢٠١

٢- انحاز إليه: مال

٣- إنّ ما نسب إلى العباس بن عبدالمطلب فى هذا الموقف، لا يصدر إلّا عن مسلم مؤمن تامّ الإيمان؛ مع أنّه بقى على شركه إلى وقعه بدر و خرج لحرب النّبى (ص) فيها مكرهاً و أسلم. والذى نرجّحه: هو أنّ الذى كان حاضراً فى بيعه العقبة و تكلم بكلام يهدف منه إلى شدّ العقدة له (ص) هو العباس بن نضلة الأنصارى (راجع: الإصابة، ج ٢، ص ٢٧١، و البحار، ج ١٩، ص ١٢، و السيرة الحليّة، ج ٢، ص ١٧، و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ١٥٣) و ليس العباس بن عبدالمطلب؛ و لذا يلاحظ مدى التّشابه بين كلاميهما المنقول و المنسوب إليهما؛ فعلى الأمر قد اشتبه على الرّاوى بين العباسين، لتشابه الإسمين؛ أو لعلّ العباسيين أرادوا إثبات فضيلة جليله لجدهم بهدف الحصول على مكاسب من نوع معيّن؛ و لعلّ، و لعلّ.

ص: ١٤٩

و بعد أن استمع إلى إجابتهم طلب (ص) منهم: أن يخرجوا له اثني عشر نقيباً؛ (١) فأخرجوا له تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس، فكانوا نقباء و كفلاء قومهم. و عرفت قريش بالاجتماع، فهاجت، و أقبلوا بالسِّلاح، و سمع الرسول (ص) النداء، فأمر الأنصار بالتفرق، فقالوا: يا رسول الله، إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيافنا، فعلنا. فقال (ص): لم أؤمر بذلك، و لم يأذن الله لي في محاربتهم؛ فقالوا: يا رسول الله، فتخرج معنا؟ قال: أنتظر أمر الله.

فجاءت قريش على بكرة أبيها، قد حملوا السِّلاح، و خرج حمزة، و معه السيف، هو و علي بن أبي طالب (ع). فلما نظروا إلى حمزة قالوا: ما هذا الذي اجتمعتم له؟

فعمل حمزة بالتقية من أجل الحفاظ على النبي (ص) و المسلمين و الإسلام، فقال: ما اجتمعنا، و ما ههنا أحد، والله لا يجوز أحد هذه العقبة إلّا ضربته بسيفي، فرجعوا.

ولكن قريشاً قد تأكدت بعد ذلك من صحّة الخبر؛ فخرجت في طلب الأنصار، فأدركوا سعد بن عباد و المنذر بن عمير؛ فأما المنذر فأعجزهم، و أما سعد، فأخذه و عذّبوه. فبلغ خبره جبير بن مطعم و الحارث بن حرب بن أمية، فأتياه و خلّصاه؛ لأنّه كان يجير لهما تجارتهما، و يمنع الناس من التعدّي عليهما. (٢)

١- أي كفيلاً يكفل قومه

٢- راجع: البحار، ج ١٩، ص ١٣ ١٢، و إعلام الوري، ص ٥٧، و تفسير القمي، ج ١، ص ٢٧٢ و ٢٧٣، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣١٩ ٣١٨، و دلائل النبوة للبيهقي (ط. دار الكتب العلمية) ج ٢، ص ٤٥٠ و غير ذلك من الكتب التاريخية و الحديثية.

ص: ١٥٠

و كانت بيعَةُ العقبةِ الثانيةِ قبلَ هجرةِ الرسولِ (ص) إلى المدينةِ بثلاثةِ أشهرٍ. (١)

لماذا النِّقاء؟!

إنَّ من طبيعَةِ العربيِّ الالتزامَ بالعهدِ، و الوفاءَ بالذِّمارِ، و تعتبرُ كلَّ قبيلةٍ: أنَّها مسؤولَةٌ عن الوفاءِ بما يلتزم به أحدُ أفرادها، أو حلفائها عليها.

و عندما بايعَ الأنصارُ النَّبِيَّ (ص) على الإيمانِ والنَّصرةِ، أرادَ أن يُلزِمهم ذلكَ بشكلٍ مُحدَّدٍ، بحيثَ يستطيعُ أن يجدَ في المستقبلِ مَنْ يطالبه بالوفاءِ بالالتزاماتِ و العهدِ، و كان أولئكُ النَّقاءِ هم الذين يتحمَّلون مسؤوليَّةَ الوفاءِ بتلكِ الالتزاماتِ؛ و هم الذين يمكنُ مطالبتهم بذلك؛ لأنَّهم هم الكفلاءُ لقومهم، برضىِ منهم و من قومهم على حدِّ سواء.

أمَّا إذا تركَ الأمورُ في مجاريها العامَّةِ، فلربَّما يمكنُ لكلِّ فردٍ أن يتملَّصَ (٢) و يتخلَّصَ من التزاماته، و يلقى التَّبعةَ على غيره و يعتبرُ أنَّ ذلكَ غيرَ مطلوبٍ منه، و لا يمكنُ بحسبِ تصوُّره أن يكونَ هو كفردٍ مسؤولًا عنه؛ و أمَّا بعدُ أن التزمَ ذلكَ أفرادٌ معيَّنون، كلُّ واحدٍ منهم من قبيلةٍ، فإنَّ المسؤوليَّةَ قد أصبحتُ مُحدَّدةً، و يمكنُ مطالبتهم بالوفاءِ بالتزاماتهم، كلِّما دعت الحاجةُ إلى ذلكِ، لا سيَّما في مواقف الحربِ و الدِّفاعِ.

١- كذا في الأصلِ و هو موافقٌ لما ذكره الحاكمُ من أنَّ خروجه (ص) من مكَّةَ كان بعدَ بيعَةِ العقبةِ بثلاثةِ أشهرٍ أو قريباً منها، و لكنَّ يجزمُ بعضُ الرِّوَاةِ و منهم ابنُ إسحاقَ أنَّه خرجَ أوَّلَ يومٍ من ربيعِ الأوَّلِ و أنَّه قدمَ المدينةَ لاثنتي عشرةَ خلتَ من ربيعِ الأوَّلِ، أى بعدَ بيعَةِ العقبةِ بشهرينِ و بضعةَ عشرَ يوماً

٢- تملَّصَ منه: تخلَّصَ.

ص: ١٥١

الفصل الثامن هجرة المسلمين الى المدينة

اشاره

ص: ١٥٣

ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة

يقول المؤرخون: إنه بعد أن عقد النبي (ص) بيعه العقبة الأولى على الظاهر مع أهل المدينة و لم يقدر أصحابه أن يقيموا بمكة بسبب إيذاء المشركين، رخص لهم بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا أرسالاً،^(١) وبقى (ص) بمكة ينتظر أن يؤذن له. و جدير بالتسجيل هنا أن نشير إلى دوافع الهجرة من مكة إلى المدينة بمايلي:

أولاً: إن مكة لم تعد أرضاً صالحة للدعوة، فقد حصل النبي (ص) منها على أقصى ما يمكن الحصول عليه، و لم يبق بعد أى عمل فى دخول فئات جديدة فى الدين الجديد، فى المستقبل القريب على الأقل، و قد كان ثمة مبرر لتحمل الأذى و المصاعب، حينما كان يؤمل أن تدخل فى الإسلام جماعات تقويه و تشد من أزره.

أما بعد أن أعطت مكة كل مآلديها، فأخرجت جماعات من شبان المؤمنين و من المستضعفين، و لم يبق فيها إلّا ما يوجب الصدّ عن سبيل الله، فإنّ البقاء فى مكة ليس فقط لا مبرر له، بل هو خيانة للدعوة الإسلامية و مساعدة على حربها و القضاء عليها، و لا سيما بعد أن جندت^(٢) قريش كل طاقاتها للصدّ عن سبيل الله و إطفاء نوره، و يأبى الله إلّا أن يتمّ نوره و لو كره المشركون.

نعم، لقد كان لابدّ من الانتقال إلى مركز آخر تضمّن الدعوة فيه لنفسها حرّية

١- خرجوا أرسالاً: أى قطائع و أفواجاً

٢- جند الجنود: جمّعها.

ص: ١٥٤

الحركة في القول والعمل بإطمئنان خاطر، بعيداً عن ضغوط (١) المشركين و في منأى عن مناطق سيطرتهم و نفوذهم. ولقد رأينا أنهم كانوا يلاحقون تحركات النبي (ص) و يرصدونها بدقه، و يتهددون، بل و يعدّون كل من يدخل في هذا الدين الجديد، و يخيفون كل من يحتمل دخولهم فيه.

ثانياً؛ إن الإسلام و ممثله و داعيته الرسول الأعظم (ص) لا يمكن له أن يقتنع بهذا النصيب المحدود من التقدّم؛ لأنّ دينه دين البشريّة جمعاء: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ» (٢).

و ما حصل عليه حتّى الآن لا يمكنه من تطبيق تشريعات الإسلام كافّة، و تحقيق كامل أهدافه، و لا سيّما بالنسبة إلى ذلك الجانب، الذي يعالج مشاكل الناس الاجتماعيّة و غيرها ممّا يحتاج إلى القوّة و المنع في مجال فرض القانون و النظام.

ثالثاً؛ و لقد صمد أولئك الذين أسلموا سنوات طويلة في مواجهة التعذيب و الظلم و الاضطهاد، حتّى لقد فرّ قسم منهم بدينه إلى بلاد الغرب، و بقي الباقون يواجهون محاولات فتنهم عن دينهم بمختلف وسائل القهر تارةً و بأساليب متنوّعة من الإغراء أخرى.

و إذا استثنينا أشخاصاً معدودين، كحمزة، أسد الله و أسد رسوله، و بعض من كانت لهم عشائر تمنعهم (٣)، فإنّ بقيّة المسلمين كانوا غالباً من ضعفاء الناس، الذين لا يستطيعون حيلةً، و لا يجدون سبيلاً إلّا الصبر و تحمّل الأذى.

١- الضّغط: الضّيق و الإكراه و الشّدّة

٢- سبأ: ٢٨

٣- و حتّى هؤلاء فإنّهم لم يسلموا من الاضطهاد النفسى و المقت الاجتماعي المرّ، و لربّما يكون ذلك بالنسبة لبعضهم أشدّ من التعذيب الجسدى، تبعاً لنسبة الوعي و الشّعور المرهف الذي كان يمتاز به بعضهم على غيره.

ص: ١٥٥

و إذا فرض عليهم أن يستمرّوا في مواجهة هذه الآلام والمشاق، دو نما أملٍ أو رجاءٍ، فمهما كانت قناعتهم بهذا الدين قويّة و راسخة؛ فإنّ من الطّبيعي و الحالة هذه أن يتطرّق اليأس إلى نفوسهم، ثمّ الهروب و الملل من حياة كهذه.

رابعاً؛ لقد رأّت قريش أخيراً أنّها قد اهتمت للطريقة التي تستطيع بواسطتها أن تقتل النّبيّ (ص) دون أن تكون مسؤولاً أمام الهاشميين بشكل مُحدّد، أو بالأحرى، دون أن يستطيع الهاشميون أن يطالبوا بدم النّبيّ (ص) و ذلك بأن يقتله عشرة، كلّ واحد منهم من قبيلة، فيضيع دمه في القبائل، و لا يستطيع الهاشميون مقاومتها جميعاً، لأنّهم إمّا أن يقاتل القبائل كلّها، و تكون الدائرة عليهم، و إمّا يقبلوا بالديّة، و هو الأرجح.

و إذا قُتل النّبيّ (ص) فإنّ القضاء على غيره من أتباعه يكون أسهل و أيسر؛ بل و حتّى لو تركوهم على ما هم عليه، فإنّ أمرهم لسوف يصير إلى التلاشي و الاضمحلال. و بعد كلّ ما تقدم يتّضح: أنّه كان لابدّ للنّبيّ الأعظم (ص) و لمن معه من المسلمين من الخروج من مكّة إلى مكان آمن و سلام، لا يشعرون فيه بأيّ ضغط، يملكون فيه حرّيّة الحركة و حرّيّة التخطيط لبناء مجتمع إسلامي يكون فيه النّبيّ (ص) قادراً على القيام بنشر دعوته و إبلاغ رسالته على النّحو الأفضل و الأكمل.

سر اختيار المدينة

و أمّا عن سرّ اختيار النّبيّ (ص) للمدينة بالذات داراً لهجرته، و منطلقاً لدعوته دون غيرها كالحبشة مثلاً فذلك يرجع إلى عدّة عوامل، نذكر منها مايلي:

١. إنّ مكّة كانت تتمتع بمكانة خاصّة في نفوس النّاس و بدون السّيطرة عليها و القضاء على نفوذها الوثني، و استبداله بالنّفوذ الإسلامي، فإنّ الدعوة كانت بحاجة إلى مكّة بنفس القدر الذي كانت مكّة بحاجة فيه إلى الدّعوة.

ص: ١٥٦

فلا بدّ من اختيار مكان قريب منها، يمكن أن يمارس منه عليها رقابة و نوعاً من الضّغط السّياسى والاقتصادى، و حتّى العسكرى، إن لزم الأمر فى الوقت المناسب، حينما لا بدّ له من أن يفرض سلطته عليها.

و المدينة، هى ذلك الموقع الذى تتوفّر فيه مقومات هذا الضّغط، فهى تستطيع مضايقة مكّة اقتصادياً، لوقوعها على طريق القوافل التّجاريّة المكيّة، و قریش تعيش على التّجارة بالدرجة الأولى.

كما أنّ ذلك يهيّئ للنّبي (ص) الفرصة لعرض دعوته على القوافل التى تتّجه من بلاد الشّام و الأردن و فلسطين و غيرها إلى مكّة، و التّمهيد لإفشال كثير من الدّعايات التى يمكن للمكيين أن يطلقوها ضدّ الإسلام و أهله.

٢. إنّ الهجرة إلى المدينة هى الحلّ المفروض، الذى لا خيار معه؛ و ذلك لأنّ الهجرة إلى الطّائف لم تكن بالتّى تجدى نفعاً، بعد أن رأينا: أنّ أهلها رفضوا الاستجابة إلى النّبي (ص) حينما هاجر إليهم.

و أمّا اليمن، و فارس، و الرّوم، و بلاد الشّام و غيرها، فقد كانت خاضعة لسلطة الدّولتين العظيمتين، اللّتين لن يكون نصيب الرّسول والرّسالة منهما سوى المتاعب و الأخطار الجسيمة، و لسوف نرى أنّ كسرى قد حاول أن يقوم بعملية خطيرة تجاه الرّسول و رسالته حينما أرسل إليه (ص) يدعوه إلى الإسلام.

و أمّا الحبشة فهى بحكم موقعها الجغرافى مفصولة عن مكّة؛ كما أنّها بحكم واقعها الاجتماعى، و السّياسى، و البشرى، و العنصرى، و بحكم كونها بلداً أفريقيّاً، فإنّها ليست بلداً قادراً على أن يقود عملية التّغيير العالميّة الشّاملة، لا اقتصادياً، و لا سياسياً، و لا عسكريّاً، و لا حتّى فكريّاً و اجتماعياً.

٣. إنّ أهل المدينة أنفسهم قد طلبوا ذلك من النّبي (ص) و بايعوه بيعه العقبة، و وعدوه النّصر؛ و النّبي (ص) إنّما يتصرّف وفق الإرادة الإلهيّة التى لا تغيب عنها تلك المصالح و سواها؛ فالله هو الذى يرعاه و يسدّده.

و هكذا يتّضح: أنّه ليس ثمة إلّا المدينة، و المدينة فقط، موقعاً مناسباً للهجرة، فكانت الهجرة إليها.

ص: ١٦١

القسم الثالث من الهجرة حتى الرحلة

الفصل الاول هجرة الرسول الاعظم (ص)

المؤامرة

و اجتمع اشراف قريش في دار الندوة^(١) و لم يتخلف منهم أحد من بنى عبد شمس، و نوفل، و عبد الدار، و جمح، و سهم، و أسد، و مخزوم و غيرهم، و شرطوا أن لا يدخل معهم تهاًمي؛ لأنّ هواهم كان مع محمّد (ص).^(٢) كما أنّهم قد حرصوا على أن لا يكون عليهم من الهاشميين، أو مَن يتّصل بهم عين أو رقيب.^(٣) و تذكر الروايات: أن إبليس قد دخل معهم بصفه شيخ نجدى؛^(٤) و تشاوروا فيما بينهم ما يصنعون بمحمّد؟ فذكروا الحبس في الحديد؛ فأروا أنّ من الممكن أن يتّصل بأنصاره و يطلقوا سراحه؛ و ذكروا التّفى إلى بعض البلاد؛ فأروا أنّ ذلك يمكن الرّسول من نشر دينه؛ فاستقرّ رأيهم أخيراً على اقتراح أبى جهل، أو إبليس

١- هي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضى أمراً إلّا فيها يتشاورون فيها ما يصنعون أمر رسول الله (ص) حين خافوه

٢- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٢١، و السيرة الحليّة، ج ٢، ص ٢٥، و راجع: نور الأبصار، ص ١٥

٣- راجع: المصادر السابقة

٤- تاريخ الأمم و الملوك، ج ٢، ص ٦٨، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ١٧٥، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٢٢ ٣٢١. قال السّهيلى: و إنّما قال لهم الشيخ: إنّى من أهل نجد؛ لأنّهم قالوا: لا يدخلنّ معكم فى المشاورة أحد من أهل تهامه، لأنّ هواهم مع محمّد؛ فلذلك تمثّل لهم فى صورة شيخ نجدى.

ص: ١٦٢

بأن يأخذوا من كل قبيلة شاباً جَلَدًا (١) قوياً، حسيباً في قومه، نسيباً و سيطاً، (٢) و يعطى كل منهم سيفاً صارماً، و يدخلوا على النبی (ص) بأسيا فهم، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيقتلونه و يتفرق دمه في القبائل؛ لأن بني عبد مناف لا يقدرّون على حرب قومهم جميعاً، فيضطرون إلى القبول بالذية، فيعطونهم إياها، و ينتهي الأمر. و لكنّه قد أخبر الله تعالى نبيّه بهذه المؤامرة عن طريق الوحي: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ (٣) وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٤)».

مبیت علی (ع) و هجرة النبی (ص)

إن أولئك القوم الذين انتدبتهم قريش من قبائلها العشر، أو الخمس عشرة، اجتمعوا على باب النبی (ص) و هو باب عبدالمطلب على ما في بعض الروايات (٥) - يرصدونه، يريدون بيّته، و كانوا عشرة، أو خمسة عشر رجلاً، بل أكثر على اختلاف النقل، بل قيل: إنهم كانوا مئة رجل. (٦) فأمر (ص) أمير المؤمنين، عليّاً (ع) بالمبيت على فراشه، بعد أن أخبره بمكر

١- الجَلَد: الشّدید القوى

٢- الوسيط: الشّریف فی قومه

٣- المكر الإلهی هنا: هو التّدیر السّری لإفشال عمل يعزم علیه الغير

٤- الانفال: ٣٠

٥- البحار، ج ١٩، ص ٧٣ عن الخرائج و الجرائح

٦- السيرة الحليّة، ج ٢، ص ٢٨٠، و نور الأبصار، ص ١٥.

و نحن نستبعد هذا العدد الأخير، و ذلك لمخالفته لسائر الروايات، مع أن ما ذكرته الرواية من أن عدد القبائل كان مئة قبيلة، لا نجد له ما يؤيده، و احتمال أن يكون قد خرج من كل قبيلة أكثر من واحدٍ ينافية التصريح بأن الخارجين كانوا واحداً من كل قبيلة.

ص: ١٦٣

قريش، فقال علي (ع): أو تسلم بمبيتي هناك يا نبي الله؟ قال: نعم. فتبسم علي (ع) ضاحكاً و أهوى إلى الأرض ساجداً، شكراً لله، فنام علي فراش النبي (ص)، و اشتمل ببرده الحضرمي. ثم خرج النبي في فحمة العشاء،^(١) و الرصد من قريش قد أطفأوا بداره ينتظرون، و هو يقرأ هذه الآية: «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ»^(٢).

و كان بيده قبضة من تراب فرمى بها في رؤوسهم و مرم من بينهم، فما شعروا به،^(٣) و أخذ طريقه إلى غار ثور؛^(٤) فلقى أبا بكر في الطريق، و كان أبا بكر قد خرج ليتنسم الأخبار، و ربما يكون استصحبه معه، لكي لا يسئله سائل إن كان قد رأى رسول الله (ص)، فيقر لهم بأنه رآه، ثم يدلهم على الطريق التي سلكها خوفاً من أن يتعرض لأذاهم، أو خطأ، أو لأى داع آخر.

و ذكر الزاوندی: «أنه (ص) مشى و هم لا يرونه، فرأى أبا بكر قد خرج في الليل يتجسس من خبره، و قد كان وقف على تدبير قريش من جهتهم، فأخرجه معه إلى الغار»^(٥).

١- فَحْمَةُ اللَّيْلِ: أوله، أو أشد سواده، أو ما بين غروب الشمس إلى نوم الناس، خاص بالضيف

٢- يس: ٩

٣- و لعل هذه القبضة من تراب قد أشغلتهم بأنفسهم، و صرفت قلوبهم عن التدقيق في رصد موضوع خروج النبي (ص)، لا سيما مع وجود ظلمة قوية، فإنهم كانوا في فحمة العشاء و تحتاج الرؤية فيها إلى المزيد من التتبع إلى إحداث النظر في نقطة بعينها

٤- ثور، اسم جبل بأسفل مكة على طريق الطائف و يعرف بـ «غار ثور» نسبة لثور بن عبد مناة لأنه ولد عنده (معجم البلدان، ج ٢، ص ٨٧ ٨٦)

٥- راجع: البحار، ج ١٩، ص ٧٣ عن الخرائج و الجرائح. إذا صح هذا، فيرد سؤال: كيف لم يخبر أبا بكر النبي بأمرهم؟! إلا أن يقال: إنه إنما جاء ليخبر النبي (ص) بذلك: و لكن الأهم من ذلك: كيف أطلعت قريش أبا بكر على تدبيرها مع حرصها الشديد عن التكتّم فيه، عن كل من له بالنبي أدنى صلة.

ص: ١٦٤

قالوا: وجعل المشركون يرمون علياً (ع) بالحجارة كما كانوا يرمون رسول الله (ص) وهو يتضور (١)، وقد لفّ رأسه في الثوب لا يخرج حتى أصبح، فهجموا عليه، فلمّا بصر بهم على قد انتضوا السيوف (٢) وأقبلوا عليه، يقدمهم خالد بن وليد، وثب له على (ع) فختله، (٣) و همز يده (٤)، فجعل خالد يقمص قماص البكر (٥)، ويرغوا رغاء الجمل، (٦) وأخذ من يده السيوف، وشدّ عليهم بسيف خالد، فأجفلوا أمامه إجمال النعم (٧) إلى خارج الدار، و تبصروه، فإذا على (ع).

قالوا: وإنك لعليّ؟

قال: أنا علي.

قالوا: فإنّا لم نردك؛ فما فعل صاحبك؟

قال: لا علم لي به. (٨) فكان من الطبعي أن يتراجعوا عنه، وأن يسرعوا إلى قومهم لإخبارهم بما جرى ليتدبروا الأمر قبل فوات الأوان.

قريش في طلب النبي (ص)

فَأَذَكَّتْ (٩) قريش العيون و ركبوا في طلب النبي (ص) الصّعب و الدّلّول، و اقتفوا

١- أي يتلوّى و يتقلّب

٢- انتضى السيوف: استلّه من غمده

٣- ختله: خدعه عن غفلة

٤- همزه: غمزه و ضغطه و دفعه

٥- قمص البكر: استنّ أي رفع يديه معاً و طرحهما معاً و عجن برجليه؛ والبكر: الفتى من الإبل

٦- رغا الجمل: صوّت فضجّ

٧- أجفل القوم: أسرعوا الهرب

٨- أمالي الشيخ الطوسي، ج ٢، ص ٨٣ ٨٢

٩- أذكى عليه العيون من ذكو أرسل عليه الطلائع.

ص: ١٦٥

أثره، حتى وصل القائف (١) إلى نقطة لحوق أبي بكر به، فأخبرهم أن من يطلبوه صار معه هنا رجل آخر. واستمروا يقتفون الأثر، حتى وصلوا إلى باب الغار، الذي كان مغطى بأغصان الشجرة، فصرفهم الله عنه، حيث كانت العنكبوت قد نسجت على باب الغار و باضت في مدخله حمامة وحشية، كما يذكرون؛ فاستدلوا من ذلك من أن الغار مهجور، لم يدخله أحد وإلا لتخزق النسج وتكسر البيض، ولم تستقر الحمامة الوحشية على بابه.

و أمهل أمير المؤمنين (ع) إلى الليلة القادمة، فانطلق تحت جناح الظلام، هو و هند بن أبي هالة حتى دخلا الغار على رسول الله (ص) فأمر الرسول هندا أن يبتاع له و لصاحبه بعيرين. فقال أبو بكر: قد كنت أعددت لي و لك يا نبي الله راحلتين ترتحلهما إلى يثرب. فقال: إنني لا آخذهما، ولا أحدهما إلا بالثمن. قال فهي لك بذلك. فأمر علياً (ع) فأقبضه الثمن (٢). ثم أوصاه بحفظ ذمته و أداء أماناته و كانت قريش و من يقدم مكة من العرب في الموسم يستودعون النبي (ص) و يستحفظونه أموالهم و أمتعتهم و أمره أن ينادى صارخاً بالأبطح غدوة و عشياً: «من كان له قبل محمد أمانة فليأت، فلنؤد إليه أمانته». ثم استخلفه على ابنته فاطمة (ع) و قال: إنني مستخلفك على فاطمة ابنتي و مستخلف ربي عليكما و مستحفظه فيكما.

١- القائف، الذي يتبع الآثار

٢- البحار، ج ١٩، ص ٦٢، و أمالي الطوسي، ج ٢، ص ٨٣ و راجع: وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٣٧.

إن ثمة نصياً يقول: إن أمير المؤمنين (ع) قد اشترى للنبي (ص) ثلاثاً من الإبل و استأجر الأريقط بن عبدالله، و أرسل الإبل معه إلى النبي (ص) ليلة الخروج من الغار (ترجمة الإمام علي (ع) من تاريخ ابن عساكر بتحقيق المحمودي، ج ١، ص ١٣٨) فلعله اشترى الإبل من أبي بكر و استلمها و أرسلها إلى النبي (ص) مع الأريقط.

ص: ١٦٦

و بعد أن أقام (ص) في الغار ثلاثاً، انطلق يؤم المدينة. (١)

من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله؟!

قد ورد: أن الله تعالى أوحى إلى جبرائيل وميكائيل: إني أخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيتكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة. فأوحى الله إليهما: ألا كنتما مثل علي بن أبي طالب، أخيت بينه وبين محمد (ص) فبات على فراشه يفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه. فتزلا، فكان جبرائيل عند رأسه، وميكائيل عند رجله، وجبرائيل ينادي: بخ بخ من مثلك يابن أبي طالب، يباهي الله به الملائكة. فأنزل الله عز وجل: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ» (٢) (٣).

قال الإسكافي: وقد روى المفسرون كلهم: أن الآية نزلت في علي (ع) ليلة المبيت على الفراش. (٤)

١- إمامي الطوسي، ج ٢، ص ٨١ و ٨٢، والبحار، ج ١٩، ص ٦١ و ٦٢

٢- البقرة: ٢٠٧

٣- راجع: أسد الغابة، ج ٤، ص ٢٥. والمستجد للتوخي، ص ١٠، و ثمرات الأوراق، ص ٣٠٣، و تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٠٧، و إحياء العلوم، ج ٣، ص ٢٥٨، و تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٣٩، و كفاية الطالب، ص ٢٣٩، و شواهد التنزيل، ج ١، ص ٩٥، و نور الأبصار، ص ٨٦، و الفصول المهمة لابن الصباغ، ص ٣١، و تذكرة الخواص، ص ٣٥ عن الثعلبي و

٤- راجع: شرح النهج، ج ١٣، ص ٢٦٢.

ص: ١٦٧

الفصل الثاني الى المدينة

اشاره

ص: ١٦٩

في الطريق إلى المدينة

عن أبي عبد الله (ع): إنَّ رسول الله (ص) لما خرج من الغار متوجَّهاً إلى المدينة. وقد كانت قريش جعلت لمن أخذه مئة من الإبل، خرج سراقه بن جُشَعْم (١) فيمن يطلب، فلحق رسول الله، فقال (ص): أَللَّهم اكفني سراقه بما شئت؛ فساخَت قوائم فرسه، فثنى رجله ثم اشتدَّ. فقال: يا مُحَمَّد، إِنِّي علمت أَنَّ الَّذِي أَصاب قوائم فرسى إِنما هو من قِبَلِك، فادع الله أَن يُطلق إلى فرسى، فلعمري إِن لم يصبكم خير منِّي لم يصبكم منِّي شرٌّ.

فدعا رسول الله (ص) فأطلق الله عزَّ وجلَّ فرسه؛ فعاد في طلب رسول الله، حتَّى فعل ذلك ثلاث مرَّات؛ فلمَّا أطلقت قوائم فرسه في الثالثة، قال: يا مُحَمَّد، هذه إبلى بين يديك، فيها غلامى؛ فَإِن احتجت إلى ظهر أو لبن فخذ منه؛ وهذا سهم من كنانتي علامةٌ و أنا أرجع فأردَّ عنك الطَّلَب. فقال (ص): لا حاجة لي فيما عندك. (٢) و سار (ص) حتَّى بلغ خيمة أمَّ معبد، فنزل بها و طلبوا عندها قري، فقالت: ما يحضرني شيءٌ، فنظر رسول الله (ص) إلى شاةٍ في ناحيةٍ قد تخلَّفت من الغنم لضرِّها، فقال: أتأذنين في حلبها؟ قالت: نعم، لا خير فيها.

فمسح يده على ظهرها، فصارت من أسمن ما يكون من الغنم، ثم مسح يده

١- كذا في الأصل، و الظاهر أَنَّ الصَّحيح هو سراقه بن مالك بن جعشم كما في المصدر

٢- الرِّوضة من الكافي، ص ٢٦٣. و لعلَّ رفض النَّبِيِّ (ص) ما عرضه عليه سراقه قد كان من منطلق: أَنَّهُ (ص) لا يريد أَن يكون لمشرِك يد عنده.

ص: ١٧٠

على ضرعها، فأرخت ضرعاً عجيباً، و درت لبناً كثيراً، فطلب (ص) العس و حلب لهم فشربوا جميعاً حتى رووا....(١)

و ليس ذلك كله بكثير على النبي الأعظم (ص) و كراماته الظاهرة، و معجزاته الباهرة، فهو أشرف الخلق و أكرمهم على الله من الأولين و الآخرين إلى يوم الدين.

و استمر (ص) في هجرته المباركة حتى قرب من المدينة، فنزل بادئ ذي بدء في قضاء في بيت عمرو بن عوف، فأراد أبو بكر على دخول المدينة، و أُلصقه، (٢) فأبى، و قال: ما أنا بداخلها حتى يقدم ابن أمي و أخي، و ابنتي، يعنى علياً و فاطمة (ع). (٣) فلما أمسى فارقه أبو بكر و دخل المدينة، و نزل على بعض الأنصار، و بقي رسول الله (ص) بقاء نازلاً على كلثوم بن الهدم (٤) ينتظر أمير المؤمنين (ع).

ثم كتب إلى أخيه على (ع) كتاباً يأمره بالمسير إليه و قلّة التلوم (٥) و أرسل الكتاب مع أبي واقد الليثي. فلما أتاه كتاب النبي (ص) تهياً للخروج و الهجرة، فأعلم من كان معه من ضعفاء المؤمنين و أمرهم أن يتسللوا و يتخفوا (٦) تحت جح الليل إلى ذي طوى؛ و خرج بفاطمة، بنت الرسول، و أمه فاطمة بنت أسد، و فاطمة، بنت

١- راجع: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٤، و البحار، ج ١٩، ص ٤١ و ٤٢، و دلائل النبوة، ج ١، ص ٢٧٩، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٤٩ و ٥٠ و غير ذلك من المصادر. و حديث أم معبد مشهور بين المؤرخين، و النص المذكور هنا هو للبحار، ج ١٩، ص ٧٦ و ٧٥ عن الخرائج و الجرائح

٢- أُلصقه: أداره على الشيء الذي يريده

٣- راجع: الفصول المهمة، ص ٣٥ من دون ذكر للاسم، و أمالي الطوسي، ج ٢، ص ٨٣، و إعلام الوري، ص ٦٦، و البحار، ج ١٩، ص ٦٤ و ١٠٦ و ١١٥ و ١١٦ و ٧٥ و ٧٦ و ج ٢٢، ص ٣٦٦

٤- اعلام الوري، ص ٦٦ و البحار، ج ١٩، ص ١٠٦ عنه

٥- تلوم في الأمر تلوماً: تمكث فيه و انتظر

٦- تخفى تخفياً: تستر و تكلف الخفاء.

ص: ١٧١

الزبير بن عبدالمطلب و تبعهم أيمن ابن أم أيمن مولى رسول الله و أبو واقد، فجعل يسوق بالزواحل، فأعنف بهم، فأمره (ع) بالرفق فاعتذر بخوفه من الطلب

ولما بلغ النبي (ص) قدوم علي (ع)، قال: ادعوا لي علياً. قيل: يا رسول الله لا يقدر أن يمشى. فأتاه بنفسه، فلما رآه اعتنقه و بكى رحمه لما بقدميه من الورم و كانت تقطران دماً، فتفل النبي (ص) في يديه و مسح بهما رجله و دعاه بالعافية، فلم يعد يشتكى منهما حتى استشهد.

ثم قال لعلي: «يا علي، أنت أول هذه الأمة إيماناً بالله و رسوله، و أولهم هجرةً إلى الله و رسوله، و آخرهم عهداً برسوله؛ لا يحبك و الذي نفسى بيده إلا مؤمن قد امتحن قلبه للإيمان و لا يبغضك إلا منافق أو كافر».(١) و كان نزول علي (ع) بقاء في النصف من ربيع الاول(٢)و كانت إقامته بقاء ليلة أو ليلتين.(٣)

تأسيس مسجد قبا

و خلال إقامته (ص) في قباء أسس مسجد قباء المعروف، و يبدو أن صاحب الفكرة، و المباشر أولاً في وضع المسجد هو عمار بن ياسر.(٤) و مسجد قباء هو المسجد الذي نزل فيه قوله تعالى: «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى

١- راجع: أمالي الشيخ الطوسي، ج ٢، ص ٨٦ ٨٣ و البحار، ج ١٩، ص ٦٧ ٦٤ و ٨٥ و تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٣٢ و ٣٣٣ عن الشيباني في نهج البيان، و عن الاختصاص للشيخ المفيد، و المناقب لابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٨٣ و ١٨٤، و إعلام الوری، ص ١٩٠ و راجع: إمتاع الأسماع للمقريزي، ج ١، ص ٤٨، و أسد الغابة، ج ٤، ص ١٩

٢- راجع: إمتاع الأسماع، ص ٤٨

٣- السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ١٣٨

٤- وفاء الوفاء ج ١، ص ٢٥٠، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٥٥، عن ابن هشام و غير ذلك.

ص: ١٧٢

التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ...» (١).

و هو أول مسجد بني في الإسلام، كما صرح به ابن الجوزي وغيره، (٢) و الظاهر أن تأسيسه كان بعد قدوم أمير المؤمنين (ع)؛ إذ قد ورد: أنه (ص) قد أمر أبا بكر بأن يركب الناقة و يسير بها ليخط المسجد على ما تدور عليه، فلم تنبعث به؛ فأمر عمر، فكذاك؛ فأمر علياً (ع) فانبعثت به، ودارت به، فأسس المسجد على حسب ما دارت عليه، و قال (ص): إنها مأمورة. (٣)

١- التوبة: ١٠٨

٢- المصدرين المتقدمين و أيضاً: التراتيب الإدارية، ج ٢، ص ٧٦

٣- راجع: وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٥١، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٨ و تاريخ جرجان، ص ١٤٤ (لكن في العبارة سقط).

ص: ١٧٣

الفصل الثالث: أعمال تأسيسية في مطلع الهجرة

اشاره

ص: ١٧٥

ورود النَّبِيِّ (ص) المدينة

بعد خمسة عشر يوماً^(١) من إقامته (ص) في قُباء تحرَّك إلى داخل المدينة، وقد اختلف المؤرخون في التاريخ الدقيق لخروجه (ص) من مكة ودخوله قُباء ثم المدينة اختلافاً كثيراً، مع اتفاقهم على أنه قد دخلها في أوائل ربيع الأول^(٢) وقد حَقَّق العلامة المجلسي: أن هجرته كانت في يوم الإثنين أول ربيع الأول، ووروده المدينة في يوم الجمعة الثاني عشر منه، كما ذهب إليه المفيد، وادَّعى البعض الإجماع عليه^(٣) وفي يوم الجمعة ركب راحلته وتوجَّه إلى المدينة و صَلَّى الجمعة وهو في طريقه إلى المدينة^(٤) ولا يمرَّ ببطن من بطون الأنصار إلَّا قاموا إليه يستلونه أن ينزل عليهم، فيقول: خلُّوا سبيل النَّافَّة فإنَّها مأمورة. فانطلقت به و رسول الله (ص) واضع لها زمامها حتَّى انتهت إلى موضع مسجد

-
- ١- البحار، ج ١٩، ص ١٠٦ عن إعلام الوري، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٥٥ عن البخاري، و عن مسلم: أنه أقام ١٤ يوماً، و قيل غير ذلك
 - ٢- راجع: البحار، ج ٥٨، ص ٣٦٦، و المواهب اللدنية، ج ١، ص ٦٧، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٧
 - ٣- راجع أدلته في البحار، ج ٨، ص ٣٦٦ و ٣٦٧
 - ٤- المواهب اللدنية، ج ١، ص ٦٧، سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٣٩، تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٩، البحار، ج ٨، ص ٣٦٧ و دلائل النبوة، ج ٢، ص ٥٠٠.

ص: ١٧٦

النَّبِيُّ (ص)، فوفقت هناك، و بركت، و وضعت جِرائها(١) على الأرض، و ذلك بالقرب من باب أبي أيوب الأنصاري، أفقر رجل بالمدينة. (٢) فأدخل أبو أيوب أو أمّه الرّحْلَ إلى منزلهم، و نزل (ص) عنده و على (ع) معه، لا يفارقه، حتّى بنى مسجده و منازلهم. (٣) فقيل: مكث عند أبي أيوب سنّة تقريباً، و قيل سبعة أشهر. (٤) أمّا سائر المهاجرين، فقد تنافس فيهم الأنصار، حتّى اقترعوا فيهم بالشّهان، (٥) فما نزل أحد من المهاجرين إلى أحد من الأنصار إلّا بقرعة بينهم. (٦)

القيام بأعمال تأسيسية

اشاره

فور وصوله (ص) إلى المدينة باشر بالقيام بأعمال تأسيسية ترتبط بمستقبل الدّعوة الإسلامية و هي كثيرة متنوّعة، و لكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى مايلي:

١. بناء المسجد

اشاره

و اشترى النّبِيُّ (ص) أو وهب له موضع المسجد، الذي يقال: إنّه كان مربداً (٧) ليتيمين من الخزرج، بعشرة دنانير على ما قيل - . فأسس المسجد في ذلك الموضع، و نقلوا إليه الحجارة من منطقة الحرّة، و

١- الجِران من البعير مُقدّم عنقه من مذبحه إلى منحره

٢- البحار، ج ١٩، ص ١٢١، و راجع: مناقب ابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٨٥

٣- روضة الكافي، ص ٣٣٩ و ٣٤٠ و البحار، ج ١٩، ص ١١٦ عنه

٤- راجع: البدء و التاريخ، ج ٤، ص ١٧٨، و فاء الوفاء، ج ١، ص ٢٦٥ و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٦٤

٥- الشّهان، جمع سهم

٦- السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٦٤

٧- المربد محبس الإبل، أو مكان تجمّع التّمر، أو المكان الخالي خلف البيوت.

ص: ١٧٧

شارك (ص) بنفسه في نقلها؛ الأمر الذي دفع الصحابة إلى الدأب في العمل والجِدِّ فيه، حتَّى قال قائلهم: لئن قعدنا و التَّبَيَّ يعمل لذاك منا العمل المضلل و ارتجز المسلمون و هم يبنونه، يقولون:

اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجْرَ أَجْر الآخرة فآرحم الأنصار و المهاجرة (١) و جعل طوله مئة ذراع في مثلها، أو قريباً من ذلك. و قيل: جعله سبعين في ستين. (٢) و ابتنى (ص) مساكنه، و كذا الأصحاب مساكنهم حول المسجد، و كلَّ قد شرع له إلى المسجد باباً، و قد سُدَّت الأبواب كلها فيما بعد، سوى باب أمير المؤمنين (ع).

لماذا المسجد أولًا؟

إنَّ من الملاحظ، أنَّ أوَّل عملٍ بدأ به (ص) في المدينة هو بناء المسجد، و هو عمل له دلالة و أهميَّته البالغة؛ و ذلك لأنَّ المسلمين كانوا فئتين: مهاجرين و أنصاراً، و تختلف ظروف كلِّ من الفئتين و أوضاعها النفسيَّة و المعنويَّة و المعيشيَّة و غير ذلك عن الفئة الأخرى.

و المهاجرون أيضاً كانوا من قبائل شتَّى، و مستويات مختلفة؛ فكرياً و اجتماعياً، مادياً و معنوياً، كما و يختلفون في مشاعرهم و في علاقاتهم، ثمَّ في نظرة النَّاس إليهم، و مواقفهم منهم و تعاملهم معهم إلى غير ذلك من وجوه التَّباين و الاختلاف و قد ترك الجميع أوطانهم و أصبحوا بلا أموالٍ و بلا مسكن، و كذلك الأنصار؛ فإنَّهم أيضاً كانوا فئتين متنافستين، لم تزل الحرب بينهما قائمة على

١- راجع: السيرة الحليَّة، ج ٢، ص ٦٧ و ٧١ و ٦٤ و ٦٥

٢- و يحتمل أن يكون كلاهما صحيحاً، و أنَّه (ص) جعله في البناء الأوَّل سبعين في ستين، ثمَّ وسعه في البناء الثَّاني (راجع: وفاء الوفاء، ج ١، ص ٣٤٠ فما بعدها و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٦٥ و ٣٦٦ و التَّراتيب الإداريَّة، ج ٢، ص ٧٧).

ص: ١٧٨

ساق (١) إلى عهد قريب.

وقد أراد الإسلام أن يَنْصَهَر (٢) الجميع في بوتقة (٣) الإسلام ليصبحوا كالجسد الواحد في توادهم وفي تراحمهم وتعاونهم، وأن تتوحد جهودهم وأهدافهم وحركتهم ومواقفهم؛ الأمر الذي يؤكد الحاجة إلى إعداد وتربية نفسيّة وخلقِيّة وفكريّة لكلّ هذه الفئات، لتستطيع أن تتعايش مع بعضها البعض، وتكون في مستوى المسؤوليّة التي يؤهلها لها في عمليّة بناء للمجتمع الذي له ربّ واحد وهدف ومصير واحد.

وليصبح هذا المجتمع قادراً على تحمّل مسؤوليّة حماية الرّسالة والدّفاع عنها، حينما يفرض عليه أن يواجه تحدّي اليهود في المدينة، والعرب والمشرّكين، بل والعالم بأسره، لابدّ أن تنصهر كلّ الطّاقات والقدرات الفكرية والماديّة لهذا المجتمع في سبيل خدمة الهدف: الرّسالة فقط.

والمسجد هو الذي يمكن فيه تحقيق كلّ ذلك؛ إذ لم يكن مجرّد محلّ للعبادة فقط ولا غير؛ بل كان هو الوسيلة الفضلى للتّثقيف الفكري، إن لم نقل: إنّّه لا يزال حتّى الآن أفضل وسيلة لوحدة الثّقافة والفكر والرّأي، حينما يفترض فيها أن تكون من مصدر واحد، وتخدم هدفاً واحداً في جميع مراحل الحياة، مع الشّعور بالقدسيّة والارتباط بالله تعالى.

وهو من الجهة الأخرى وسيلة لشيوع الصّدقات (٤) وبثّ روح المحبّة والموادّة بين المسلمين؛ فإنّه حينما يلتقي المسلمون ببعضهم البعض عمدة مرّات يومياً في جوّ من الشّعور عملاً بالمساواة والعدل، وحينما تتساقط كلّ فوارق الجاه والمال وغيرها ويتعدّ شبح الأنانيّة والغرور عن أفق هذا الإنسان، فإنّه لابدّ أن

١- قامت الحرب على ساق: اشتدّت و تعاظمت

٢- انصهر الشّيء: ذاب

٣- البوتقة: الوعاء الذي يذوب الصّائع فيه المعدن، فارسيّة يقال «بوته»

٤- جمع الصّدقة: وهي المحبّة بالصدق.

ص: ١٧٩

تترسّخ حينئذٍ فيما بين هذا المجتمع أو اصر(١) المحبّة و التّآخي و التّآلف و يشعر كلّ من أفرادِه بأنّه في مجتمع يبادلُه الحبّ و الحنان،(٢) و أنّ له إخواناً يهتمّون به، و يعيشون قضاياهم و مشاكله و يمكنه أن يستند إليهم و يعتمد عليهم. والمسجد هو أجلى و أفضل موضع لتبسيط العلاقات بين أفراد المجتمع الواحد، و تقليل مشاكل التعامل الرّسمي، و التكاليف البغيضة، التي توحى بوجود فوارق و مميّزات، بل و حدود تفصل هذا عن ذاك و بالعكس. و الخلاصة: لقد كان المسجد موضع عبادة و تعلّم و تفهّم لما يفيد في أمور الدّين و الدّنيا، و تربية نفسيّة و خُلقية، و محلّاً للبحث في كلّ المشاكل التي تهّم الفرد و المجتمع، و مكاناً مناسباً للتعارف و التّآلف بين المسلمين، و مركزاً للقيادة و الرّيادة؛ ففيه كان (ص) يستقبل الوفود، و بيت(٣) في أمور الحرب و السّلم، و يفصل الخصومات، و فيه كان يتمّ البحث عن كلّ ما يهّم الدّولة و شؤونها، و النّاس و معاملاتهم و ارتباطاتهم؛ و فيه كان يجد الضّعيف قوّته، و المهموم المغموم سلوته(٤) و الذي لا عشيرة له ينسى بل يجد فيه عشيرته، و المحروم من العطف و الحنان بُغيته.

٢. المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار

إشاره

و بعد خمسة أو ثمانية أشهر أو أقلّ أو أكثر(٥) - من مقدمه (ص) المدينة آخى بين أصحابه من المهاجرين و الأنصار على الحقّ و المواساة، و كان المسلمون حين المؤاخاة على ما يقولون تسعين رجلاً، منهم خمسة و أربعون رجلاً من

١- جمع الآصرة و هي ما عطفك على رجلٍ من رَجَمٍ أو قرابةٍ أو صهرٍ أو المعروف

٢- الحنان: الرّحمة

٣- بتّ الأمر: أمضاه

٤- السّلوة و السّلوة (بالفتح و الضّم): السّلوة. يقال: هو في سلوة من العيش، أي في رَغَدٍ منه

٥- راجع: البحار، ج ١٩، ص ١٢٢، و مناقب ابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٥٢، و وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٦٧، و فتح الباري، ج ٧، ص ٢١٠، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٩٢.

ص: ١٨٠

الأنصار، و مثلهم من المهاجرين. و يدعى ابن الجوزي: أنه أحصاهم فكانوا جميعاً ستّة و ثمانين رجلاً. و قيل: مئة رجل. (١) و لربّما يكون هذا هو العدد الذي وقعت المؤاخاة بين أفرادها حسبما توفّر من عدد المهاجرين، لا أن عدد المسلمين كان هو ذلك، و إلّا فإنّها تكون صُدفةً نادرةً أن يكون عدد من أسلم من المهاجرين مساوياً لعدد من أسلم من الأنصار بلا زيادة و لا نقصاً!!

و لقد كان (ص) يؤاخي بين الرّجل و نظيره، كما يظهر من ملاحظة المؤاخاة قبل الهجرة و بعدها؛ فقد آخى قبل الهجرة على الظاهر بين أبي بكر و عمر، و بين طلحة و زبير، و بين عثمان و عبدالرحمان بن عوف و بين نفسه و علي (ع). (٢) و في المدينة آخى بين أبي بكر و خارجة بن زهير، و بين عمر و عتبان بن مالك، و بين حمزة و زيد بن حارثة، و بين جعفر بن أبي طالب و معاذ بن جبل، (٣) و هكذا ...

مؤاخاة النبي (ص) لعلي (ع)

وروى أحمد بن حنبل و غيره: أنه (ص) آخى بين الناس و ترك عليّاً حتّى

- ١- راجع: طبقات ابن سعد، ج ١، قسم ٢، ص ١، و المواهب اللدنيّة، ج ١، ص ٧١، و فتح الباري، ج ٧، ص ٢١٠، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٩٠ و البحار، ج ١٩، ص ١٣٠
- ٢- مستدرّك الحاكم، ج ٣، ص ١٤، و وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٦٧ و ٢٦٨، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٠، و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ١٥٥ و فتح الباري، ج ٧، ص ٢١١
- ٣- قد أورد على هذا الأخير بأن جعفر كان حينئذ في الحبشة (سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٥١). و الجواب عنه هو أن النبي (ص) قد استمرّ يجدّد المؤاخاة بحسب من يدخل في الإسلام، أو يحضر إلى المدينة من المسلمين (فتح الباري، ج ٧، ص ٢١١). و قد أجاب البعض: بأنّه أرصده لإخوته حين يقدم (البداية و النهاية، ج ٣، ص ٢٢٧ و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٩١) لكنّه يرد سؤال: ما هو السبب في تخصيص جعفر بهذا الأمر؟! إلّا أن يقال: إنّ المقصود هو إظهار الاهتمام بشأن جعفر، و التّنبية على فضله.

ص: ١٨١

الأخير، حتّى لا يرى له أخاً؛ فقال: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك و تركتني؟ فقال: إنّما تركتك لنفسى؛ أنت أخى، و أنا أخوك؛ فإن ذكرك أحد، فقل: أنا عبد الله و أخو رسوله، لا يدّعيها بعدك إلّا كذاب، و الذى بعثنى بالحقّ، ما أخرتك إلّا لنفسى، و أنت منى بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا- نبى بعدى، و أنت أخى و وارثى. (١) و التأميل فى عمليّة المؤاخاة يعطينا: أنّه قد لو حظ فيها المساخنة بين الأشخاص و تشابه و تلاؤم نفسيّاتهم و إلى ذلك أشار الأزرى رحمه الله حينما قال مخاطباً عليّاً (ع): لك ذات كذاته حيث لو لا أنّها مثلها لمّا آخاها

مع قضيّة المؤاخاة

ألف. تواتر حديث المؤاخاة

إنّ حديث المؤاخاة متواتر لا يمكن إنكاره، و لا التشكيك فيه، و لا سيما مؤاخاة النّبى (ص) لعلّى (ع) سواء فى المؤاخاة الأولى فى مكّة، أم فى الثّانية فى المدينة، و هو مروي عن عشرات من الصّحابة و التابعين كما يتّضح للمراجع. (٢)

١- راجع: نهج الحق فى ضمن دلائل الصدق، ص ٢٦٧، و ينابيع المودة، ص ٥٦ و تذكرة الخواص، ص ٢٣ عن أحمد فى الفضائل و صحّحه، و ابن الجوزى و نقل عن كترالعمال، ج ٦، ص ٣٩٠، و الرّياض النّضرة، ج ٢، ص ٢٠٩، و تاريخ ابن عساكر، ج ٦، ص ٢١
٢- راجع: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٥٣، و وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٦٧ و ٢٦٨، و ينابيع المودة، ص ٥٦ و ٥٧ عن مسند أحمد، و تذكرة الخواص، ص ٢٢ ٢٤ و حكى عن الترمذى أنّه صحّحه، و السيرة الحليّة، ج ٢، ص ٢٠ و ٩٠، و مستدرك الحاكم، ج ٣، ص ١٤، و الثقات لابن حبان، ج ١، ص ١٣٨، و فرائد السمطين، ج ١، الباب العشرون، و الفصول المهمّة لابن الصّيباغ، ص ٢٢ و ٢٩، و البداية و النّهاية، ج ٣، ص ٢٢٦ و ج ٧، ص ٣٥ و تاريخ الخلفاء، ص ١٧٠، و دلائل الصدق، ج ٢، ص ٢٧٠ ٢٦٨ عن كترالعمال و عن البيهقى فى سننه، و الضياء فى المختارة، و عبد الله بن أحمد فى زيارات المسند ثمانية أحاديث و أبيه فى المسند و فى الفضائل و أبى يعلى و الطبرانى و ابن عدى و الجمع بين الصحاح الستّة، و أخرج الخوارزمى اثني عشر حديثاً و ابن المغازلى ثمانية أحاديث، و غير ذلك من المصادر الكثيرة.

ص: ١٨٢

وقد روى: أن النَّبِيَّ (ص) قال لعلی (ع): إذا كان يوم القيامة نوديتُ من بطنان العرش: نعم الأب أبوك إبراهيم و نعم الأخ أخوك علی بن أبي طالب.(١)

ب. البديل الأنسب

إنَّ من الواضح: أنَّ هؤلاء الذين أسلموا قد انفصلوا عن قومهم، و عن إخوانهم، و عن عشائريهم بصورة حقيقيَّة و عميقة، و قد واجههم حتَّى أحبَّ النَّاس إليهم بأنواع التَّحدّي و الأذى، فأصبحوا و قد انقطعت علائقهم بدوى رحمهم و صاروا كأنَّهم لا عَصَبَة (٢) لهم، و قد يشعر بعضهم أنَّه قد أصبح وحيداً فريداً، و بلا نصيرٍ و لا عشيرة؛ فجاءت الإخوة الإسلامية لتسدَّ هذا الفراغ بالنَّسبة إليهم، و لتبعد عنهم الشعور بالوحدة، و تبعث في نفوسهم الأمل و الثَّقة بالمستقبل، و قد بلغ عمق تأثير هذه المؤاخاة فيهم أن توهَّمو عموم المنزلة حتَّى في الإلرث.(٣)

صفوة الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه و آله ؛ ؛ ص ١٨٢

ج. السَّمَوِّ بالعلاقات الإنسانية

لقد أريد للمسلمين المؤمنين أن يكونوا إخوة، و ذلك بهدف السَّمَوِّ بعلاقات هذا الإنسان عن المستوى المصلحي و جعلها علاقة الهيَّة خالصة تصل إلى درجة الإخوة، و ليكون أثرها في التَّعامل بين المسلمين أكثر طبعيَّة، و انسجاماً، و بعيداً عن التَّوازن النَّفسيَّة التي ربَّما توحى للأخوين المتعاونين بأمور من شأنها أن تعقد العلاقات بينهما و لو نفسيّاً على أقلِّ تقدير. و رغم أنَّ الإسلام قد قرر ذلك، و أكَّد على أنَّ المؤمن أخو المؤمن، إلَّا أنَّه قد كان ثَمَّة حاجة إلى إظهار ذلك عمليّاً بهدف توثيق عرى المحبَّة و ترسيخ أواصر الصَّداقة و المودَّة كما هو معلوم، و ليكون الهدف السَّامى قد انطلق من العمل

١- ربيع الأبرار، ج ١، ص ٨٠٧ و ٨٠٨

٢- العَصَبَة (محرّكة واحدة العصب): قوم الرجل الذين يتعصبون له و بنوه و قرابته لأبيه.

٣- السيد جعفر مرتضى العاملي تحقيق: على الرفيعي القوجاني، صفوة الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه و آله، ١ جلد، نشر مشعر - تهران، چاپ: ١.

ص: ١٨٣
السامى أيضا.

د. دور الموافاة فى بناء المجتمع الجديد

لقد كان الرسول الأعظم (ص) بصدد بناء مجتمع جديد يكون المثل الأعلى للصّلاح و الفلاح، قادراً على القيام بأعباء الدّعوة إلى الله و نصرته دينه، فى أى من الظروف و الأحوال. و قد تقدّمت عند البحث عن عمليّة بناء المسجد الإشارة إلى واقع وجود الفوارق الكبيرة بين المهاجرين و الأنصار أنفسهما معاً، الاجتماعية، و القبليّة، و الثّقافيّة، و غير ذلك. فكان لابدّ من إيجاد روابط و وثيقة تشدّ هذا المجتمع بعضه إلى بعض. و كانت تلك الرّابطة الوثيقة هي: «المؤاخاة» الّتي روعيت فيها الرّقة، إلى الحدّ الّذى يضمن معه أن يحفظ فى هذا المجتمع الجديد معها التماسك و التعاضد إلى أبعد مدى ممكن، و أقصى غاية استطاع؛ لا سيّما و أنّه كان يؤاخى بين الرّجل و نظيره، كما أشرنا إليه. و قد كانت لهذه المؤاخاة نتائج هامّة فى تاريخ النّضال و الجهاد.^(١)

٣. أسس العلاقات فى المجتمع الجديد

و يذكر المؤرّخون: أنّه بعد مدّة و جيزة من قدومه (ص) المدينة، و على رأى البعض: بعد خمسة أشهر،^(٢) كتب (ص) كتاباً أو وثيقة بينه و بين اليهود، أقرهم فيها على دينهم و أموالهم، و اشترط عليهم: أن لا يعينوا عليه أحداً، و إن دهم أمر فعليهم التّصر، كما أن على المسلمين ذلك فى المقابل. إنّ هذه الوثيقة لم تقتصر على تنظيم علاقات المسلمين مع غيرهم، و إنّما

١- من هذه النتائج: ما امتحن الله على نبيّه فى بدر بقوله: «وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِصُورِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَآلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (الأنفال: ٦٢ و ٦٣)

٢- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٥٣.

ص: ١٨٤

تعرض جانب كبير بل هو الجانب الأكبر منها إلى تقرير قواعد كئيّة، و أسس عمليّة للعلاقات بين المسلمين أنفسهم، كان لابدّ منها لتلافي الأخطاء المحتملة قبل أن تقع.

فهذه الوثيقة بمثابة دستور عمل، يتضمّن أسس العلاقات في الدولة الناشئة، سواء في الدّاخل أم في الخارج. وهذه الوثيقة هي بحث من أهمّ الوثائق القانونيّة، التي لابدّ أن يدرسها علماء القانون و التشريع بدقّة متناهية، لاستخلاص الدلائل و الأحكام منها، و أيضاً لمعرفة الغايات التي يرمى إليها الإسلام، و الضوابط التي يرتضيها، و مقارنتها بغيرها ممّا يتهاكك المستضعفون فكرياً من هذه الأمة عليه من القوانين القاصرة عن تلبية الحاجات الفطريّة و غيرها للإنسان.

وقد أورد المؤرّخون نصّ هذه الوثيقة في كتبهم بالتفصيل أو الاختصار^(١) و نحن نشير رعاية للاختصار إلى أهمّ قراراتها في مجال بناء العلاقات في هذا المجتمع الجديد، إلى مايلي:

١. إنّها قد قرّرت أنّ المسلمين أمة واحدة، رغم اختلاف قبائلهم، و تفاوت مستوياتهم، و اختلاف حالاتهم المعيشيّة و الاجتماعيّة، و غير ذلك. و لهذا الإقرار أبعاده السياسيّة و آثاره الحقوقيّة، ولسنا هنا بصدد الخوض في تفاصيلها و جزئياتها.

٢. قد تضمّنت إقرار المهاجرين من قريش على عاداتهم و سننهم في الديّات و الدّماء.

٣. إنّ مسؤوليّة المهاجرين عن فداء أشيراهم، ثم مسؤوليّة جميع القبائل عن فداء أسراها أيضاً بالقسط و المعروف، إنّما تعني أن تعيش كلّ قبيلة حالة التكافل و الإحساس الجماعي، بالإضافة إلى أنّ ذلك يضمن نوعاً من الترابط بين هؤلاء

١- راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٥٠ ١٤٧، و البداية و النهاية، ج ٣، ص ٢٢٦ ٢٢٤، و الأموال، ص ٢٠٧ ٢٠٢، و مجموعة الوثائق السياسيّة و أشار إليه في مسند أحمد، ج ١، ص ٢٧١ و أشار إليه أيضاً في مسند أبي يعلى، ج ٤، ص ٣٦٦ و ٣٦٧.

ص: ١٨٥

الناس، والدّ ب عن بعضهم، و المعونة في مواقع الخطر.

٤. لقد قُرت الوثيقة أيضاً: أنّ من كان عليه دين، و لم يكن له عشيرة تعينه في فداء أسيره، فعلى المسلمين إعانتة في فداء ذلك الأسير.

٥. و جاء في الوثيقة أيضاً: أنّ مسؤوليّة دفع الظلم تقع على عاتق الجميع و لا تختصّ بمن وقع عليه الظلم؛ و لعلّ هذا من أهمّ القرارات التي تضمّنتها الوثيقة.

٦. و هناك القرار الذي ينصّ على عدم قود(١) المسلم بالكافر، و في هذا تأكيد على أنّ شرف الإنسان إنّما هو بالإسلام، كما أنّ الوثيقة تؤكد: بأنّه يجير على المسلمين أديانهم و لا يجير كافرٌ على مسلم؛ لأنّ الإسلام لا يرى الشرف بالمال و لا بالقبيلة و لا بغير ذلك من أمور، و إنّما انسانيته هي التي تعطيه القيمة.

٧. و قد تقرّر أيضاً: أنّ لا ينصر المسلمون من أحدث و ابتدع، بل يجب عليهم مقاومته و التصدي له و لبدعته بكلّ صلابه و حزم. و في هذا تتجلى الأهميّة البالغة التي يوليها الإسلام للسلامة الفكرية، و يؤكّد أهميّة الصيانة في المجال الثقافي و العقدي.

٨. في هذه الوثيقة أيضاً تكريس للسياسة الإسلامية و اعتراف مسجل بها من قبل أعدائها أعنى اليهود و قد كانوا يعتبرون أنفسهم وحدهم دون كلّ من عداهم أصحاب كلّ الامتيازات و إنّ كلّ قرار يجب أن يكون صادراً عنهم و منهم و إليهم، فهم الحكماء على الناس، و الناس كلّهم يجب أن يكونوا تحت سلطتهم و قد خلّفوا ليكونوا لهم خدماً كما يزعمون.

فقد قُرت الوثيقة: أنّ لا يخرج أحدٌ من اليهود إلّا بأذن رسول الله (ص) و أنّ الحاكميّة إنّما هي لدين الله و لرسول الله (ص) لا لأحد سواه.

٩. و قد أكّد ما ذكرناه آنفاً و عمّقه ذلك القرار الذي اعترف به اليهود و سجّلوه على أنفسهم، والذي ينصّ على أنّ رسول الله (ص) هو المرجع الذي يتولّى حلّ

١- القود (محرّكة مصدر قود): القصاص.

ص: ١٨٦

المشكلات، التي تنشأ فيما بينهم وبين المسلمين.

ولسنا بحاجة إلى التذكير بما لهذه المادة من مدلول سياسي، و من أثر نفسي و اجتماعي عليهم و على غيرهم ممن يعيشون في المدينة، و كذا ما لهذا القرار من أثر كذلك على المنطقة بأسرها.

١٠. هذا كله، عدا عن أن هذه الوثيقة قد تضمنت لمن تهوّد من الأنصار حقوقهم العامّة، و ذلك من قبيل حق «الأمن» و «الحرية» بشرط أن لا يفسدوا.

و هذان الحقان و لا سيّما حق الحرية، يؤكّدان على أن الإسلام لا يخشى شيئاً إذا كان منطلقاً من الواقع و قائماً على أساس الحقّ و الصدق، ولكنّه يخشى من الإفساد.

١١. ثمّ تضمنت الوثيقة اعترافاً من المنافقين و المشركين و من اليهود أيضاً بأن المؤمنين على أحسن هدى و أقومه، مع أن ما كان يشيعه هؤلاء الأعداء إنما هو: أن هذا النبيّ قد جاء ليفرّق جماعتهم، و يسفه أحلامهم و ... كما ذكره عمرو بن العاص للنجاشي ملك الحبشة.

١٢. ثمّ إنّ هذه الوثيقة قد أعطت للمسلمين الحقّ في التصدّي لأخذ أموال قريش (و ليس المشركين)؛ لأنّ قريشاً هي التي سلبتهم أموالهم، و أخرجتهم من ديارهم، ليكون ذلك عوضاً عما أخذ منهم. و قد اعترف لهم بهذا الحقّ حتّى المشركون، الذين هم طرف في هذه المعاهدة.

١٣. إنّ الوثيقة قد نصّت على أن كلّ من يعترف بما في هذه الصّحيفة لا يحقّ له نصر محدث و لا إيواؤه؛ و هذا من شأنه أن يشيع الأمن العام، و يجعل الناس يطمئنون نوعاً ما، و يخفّف من الخوف الذي كان سائداً (١) بين الأوس و الخزرج؛ كما أن فيه إنذاراً مبطناً للآخرين من اليهود و المشركين الذين يعيشون مع المسلمين في بلد واحد.

١- سآده: خنقه، أي شدّ على حلقه حتّى يموت.

ص: ١٨٧

١٤. و يلاحظ أخيراً أنّ الوثيقة لم تعط للمشركين حقوقاً ولكنّها فرضت عليهم قيوداً؛ فليس للمشرك أن يجير مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن. هذا ما أحببنا الإلماح إليه في هذه العجالة و ثمّ أمور كثيرة أخرى نأمل أن نوفّق لدراستها في فرصة أخرى.

موادعة اليهود

و جاءت يهود قريظة و النضير و قينقاع و طلبوا الهدنة من رسول الله (ص): فكتب لهم بذلك، على أن لا- يعينوا عليه أحداً، و لا يتعرّضوا لأحدٍ من أصحابه بلسان و لا يد و لا سلاح و لا بكراع،^(١) في السرّ و لا في العلانية، لا بليل و لا بنهار؛ فإن فعلوا، فرسول الله (ص) في حلٍّ من سفك دمائهم، و سبي ذراريهم و نسائهم و أخذ أموالهم، و كتب لكلّ قبيلة كتاباً على حدة.^(٢)

١- الكراع إسم يطلق على الخيل و البغال و الحمير

٢- راجع: إعلام الوري، ص ٦٩، و البحار، ج ١٩، ص ١١٠ و ١١١ عنه، و السيرة النبوية لدحلان، ج ١، ص ١٧٥.

ص: ١٨٩

الفصل الرابع: معركة بدر

اشاره

ص: ١٩١

غزواته (ص) و سراياه

هنا يبدأ المؤرخون بذكر غزواته و سراياه (ص) و يقصدون بـ (الغزوة): الجيش الذي يخرج فيه (ص) بنفسه، و بـ «السرية»: البعث الذي لا يكون رسول الله (ص) فيه.

و قد اختلفت كلماتهم في عدد غزواته و سراياه اختلافاً كثيراً و لا نرى حاجة لإطالة الكلام في تحقيق ذلك و نكتفي بما ذكره ابن سعد في طبقاته بأن مغازيه كانت سبعة و عشرين غزوة و عدد سراياه التي كانت تتألف من الثلاثين و الأربعين و الخمسين و ما يزيد على المئتين إحيانا، كانت سبعة و أربعين سرية. (١) و نسوق الكلام من غزواته إلى ماهي أهم و نفعها أعم و نبتدى بغزوة بدر الكبرى.

غزوة بدر

و بعد مضى مدة على وجود النبي الأعظم (ص) في المدينة كتب كفار قريش إلى عبدالله بن أبي بن سلول و من كان يعبد الأوثان من الأوس و الخزرج:

إنكم آويتم صاحبنا، و إنكم أكثر أهل المدينة عدداً، و إنا نقسم بالله، لتقتلنه، أو

ص: ١٩٢

لتخرجته، أو لنستعَنَ (١) عليكم العرب، أو لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا، حتَّى نقتل مقاتلتكم و نستبيح نساءكم. فلَمَّا بلغ ذلك ابنُ أُبَيٍّ و من معه، تراسلوا؛ فاجتمعوا، و أجمعوا لقتال النَّبِيِّ (ص)؛ فلَمَّا بلغ ذلك النَّبِيُّ (ص) و أصحابه لقيهم في جماعة، فقال:

لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر ممَّا تريدون أن تكيدوا به أنفسكم. فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم و إخوانكم.

فلَمَّا سمعوا ذلك من النَّبِيِّ (ص) تفرَّقوا، فبلغ ذلك كفَّار قريش، و كانت وقعة بدر. (٢)

الانتداب إلى بدر

و في السَّنة الثَّانية، في السَّابع عشر من شهر رمضان المبارك كانت حرب بدر العظمى بين المسلمين و مشركي مكة. و ذلك أنَّ العير الَّتِي طلبها المسلمون في غزوة العُشَيْرَةِ (٣)، و أفلت منهم إلى الشَّام، ظلَّ النَّبِيُّ (ص) يترقبها، حتَّى علم بعودتها، و كانت بقيادة أبي سفيان مع ثلاثين، أو أقلَّ، أو أربعين، أو سبعين راكباً. و فيها أموال قريش، حتَّى قيل: إنَّ فيها ما قيمته خمسون ألف دينار في ذلك الوقت الَّذِي كان فيه للمال قيمة كبيرة. فندب رسول الله (ص) المسلمين للخروج إليها، فانتدب النَّاس، فخفف بعضهم

١- الظَّاهر أنَّ الصَّحيح هو: نستعين

٢- المصنَّف للصَّنْعاني، ج ٥، ص ٣٥٨ و ٣٥٩

٣- كانت غزوة العُشَيْرَةِ بعد غزوة بواط في جمادى الأولى، من السَّنة الثَّانية من هجرته و وادع فيها بنى مدلج و حلفاء هم من بنى ضمرة، ثمَّ رجع إلى المدينة، و لم يلق كيداً (راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٤٩ ٢٤٨).

ص: ١٩٣

وثقل آخرون، ولعلهم تخوفوا من كره قريش عليهم حينما لابد لها من محاولة الانتقام لهذا الإجراء الذي يستهدف مصالحها الحيوية. قال الواقدي: كره خروج رسول الله (ص) أقواماً من أصحابه إلى بدر، قالوا: نحن قليل، و ما الخروج برأى، حتى كان في ذلك اختلاف كثير. (١) وقد حكى الله تعالى ذلك، فقال: «كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يَجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ» (٢).

نعم لقد كرهوا ذلك لعلمهم بأن قريشاً لن تسكت على أمر خطير كهذا. و من هنا نعرف: أن قول بعضهم: إن من تخلف لم يكن يظن أن النبي (ص) يلقي حرباً (٣) في غير محله، بل هو محاولة إيجاد عذر للمتخلفين مهما كان فاشلاً و غير معقول. و إلا فالآية الكريمة خير دليل على عدم صحة هذا القول.

و خرج المسلمون يريدون العير، و علم أبوسفيان بالأمر، فأرسل إلى قريش يستنفرهم لنجاة العير. فلما جاءهم التذير يناديهم: يا معشر قريش! اللطيمة، اللطيمة، (٤) أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها فتجهز الناس سراعاً و ما بقي أحد من عظماء قريش إلا أخرج مალًا لتجهيز الجيش، و قالوا: من لم يخرج، نهدم داره، فلم يتخلف رجل إلا أخرج مكانه رجلاً. و بعث أبولهب العاصي بن هشام مكانه على أربعة آلاف درهم كانت له عليه من مال المقامرة على ما قيل. (٥)

١- المغازي، ج ١، ص ١٣١

٢- الانفال: ٥ و ٦

٣- الكامل لابن الاثير، ج ٢، ص ١١٦

٤- اللطيمة: الإبل التي تحمل البُر و الطيب

٥- السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٤٥، و أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٩٢، و راجع: السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٢٦١ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٧٠، و المغازي، ج ١، ص ٣٣.

ص: ١٩٤

و خرج مع المشركين من بنى هاشم: العباس و عقيل و نوفل بن حارث و طالب بن أبي طالب. فأما طالب، فخرج مكرهاً، فجرت بينه و بين القرشيين ملاحاة و قالوا: والله، لقد عرفنا أن هواكم مع محمد. فرجع طالب فيمن رجع إلى مكة، و لم يوجد في القتلى، و لا في الأسرى و لا فيمن رجع إلى مكة. (١) و حينما خالف أبوسفیان في الطريق و نجا بالعر، أرسل يطلب من قريش الرجوع، فأبى أبوجهل إلا أن يرد بدرًا (٢) و يقيم ثلاثة أيام، و يأكل و يشرب الخمر، حتى تسمع العرب بمسيرهم و جمعهم؛ فيها بونهم أبداً. و أراد بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبوجهل، و قال: لا تفارقنا هذه العصاة حتى نرجع. (٣)

النَّبِيُّ (ص) يَسْتَشِيرُ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ

لَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَرَبَ بَدْرٍ وَ عَرَفُوا بِجَمْعِ قُرَيْشٍ وَ مَجِيئِهَا، خَافُوا وَ جَزَعُوا مِنْ ذَلِكَ، فَاسْتَشَارَ النَّبِيُّ (ص) أَصْحَابَهُ فِي الْحَرْبِ أَوْطَلَبَ الْعِيرَ. فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ وَ قَالَ: يَا

١- راجع: البحار، ج ١٩، ص ٢٩٤ و ٢٩٥، و روضة الكافي، ص ٣٧٥ و تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٤٤. و الكامل لابن اثير، ج ٢، ص ١٢١. هكذا قالوا، و لكننا نقول: كيف لم يوجد فيمن رجع إلى مكة و ابن هشام يذكر له قصيدة يمدح فيها رسول الله (ص) و يبكي أهل القلب و يطلب في شعره من بنى عبد شمس و نوفل أن لا يثيروا مع الهاشميين حرباً تجر المصائب و البلايا و الأهوال. و هذا يدل على أنه قد عاش إلى ما بعد وقعة بدر، و أمّا بكاؤه أهل القلب، فالظاهر أنه كان مجاراة لقريش، كما يدل عليه مدحه للنبي (ص) و طلبه من بنى عبد شمس و نوفل أن لا يحاربوا الهاشميين

٢- و كانت يوم ذاك موسماً من مواسم العرب في الجاهلية يجتمعون فيها

٣- و لأجل موقف الهاشميين من النبي (ص) و المسلمين، و حمايتهم لهم في مكة، نهى الرسول (ص) عن قتل من خرج من بنى هاشم و نهى عن قتل الحارث بن نوفل، لكراهة الخروج أيضاً فقتله من لم يعرفه.

ص: ١٩٥

رسول الله، إنها قريش و خيلاؤها (١) ما آمنت منذ كفرت، و ما دلت منذ عزّت، و لم تخرج على هيئة الحرب. فقال له رسول الله (ص) اجلس، فجلس؛ فقال (ص): أشيروا عليّ. فقام عمر، فقال مثل مقاله أبي بكر، فأمره النبي بالجلوس، فجلس. (٢) ثم قام المقداد، فقال: يا رسول الله، إنها قريش و خيلاؤها، و قد آمنّا بك و صدّقناك و شهدنا أنّ ما جئت به حقّ من عند الله، و الله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا (٣) و شوكة الهراس لخضناه معك و لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: «قالوا يا موسى إنّنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت و ربّك فقاتلّا إنّنا هاهنا قاعدون» (٤).

ولكنّا نقول: اذهب أنت و ربّك، فقاتلّا، إنّنا معكم مقاتلون. والله لنقاتلنّ عن يمينك و شمالك و من بين يديك فأشرق وجه النبي (ص) و دعاه و سرّ لذلك. (٥) ثم قال: أشيروا عليّ. و إنّما يريد الأنصار لأنّ أكثر الناس منهم، و لأنّه كان يخشى أن يكونوا يرون أنّ عليهم نصرته في المدينة، إن دهمه عدوّ، لا في خارجها فقام سعد بن معاذ، فقال: بأبي أنت و أمّي يا رسول الله، كائنك أردتنا؟ فقال: نعم. فقال: فلعلّك قد خرجت على أمرٍ قد أمرت بغيره؟ قال: نعم. قال: بأبي أنت و أمّي يا رسول الله، إنّنا قد آمنّا بك و صدّقناك و شهدنا أنّ ما جئت به من حقّ من عند الله، فمرنا بما شئت؛ والله، لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر

١- الخيلاء: العجب و الكبر

٢- و نسب الواقدي و الحلبي الكلام المتقدم لعمر و قالا عن أبي بكر: إنّهُ قال فأحسن (المغازي، ج ١، ص ٤٨ و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٥٠)

٣- نوع من الشجر صلب، و الهراس كشحاح شجرٍ شائك ثمره و عبارة اللسان: شجر كبير الشوك.

٤- المائدة: ٢٤

٥- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٧٣، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٥٠.

ص: ١٩٦

لخضناه معك، و لعلّ الله يُريك ما تقرّ به عينك، فسر بنا إلى بركة الله.

فسر النبيّ (ص) و أمرهم بالمسير، و أخبرهم بأنّ الله تعالى قد وعد إحدى الطائفتين، و لن يخلف الله وعده: ثم قال: والله، لكأنّي أنظر إلى مصرع أبي جهل بن هشام و عتبة بن ربيعة و شيبة و ... و سار حتّى نزل بدرًا.

عَدَّة و عدد المسلمين و المشركين

و كان رسول الله (ص) قد خرج في ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلاً، عدد أصحاب الطّالوت و هو قول عامّة السّلف. (١) و كان معهم من الإبل سبعون بغيراً يتعاقبون عليها، الإثنان و الثلاثة. فكان النبيّ (ص) و عليّ (ع) و مرثد بن أبي مرثد و قيل: زيد بن حارثة يعتقبون بغيراً.

و كان معه من الخيل: فرس للمقداد قطعاً بإجماع المؤرّخين. و روى ذلك عن أمير المؤمنين (ع). (٢) و قيل: و فرس للزبير، أو لمرثد، أو هما معاً.

و معهم من السّلاح ستّة أدرع و ثمانية سيوف. (٣) أمّا المشركون، فخرجوا و هم يشربون الخمر و معهم القيان يضربن بالدّفوف و قد أرجعنّ من الطّريق، و كان مع سبعمائة بغير (٤)، و من الخيل أربعمائة (٥) و قيل: مئتان و قيل: مئة فرس، (٦) و كلّهم دارع و مجموع الدّارعين فيهم ستّمائة.

١- السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٤٩

٢- تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٣٥، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٤٩، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ٢، ص ٣٨٨

٣- راجع: مناقب ابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٨٧، و البحار، ج ١٩، ص ٢٠٦، و مجمع البيان، ج ٢، ص ٢١٤

٤- راجع: ما تقدم في المصادر المتقدمة في الهوامش المختلفة

٥- تفسير القمي، ج ١، ص ٢٦٧

٦- راجع: مناقب ابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٨٧، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٤٦، و البحار، ج ١٩، ص ٢٤٤ و ٢٠٦.

ص: ١٩٧

مواقع الجيشين

و سبق المشركون إلى بدرٍ فنزّلوا في العُدوة القُصوى، في جانب الوادي ممّا يلي مكّة، حيث الماء و كانت العير خلف المشركين. (١) قال تعالى: «وَالرَّكْبُ أَشْفَلَ مِنْكُمْ» (٢) و محلّ نزولهم كان صلباً.

و نزل المسلمون في العُدوة الدّنيا، أي جانب الوادي ممّا يلي المدينة، حيث لا ماء، و حيث الأرض رخوة، لا تستقرّ عليها قدم؛ ممّا يعنى أنّ منزل المسلمين كان من وجهة نظر عسكريّة غير مناسب، و لكنّ الله أيّد عباده و نصرهم على عدوّهم، و جاء المطر ليلاً على المشركين، فأوحلت (٣) أرضهم؛ و على المسلمين، فلبدّها (٤) و جعلها صُلْبَةً و جعلوا الماء في الحياض. (٥)

في المواجهة

و لما أصبح رسول الله (ص) عبّاً أصحابه و كانت رايته مع أمير المؤمنين (ع) (٦) و

١- و لسوف يأتي: أنّ العير قد سلمت؛ لأنّ اباسفیان قد سلك بها طريق البحر و ابتعد عن المدينة و عن مسير المسلمين

٢- الأنفال: ٤٢

٣- الوَحْل: الطّين الرقيق ترتطم فيه الدّوابّ و أوحل الأرض: أوقعها في الوحل

٤- لَبَدَ المطر الأرض: رشّها و ألصق بعضها ببعض

٥- السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٢٧١ و ٢٧٢، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٧٥، و تاريخ الطبري (ط الاستقامة)، ج ٢، ص

١٤٤، و السيرة الحليّة، ج ٢، ص ١٥٤

٦- مناقب الخوارزمي، ص ١٠٢؛ و الآحاد و المثاني لابن أبي عاصم النبيل مخطوط في مكتبة كوبرلي، رقم ٢٣٥، و مسند الكلابي في

آخر مناقب ابن المغازلي، ص ٤٣٤.

ص: ١٩٨

كان (ع) صاحب لواء رسول الله (ص) في بدر و في كل مشهد. (١) فما يقال: من أنه كان لرسول الله (ص) في بدر أكثر من لواء، مع مُصعب بن عُمير، أو الحُباب بن المُنذر، في غير محلّه؛ إلّا أن يكون مرادهم: أن لواء المهاجرين كان مع مُصعب و لواء الأنصار كان مع الحُباب، و نحو ذلك.

و أرسل رسول الله (ص) إلى المشركين، يقول لهم: «معاشر قريش، إنني أكره أن أبدأكم بقتال، فخلّوني و العرب و ارجعوا؛ فإن أكُ صادقاً فأنتم أعلى بي عيناً و إن أكُ كاذباً كفتكم ذُوبان العرب أُمري».

و يقال: إن عتبة رَجِح للمشركين قبول ذلك، فرماه أبوجهل بالجبن، و أنه انتفخ سَخْرُهُ (٢) لَمَّا رأى محمّداً و أصحابه، كلّاً و الله لا نرجع حتّى يحكم الله بيننا و بين محمّد، و استوسقوا (٣) على ما هم عليه من الشرّ و تقدّموا يطلبون البراز.

و كان أوّل من برز للقتال عُتْبَةُ، و شيبة، و الوليد. فبرز إليهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا لهم: ارجعوا فإننا لسنا إياكم نريد؛ إنّما نريد الأكفاء من قريش، فأرجعهم النّبيّ (ص) و بدأ بأهل بيته؛ لأنّه كره أن تكون البداية بالأنصار (٤)، و ندب عبيدة بن الحارث، و حمزة، و عليّاً، قائلاً: قوموا يا عُبيدة، يا عمّ و يا علي، فاطلبوا بحقّكم الذي جعله الله لكم

فقتل علي (ع) الوليد، و جاء فوجد حمزة معتقاً شيبة، بعد أن تثلمت (٥) في أيديهما السيوف؛ فقال: يا عمّ طأطئ رأسك و كان حمزة طويلاً فأدخل رأسه

- ١- ترجمه الإمام أميرالمؤمنين، من تاريخ ابن عساكر، بتحقيق المحمودي، ج ١، ص ١٤٥
- ٢- انتفاخ السّخر كناية عن الجبن؛ و السّخر: الرّثّة. يقال: كلّ ذي سَخَرٍ يتنفّس: أي كلّ ذي رثّة
- ٣- استوسقوا: اجتمعوا
- ٤- تفسير القمي، ج ١، ص ٢٦٤، و البحار، ج ١٩، ص ٣١٣ و ٣٥٣، و سعد السعود، ص ١٠٢
- ٥- تثلم السّيف: انكسر.

ص: ١٩٩

في صدر شيبه، فاعترضه على (ع) بالسيف فطير نصف رأسه. و كان عتبه قد قطع رجل عبيده، و فلق عبيده هامته، فجاء على (ع)، فأجهز على عتبه أيضاً. فيكون أمير المؤمنين (ع) قد شرك في قتل الثلاثة. (١) و ممّا يدل على أنّه شرك في قتلهم جميعاً، كتابه لمعاوية: «فأنا أبو الحسن حقاً، قاتل جدك عتبه، و عمك شيبه، و خالك الوليد، و أخيك حنظله، الذين سفك الله دماءهم على يدي في يوم بدر...» (٢) و لما رأى أبو جهل مقتل عتبه و شيبه و الوليد، حاول إنقاذ الموقف؛ فقال: لا تعجلوا و لا تبطروا كما بطر ابنا ربيعه. عليكم بأهل يثرب، فاجزروهم جزراً، و عليكم بقریش، فخذوهم أخذاً، حتّى ندخلهم مكّه، فنعرّفهم ضلالتهم التي هم عليها. و يذكر ابن عباس في قوله تعالى: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» (٣):

إنّ الثبتي (ص) بأمر من جبرائيل قال لعلی (ع): ناوّلني كفاً من حصباء، فناوله، فرمى به في وجوه القوم، فما بقي أحدٌ إلّا امتلأت عينه من الحصى. ثم ردّفهم المؤمنون يقتلونهم و يأسرونهم. (٤)

الملائكة في بدر

و قد أمّد الله المسلمين بالملائكة لتثبيت قلوبهم؛ و في كونهم حاربوا، خلافاً، ظاهر القرآن ربّما لا يساعد عليه، حيث يقول تعالى: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَ

١- راجع: المناقب، ج ٣، ص ١١٩ عن صاحب الأغاني و غيره

٢- الفتوح لابن أعثم، ج ٢، ص ٤٣٥، و نهج البلاغه بشرح عبده، ج ٣، ص ١٣، و الغدير، ج ١٠، ص ١٥١

٣- الأنفال: ١٧

٤- البحار، ج ١٩، ص ٢٢٩ عن تفسير الثعلبي، و المناقب لابن شهر آشوب، ج ١، ص ١٨٩.

ص: ٢٠٠

لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ» (١).

ولكن ثمة آية أخرى تشير إلى اشتراكهم بالقتال و هي قوله تعالى: «إِذْ يُوْحَىٰ رُبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» (٢).

هذا إذا كان قوله تعالى: «فاضربوا» خطاباً للملائكة، كما لعلة الظاهر، وإن كان خطاباً للمقاتلين من الناس، فلا دلالة في الآية على ذلك أيضاً.

و مهما يكن من أمر، فإنَّ الملائكة كانوا يتشبهون بأُمير المؤمنين (ع) (٣) و لربما كانوا هم الوسيلة لتكثير المسلمين في أعين المشركين أثناء القتال، كما قال تعالى: «وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَغْنِيَهُمْ» (٤) (٥).

وهزم الله المشركين شرَّ هزيمة، و قُتل أبوجهل، و كان رسول الله (ص) قد أوعده أن يقتله الله بأضعف أصحابه، بل أخبر (ص) بكلِّ ما جرى في بدر قبل وقوعه، (٦) فقتله رجل أنصاري، و احتزَّ رأسه ابن مسعود.

و كان أوَّل من انهزم في بدر إبليس لعنه الله؛ فإنَّه كان قد تبدَّى للمشركين كما جاء في الرواية بصورة سراقه بن مالك المذليجي، من أشرف كنانته؛ فلما رأى ما جرى للمشركين، و رأى الملائكة مع المسلمين، نكص على عقبيه، فانهزم المشركون.

١- الأنفال: ١٥

٢- الأنفال: ١٢

٣- البحار، ج ١٦، ص ١٨٥، عن المناقب

٤- الأنفال: ٤٤

٥- كذا في الأصل و لكنَّ الظاهر أنَّه سهوٌ و الظاهر أنَّ الآية الدالة على ذلك هي الآية ١٣ من سورة آل عمران: «و أخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين»

٦- البحار، ج ١٩، ص ٢٦٧ عن الاحتجاج، و التفسير المنسوب للإمام العسكري (ع)، ص ١١٨ و ١١٩.

ص: ٢٠١

و روى: أن أباسفيان لما أبلغ العير إلى مكّة رجع و لحق بجيش قريش، فمضى معهم إلى بدر، فجرح يومئذ جراحات، و أفلت هارباً، و لحق بمكّة راجلاً. (١)

نتائج الحرب

و قُتل في بدر سبعون، و أُسر مثلهم. و استشهد من المسلمين تسعة و قيل أحد عشر، و قيل أربعة عشر؛ سته من المهاجرين و ثمانية من الأنصار. و لم يؤسر من المسلمين أحد. و غنموا من المشركين مئة و خمسين بغيراً و عشرة أفراس، و عند ابن الأثير ثلاثين فرساً، و متاعاً، و سلاحاً، و أنطاعاً، (٢) و ثياباً، و أدماً (٣) كثيراً.

بطولات علي (ع)

و أكثر قتلى المشركين قُتلوا على أيدي المهاجرين، و بالتحديد على يد أهل بيت النبي (ص) و بالذات على يد علي (ع). و قد سمّاه الكفّار يوم بدر بـ (الموت الأحمر) لعظم بلائه و نكايته. (٤) و كيف لا و نحن نرى الشعبي يقول: «كان على أشجع الناس تقرّ بذلك العرب». (٥) و لماذا لا يسمّى (ع) بالموت الأحمر؟ و هو الذي تقول في حقّه بعض الروايات: إن جبرائيل قد نادى بين السماء و الأرض في بدر:

- ١- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٧٥
- ٢- الأنطاع جمع النطع و هو بساط من الأديم
- ٣- الأدم جمع الإدام و الإدام كلّ موافق و ملائم، و منه إدام الطعام و هو ما يجعل مع الخبز فيطيبه
- ٤- المناقب لابن شهر آشوب، ج ٢، ص ٦٨
- ٥- نور القبس، ص ٢٤٩.

ص: ٢٠٢

لا فتى إلّا على لا سيف إلّا ذوالفقار

و يقال: إنّ هذه المناداة كانت في أحد، و ستأتى مع بعض الكلام حولها إن شاء الله. و قد قُتل (ع) من المشركين في بدر نصف السبعين و شارك في قتل التّصف الآخر (١). و قد عدّ الشيخ المفيد ستّة و ثلاثين بأسمائهم ممّن قتلهم أمير المؤمنين (ع). (٢) و قال ابن إسحاق: أكثر قتلى المشركين يوم بدر كان لعلّى (٣) و قال الطبرسى و القمى: إنّهُ قُتل منهم سبعة و عشرين (٤) و يلاحظ: أنّ حرب بدر و أُحُد و غيرهما قد أثّرت في قلوب القرشيين أثراً بعيداً حتّى قيل: كانت قريش و إذا رأت أمير المؤمنين في كتيبة، تواصت خوفاً منه، و نظر إليه رجلٌ و قد شقّ العسكر، فقال: قد علمت أنّ ملك الموت في جانب الذى فيه علّى (٥) و من هنا نجد قريش لم تستطع أن تحبّ علّياً و أهل بيته، رغم أنّها تتظاهر بالإسلام، و رغم النصوص القرآنية و النبوية الآمرة بمحبّتهم و مودّتهم.

و عن ابن عباس: قال عثمان لعلّى: «ما ذنبى إذا لم تحبّك قريش، و قد قتلت منهم سبعين رجلاً، كأنّ وجوههم سيوف (أو شنوف) الذهب» (٦) هذا و قد ظلّ الأحلاف يتحينون الفرص للأخذ بثارات بدر و أُحُد و غيرهما، و قد فشلوا في حرب الجمل و صفّين، إلى أن سنحت لهم الفرصة، بزعمهم في

١- راجع: نهج الحق الموجود في ضمن دلائل الصدق، ج ٢، ص ٣٥٣

٢- الإرشاد، ص ٤٣ و ٤٤

٣- المناقب لابن شهر آشوب، ج ٣، ص ١٢٠، و البحار، ج ١٩، ص ٢٩١

٤- راجع: تفسير القمى، ج ١، ص ٢٧١، و البحار، ج ١٩، ص ٢٤٠ عن مجمع البيان

٥- محاضرات الأدباء للزّاغب الإصفهاني، ج ٢، ص ١٣٨

٦- معرفة الصحابة لأبى نعيم الورق ٢٢، مخطوط في مكتبة طوب قپوسراى، رقم ١/ ٤٩٧، و شرح النهج للمعتزلى، ج ٩، ص ٢٢.

ص: ٢٠٣

واقعه كربلاء المشهورة، ثم ما أعقبها من ظلم واضطهاد لأهل البيت و شيعتهم.
 و نجد أن يزيد الطاغية لم يستطع أن يخفى دوافعه و كفره، و أنه يريد الثأر لأشياخه في بدر، فتمثل بأبيات ابن الزبيري، و أضاف إليها إنكاره الوحي و النبوة، فقال و هو ينكت ثانيا سيد شباب أهل الجنة بالقضيب:
 ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
 لأهلوا و استهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل
 قد قتلنا القوم من أشياخهم وعدلناه ببدر فاعتدل
 لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء و لا وحي نزل
 لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل(١)

الغنائم و الأسرى

جمع النبي (ص) الغنائم و سلمها لعبد الله بن كعب، و أمرهم بمعاونته في حملها و حفظها، و لم يقسمها إلّا و هو في طريقه إلى المدينة، و ذلك من أجل أن تخف حدة الخلاف فيما بين أصحابه و تعود إليهم حالتهم الطبيعية، بعيداً عن نزوات (٢) آمالهم الدنيوية. فقسمها بينهم آنئذٍ و لم يخرج منها الخمس.
 و أمّا الأسرى، فقد أسر من المشركين سبعون رجلاً كما تقدّم، و تحرّك (ص) نحو المدينة، فلمّا بلغ الصفراء أمر أمير المؤمنين (ع) بأن يضرب عنق أسيرين هما: عتبة بن أبي معيط ذو السوابق السيئة المعروفة مع المسلمين و النبي (ص) في مكة و النضر بن الحارث الذي يعذب المسلمين في مكة.
 و لمّا رأى الأنصار ما جرى للنضر و لعقبة، خافوا أن يقتل (ص) جميع الأسارى،

١- مقتل الحسين للمقرّم، ص ٤٤٩ و ٤٥٠، و اللهوف، ص ٧٥ و ٧٦

٢- النزوات جمع النزوة و هي المرّة و القصير من الأشياء.

ص: ٢٠٤

فقالوا: يا رسول الله، قتلنا سبعين، و هم قومك و أُسْرْتُكَ أَتَجِدُّ (١) أصلهم؟ هبهم لنا، و خذ منهم الفداء و أطلقهم. ولكنَّ النَّبِيَّ (ص) كره أخذ الفداء، حتَّى رأى ذلك سعد بن معاذ في وجهه، فقال: يا رسول الله، هذه أوّل حرب لقينا فيها المشركين، و الإثخان في القتل أحبّ إلينا من استبقاء الرّجال. و نزل في هذه المناسبة قوله تعالى: «ما كان لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (٢). و لَمَّا رأى النَّبِيُّ (ص) إصرارهم على أخذ الفداء، أخبرهم: أن أخذ الفداء سوف تكون عاقبته هو أن يقتل من المسلمين بعدد الأسرى، فقبلوا ذلك و تحقّق ما أوعدهم به (ص) في واقعه أُحُد، كما سنرى (٣) و تقرّر الأمر على الفداء، و جعل فداء كلّ أسير من ألف إلى أربعة آلاف، و صارت قريش تبعث بالفداء أوّلًا بأوّل، و أعطى (ص) كلّ رجل من أصحابه الأسير الذي أسر، فكان هو يفاديه بنفسه (٤) و كان من جملة الأسرى عباس و عقیل، و قد سهر النَّبِيُّ (ص) ليلة، فقال له بعض أصحابه: ما يسهرك يا نبي الله؟ قال: أنين العباس (٥) فقام رجل من القوم،

١- جذّه: قطعه مستأصلاً

٢- الأنفال: ٦٧ و ٦٨

٣- راجع: تاريخ الطبري، ج ١، ص ١٦٩، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٩٠، و صحيح مسلم، ج ٥، ص ١٧٥ و أسباب النزول للواحدي، ص ١٣٧، و حياة الصحابة، ج ٢، ص ٤٢، و كنز العمال، ج ٥، ص ٢٦٥ عن أحمد و مسلم

٤- المصنّف، ج ٥، ص ٢١١

٥- الظاهر أن مكان العباس كان قريباً من النَّبِيِّ (ص) فمنعه أنينه من الراحة، لا أنّه كان يعطف عليه خاصة دون غيره من الأسرى.

ص: ٢٠٥

فأرخصي من وثاقه؛ فقال رسول الله (ص): ما بالي ما أسمع أنين العباس؟ فقال رجل من القوم: إنني أرخيت من وثاقه شيئاً. فقال (ص): «فافعل ذلك بالأسارى كلهم» (١). وهذه الرواية التي تمثل عدل النبي (ص) ودقته في مراعاة الأحكام الإلهية و صلابته في الدين؛ فإنه (ص) لم يكن ليرفق بأقاربه، ويعنف بغيرهم.

و أمره بمفاداة نفسه، وعقيلاً و نوفلاً ابني أخيه، فأنكر أن يكون له مال؛ فقال له (ص): أعط ما خلفته عند أم الفضل، فقلت لها: إن أصابني شيء، فأنفقيه على نفسك و ولدك. فسأله من أخبره بهذا، فلما عرف أنه جبرائيل قال: محلوقة، (٢) ما علم بهذا أحد إلا أنا و هي؛ أشهد أنك رسول الله.

فرجع الأسارى كلهم مشركين، إلا العباس و عقيلاً و نوفلاً و فيهم نزلت هذه الآية: (٣)
 «قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرَ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٤).
 و في نص آخر: أنه لما طلب منه الفداء، ادعى: أنه كان قد أسلم، لكن القوم استكروه. فقال له (ص): الله أعلم بإسلامك، إن يكن ما تقول حقاً فإن الله يجزيك عليه، فأما ظاهر أمرك فقد كنت علينا. (٥) و هذا يدل على أنه لا مجال لدعوى: أن العباس كان قد أسلم قبل بدر سراً،

١- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٩٠، و صفه الصفوة، ج ١، ص ٥١٠

٢- المحلوقة: القسم

٣- راجع: تفسير البرهان، ج ٢، ص ٩٤ و الرواية معتبرة السند، و راجع أيضاً: تفسير الكشاف، ج ٢، ص ٢٣٨ و غير ذلك

٤- الأنفال: ٧٠

٥- البحار، ج ١٩، ص ٢٥٨، و تفسير القمي، ج ١، ص ٢٦٨؛ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٩٠، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ١٩٨.

ص: ٢٠٦

كما عن البعض،^(١) إلّا إذا أراد أن يستند في ذلك إلى دعوى العباس نفسه، و هي دعوى لم يقبلها منه رسول الله (ص). بل لقد جاء أنّه لم يظهر للعباس إسلامٌ إلّا عام الفتح.^(٢) وهذا هو الأقرب إلى الصواب؛ فإنّه إن كان قد أسلم في بدر كما يدلّ عليه ما تقدّم ولا سيّما روايته تفسير البرهان المعتبر سنداً فإنّما أسلم سرّاً، و كان يتظاهر للمشركين بما يرضيهم حفاظاً على مصالحه و أمواله و علاقاته؛ فإنّ قريشاً لم تكن تتحمّل وجود مسلم بينها هذه السّنوات الطويلة، و حروبها مع محمّد قائمه على ساق، و لا سيّما إذا كان ذلك المسلم هو عمّ ذلك الرّجل.

و ربّما يقال: إنّ النّبى (ص) قد أمره بالمقام بين أظهرهم ليكون عيناً له، و يقال: إنّّه كان يكتب للنّبى (ص) بأخبارهم، و قد أخبره بحرب أحد على ما يظنّ؛ و لكن ذلك لا يدلّ على إسلامه، نعم، هو يدلّ على نصحه لرسول الله (ص)، و لو بدوافع الرّحم و الحميّة، فلا بدّ أن يُعرّف الرّسول (ص) ذلك له و يكافئه عليه.

فداء الأسير تعليم الكتابة

قال المقرئى: «و كان فى الأسرى من يكتب و لم يكن فى الأنصار من يحسن الكتابة، و كان منهم من لا مال له، فيقبل منهم أن يعلم عشرة من الغلمان، و يخلّى سبيله؛ فيومئذٍ تعلّم زيد بن ثابت الكتابة فى جماعة من غلمان الأنصار...»^(٣).

١- راجع: البداية و النهاية، ج ٣، ص ٣٠٨، و السيرة الحليّة، ج ٢، ص ١٨٨ و ١٩٨، و طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٢٠، قسم ١

٢- السيرة الحليّة، ج ٢، ص ١٩٩

٣- راجع: التّرايب الإداريّة، ج ١، ص ٤٨ و ٤٩ عن المطالع النصريّة فى الأصول الخطيّة لأبى الوفاء نصر الدّين الهورينى، و عن السهيلي و مسند أحمد، ج ١، ص ٢٤٧، و الإمتاع، ص ١٠١، و الروض الأنف، ج ٣، ص ٨٤.

ص: ٢٠٧

و نقول: إنَّ جعلَ فداء الأسرى هو تعليم عشرة من أطفال المسلمين، ليعتبر أول دعوة في التاريخ لمحو الأمية، سبق الإسلام بها جميع الأمم، وذلك يعبر عن مدى اهتمام الإسلام بالعلم في وقت كانت فيه أعظم الدول كدولة الأكاسرة تمنع بصورة قاطعة من تعليم القراءة و الكتابة لأحد من غير الهيئة الحاكمة، حتى إنَّ أحد التجار قد عرض أن يقدم جميع الأموال اللازمة لحرب أنوشيروان مع قيصر الروم على أن يسمح له بتعليم ولده. (١) بل لقد كانت بعض الفئات العريضة تعد المعرفة بالكتابة عيباً. (٢) وهذا الإسلام قد جاء ليطلق أعدى أعدائه، في أدق الظروف و أخطرهما في مقابل تعليمهم لعشرة من غلمان المسلمين.

عودة خيبة و ظفر

رجع المحاربون المشركون إلى مكة بأسوأ حال من الحقن و الغيظ؛ فنهاهم أبوسفیان عن التّوح على قتلاهم، و منع الشعراء من ندب القتلى؛ لئلا يخفف ذلك من غيظهم، و يقلل من عداوتهم للمسلمين، و حتى لا يبلغ المسلمين حزنهم، فيشمتوا بهم. و حرّم أبوسفیان الطّيب و النّساء على نفسه، حتى يغزو محمّداً، و كذلك كان موقف زوجته هند، التي اعتزلت فراشه و امتنعت عن الطّيب. و في الجبهة الأخرى، فقد أرسل النّبي (ص) يبشّر أهل المدينة بالنّصر المبین، فلم يصدّق البعض ذلك في بادى الأمر، ثم تأكد لديهم أنّه حقّ، فرح المؤمنون، و استقبلوا الرّسول (ص) فرحين مسرورين.

١- خدمات متقابل اسلام و ايران، ص ٢٨٣ و ٢٨٤ و ٣١٤، و راجع: ص ٣١٠ عن شاهنامه فردوسی، ج ٦، ص ٢٦٠ ٢٥٨

٢- الشعر و الشعراء، ص ٣٣٤، و التراتيب الإداريّة، ج ٢، ص ٢٤٨.

ص: ٢٠٨

و قدم الأسارى المدينة بعد قدومه (ص) ففرّقهم بين المسلمين، و قال: استوصوا بهم خيراً، إلى أن فداهم أهل مكّة. ثم أرسل (ص) عبدالله بن رواحه مبشراً إلى أهل العالية ما كان من جهة نجد من المدينة و بعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة ما كان في جهة تهامة بما فتح الله على رسوله و على المسلمين.

بعض نتائج حرب بدر

١. إن قريشاً التي كانت تحب الحياة قد واجهت في بدر ضربة روحية قاسية جداً، و أصابها هلع (١) قاتل، و هي ترى أن حياتها مع هؤلاء المسلمين قد أصبحت في خطر حقيقى. و قد كان لهذا الخوف و الهلع أثر لا ينكر على حروبها اللاحقة مع المسلمين؛ فإن الخائف اللجوج بطبيعته يتخذ الاحتياطات كافة لتأمين النصر لنفسه مع احتفاظه بالحياة؛ و لذا فقد حاولت قريش في حملاتها اللاحقة أن تكون أكثر دقة و تركيزاً، و أوسع حشداً (٢) و استعداداً، من أجل القضاء على هذه الحركة التي تراها تهدد مصالحها و امتيازاتها في المنطقة؛ اجتماعياً، و سياسياً و اقتصادياً و غير ذلك.
٢. و من الجهة الأخرى، فقد قويت نفوس المسلمين بذلك و عادت لهم الثقة بأنفسهم بصورة ظاهرة، و شجعهم هذا الانتصار غير المتوقع على مواجهة ما كان إلى الأمس القريب، يربهم حتى احتماله، فضلاً عن التفكير فيه أو مواجهته. و قد كان هذا الانتصار فى المستوى الذى صعب على بعض أهل المدينة التصديق به.
٣. لقد أعانتهم تلك الغنائم التي حصلوا عليها إلى حد كبير على مواجهة

١- الهلع: الجزع و قيل: أفحش الجزع

٢- الحشد و الحشد: الجماعة.

ص: ٢٠٩

مشاكلهم الاقتصادية المُلِحَّة، (١) كما أنَّها فتحت شَهِيَّة (٢) الطَّامعين و جعلتهم على استعداد للمشاركة؛ بل و يتطلَّعون إلى نظائرها في المستقبل.

٤. ثمَّ إنَّه قد أصبح ينظر إلى المسلمين في المنطقة على أنَّهم قوَّة فعَّالة، لا بدَّ أن يحسب حسابها، و هابتهم القبائل، و بدأت تخطب و دَّهم و تتقرَّب إليهم و لم يعد من السَّهل عليها أن تنقض ما أبرمته معهم من معاهدات. بل و أصبحت تتوقَّع لهم انتصارات أخرى أيضاً، حتَّى ليقول اليعقوبى عن وقعة ذى قار، الَّتى كانت بعد بدر بأربعة أشهر: «و أعزَّ الله نبيَّه و قتل من قريش، فأوفدت العرب وفودها إلى رسول الله، و حاربت ربيعة كسرى، و كانت وقعتهم بذى قار، فقالوا: عليكم بشعار التَّهامى فنادوا: يا محمَّد، يا محمَّد؛ فهزموا جيوش كسرى». (٣)

١- المُلَح: الَّذى يقوم من الإعياء و لا يبرح، و أَلَحَّ فى السَّؤال: ألحف و أقبل عليه مواظباً

٢- الشَّهِيَّة: حركة النَّفس طلباً للملائهم و شىء شهى أى لذيد

٣- تاريخ اليعقوبى (ط. صادر) ج ٢، ص ٤٦

ص: ٢١٣

الفصل الخامس غزوة أُمد

أجواء و مواقف

و في سنة ثلاث، في شهر شَوَّال، يوم السَّبْت على الأشهر، كانت غزوة أُمد،^(١) و ذلك أن نتائج حرب بدر كانت قاسية على مشركي مكة، و مفاجأة لليهود و المنافقين في المدينة.

فمضت قريش بعد الآن تستعدّ لقتال النَّبِيِّ (ص) و تُعَيِّد النفوس و تجهز القوى الحربية لأخذ الثار و محو العار، و مضى اليهود الذين أصبحوا يخافون على مركزهم السياسي و الاقتصادي في المنطقة و على هيمنتهم الثقافية أيضاً يحرضون المشركين على الثار ممّن وترهم، و أعلنوا بالحق و نقض العهد.

و من جهة النَّبِيِّ (ص) و من معه من المسلمين؛ فإنهم لن يتخلّوا عن قبلتهم، الكعبة و لن يتركوا قريشاً و غرورها، لا سيّما بعد تعدّيها عليهم و ظلمها القبيح لهم، حتّى اضطرّهم إلى الهجرة من ديارهم و ترك كل ما يملكون.

جيش المشركين إلى أُمد

و كانت العير التي كانت وقعة بدر من أجلها و هي ألف بعير كما قالوا قد بقيت سالمة و محتبسة في دار الندوة، و اتفقوا مع أصحابها على أن يعطوهم رؤوس أموالهم، و هي خمسة و عشرون أو خمسون ألف دينار على اختلاف

١- أحد جبل أحمر في شمالي المدينة، بينه و بين المدينة قرابة ميل (معجم البلدان).

ص: ٢١٤

الثقل على أن يصرف الرّبح في قتال المسلمين، و كان كلّ دينار يربح ديناراً، و هو مبلغ هائل في وقت كانت للمال فيه قيمة كبيرة. و بعثوا الرّسل إلى القبائل ستنصرونهم، و خرجت قريش بِحِدّها و بِحِدّها و أحابيشها (١) و من تابعها، و أخرجوا معهم بالظّعن (٢) خمس عشرة إمراً، فيهنّ هند بنت عتبة، لثلاً يفرّوا، و لثيدّ كرونهم قتلى بدر، يغنّين و يضرّبن بالدّفوف ليكون أجّد لهم في القتال، و خرج معهم الفتيان بالمعازف، و الغلمان بالخمور، و كان جيش المشركين ثلاثة آلاف مقاتل. و كان فيهم سبعمائه دارع و مئتا فارس على المشهور، و معهم ألف و قيل ثلاثة آلاف بعير، و كلّهم بقيادة أبي سفيان الذي صار زعيم قريش بعد قتل أشرافها في بدر. (٣) و سارت قريش حتّى نزلت بذي الحليفة، و سرّحوا إبلهم في زروع المدينة، و أرسل النّبى (ص) بعض العيون لمراقبتهم، و أرسل أيضاً الحُباب بن المنذر سرّاً لمعرفة عددهم و عُمدّتهم، و قال له: إذا رجعت فلا تخبرني بين أحد من المسلمين إلّا أن ترى في القوم قلّة، فرجع إليه فأخبره خالياً و أمره الرّسول (ص) بالكتمان. (٤)

النّبى (ص) يَسْتَشِيرُ أَصْحَابَهُ

إنّه لما نزل المشركون قرب المدينة و بثّ المسلمون الحرس عليها و خصوصاً على مسجد الرّسول و أراد الشّخص، فجتمع أصحابه للتّشاور في أمر جيش لم

١- يريد « بأحابيشها»: من اجتمع إلى العرب و انضمّ إليهم من غيرهم

٢- يريد (بالظّعن): النّساء في الهواج

٣- راجع: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٢٢ ٤١٩، و السيرة الحليّة، ج ٢، ص ٢١٧ و ٢١٨، و السيرة النبويّة لدحلان (مطبوع بهامش

الحليّة، ج ٢، ص ٢١ و ٢٦، و المغازى للواقدي، ج ١، ص ٢٠٤ و ٢٠٦

٤- المغازى للواقدي، ج ١، ص ٢٠٧ و ٢٠٨.

ص: ٢١٥

ي

واجه المسلمون مثله من قبل، عُدَّةً و عددًا.

فأشار عبدالله بن أبي بالبقاء في المدينة، فإذا أقبل العدو رماه الأطفال و النسوة بالحجارة و قاتله الرجال بالسِّكِّكِ، (١) و إن أقام في خارج المدينة، أقام في شرّ موضع؛ و لكن من لم يشهد بدرًا، و طائفة من الشباب المتحمسين (٢) الذين ذاقوا حلاوة النصر في بدر، و معهم حمزة بن عبدالمطلب و أهل السن، قد رغبوا بالخروج و أصروا عليه؛ و احتجوا لذلك: بأن إقامتهم في المدينة ستجعل عدوهم يظنّ فيهم الجبن فيجرؤ عليهم.

و غالب الروايات، بل كلّها متّفقة على أنّ النّبِيَّ (ص) كان يُرَجِّح البقاء في المدينة، و لكن إصرار أصحابه هو الذي دعاه إلى العدول عن هذا الرّأى.

ولكنّ العلّامة السيّد الحسنی (رحمه الله) يرى: أنّ النّبِيَّ (ص) كان يرى الخروج إلى العدو، عكس رأى ابن أبي، و إنّما استشارهم ليختبر نواياهم، و لمّا اختبرهم و عرف نواياهم، أعلن عن رأيه الذي كان قد انطوى عليه من أوّل الأمر.

قال: و يريّح ذلك: أنّه لمّا خرج المسلمون إلى أحد، رجع ابن أبي في ثلاثمائة و خمسين من أتباعه المنافقين و بعض اليهود إلى المدينة بلاسبب.

و في رواية: أنّه هو نفسه (ص) أمرهم بالرجوع، و قال: لا نحارب المشركين بالمشركين.

إذاً، فالخروج من المدينة هو الأصوب، ولو أنّه بقى فيها لأصبح خلال ساعات معدودات تحت رحمة المشركين. انتهى ملخصاً. (٣)
ولكنّا لا نوافق العلّامة الحسنی على أنّ النّبِيَّ الأعظم (ص) كان يتعامل مع أصحابه بهذه الطّريقة الماكرة، فيُظهر لهم خلاف ما يبطن! نعوذ بالله من الزّلل و الخطل في القول و العمل.

١- جمع السكّة، الرّقاق و قيل الطّريقة المصطفّة من النخل

٢- تحمّس: هاج و غضب لأمرٍ

٣- سيرة المصطفى، ص ٣٩٩ ٣٩٦.

ص: ٢١٦

إلّا أن يكون مقصوده أنّه (ص) لم يُظهر لهم رأيه، بل تركهم يُظهرون له ما في نفوسهم من دون أي تحفّظ أو حياءٍ، و ليتحمّلوا، ثم ليتألّفهم بذلك، حتّى إذا اختلفوا كان هو الحاسم للخلاق برأيه الصائب و موقفه الحكيم.

و أخيراً، فإنّ لنا تحفّظاً أعلى ما ذكره من أنّ ابن أبي قد رجع بمن معه من المنافقين و بعض اليهود فإنّ ذكر اليهود هنا في غير محلّه؛ لأنّه (ص) لم يكن يحدّد الاستعانة باليهود، كما أنّهم هم أنفسهم ما كانوا ليعينوه على قتال عدوّه، و لا يرضى قومهم بذلك منهم إلّا إذا كانوا يريدون أن يكونوا في جيش المسلمين عيوناً للمشرّكين. و لم يكن ذلك ليخفى على النّبىّ (ص) و لا المسلمين، و لعلّه لأجل ذلك نجده (ص) قد رفض قبولهم في هذه الغزوة بالذات، و أرجعهم.

عقد الأولوية

و بعد أن استشار رسول الله (ص) أصحابه و خرج عليهم لأبساً لامة حربه، استخلف على المدينة ابن أمّ مكتوم و عقد الأولوية، فأعطى اللّواء أمير المؤمنين (ع)، كما نصّ عليه البعض (١) و يقال: إنّ اللّواء الأعظم (٢)، و كان لواء الأوس مع أسيد بن حُصير، و لواء الخزرج مع حُباب بن المُنذر، و قيل: مع سعد بن عباد.

قال القوشجى، فى غزاة أحد جمع له الرّسول (ص) بين اللّواء و الرّاية (٣) و عن أبى رافع قال: كانت راية رسول الله (ص) يوم أحد مع على و راية المشرّكين مع

١- الأوائل لأبى هلال، ج ١، ص ١٨٣، و الثقات لابن حبان، ج ١، ص ٢٢٤ و ٢٢٥ و راجع: البحار، ج ٢٠، ص ٤٩ و تفسير القمى، ج ١، ص ١١٢

٢- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٢٦ عن المنتقى

٣- شرح التجريد، ص ٤٨٦.

ص: ٢١٧

طلحة بن أبي طلحة. (١) ويظهر من بعض الروايات الفرق بين اللواء والراية، وقد قالوا: إن الراية كانت في يد قصي، ثم انتقلت في ولده حتى انتهت إلى النبي (ص) فأعطاها رسول الله (ص) لعلّي في غزاة ودان، ثم لم تزل مع عليّ في المشاهد، في بدر و أحد؛ و كان اللواء يومئذ في بني عبد الدار، فأعطاه رسول الله (ص) لمصعب بن عمير، فاستشهد، و وقع اللواء من يده فتشوّفته القبائل، فأخذه رسول الله (ص) فدفعه إلى علي، فجمع له يومئذ الراية و اللواء فهما إلى اليوم في بني هاشم. (٢) و يظهر أن هذا هو مراد القوشجي من كلامه الآنف.

و نقول: إن هذه الروايات تنافي ما نقل عن ابن عباس، (٣) و جابر و قتادة (٤) من أنه (ع) كان صاحب لوائه (ص) في كلّ زحف، و قد دلّت هذه الروايات على أن علياً (ع) هو صاحب لواء رسول الله (ص) و هو أيضا صاحب راية رسول الله لو كان ثمة فرق بينهما. و نحن نشكّ في ذلك، لأنّ بعض أهل اللغة ينصّون على عدم الفرق؛ (٥) فإنّ كلّاً منهما عبارة عمّا يجعله القائد من الأقمشة في طرف رمح، أو نحوه، و نجد وصف اللواء بالأعظم تارة، (٦) و وصف الراية بالعظمى أيضاً. (٧)

١- اللآلي المصنوعة، ج ١، ص ٣٦٥

٢- الإرشاد للمفيد، ص ٤٨

٣- مناقب الخوارزمي، ص ٢١ و ٢٢، و إرشاد المفيد، ص ٤٨، و تيسير المطالب، ص ٤٩

٤- راجع: كفاية الطالب، ص ٣٣٦، و كنز العمال، ج ١٥، ص ١١٩، و مناقب أمير المؤمنين لابن المغازلي، ص ٢٠٠، و عمدة القارى، ج

١٦، ص ٢١٦، و مناقب الخوارزمي، ص ٣٥٨

٥- السيرة الحليّة، ج ٢، ص ١٤٧

٦- راجع: حياة الصّحابة، ج ١، ص ٤٣١، و تاريخ ابن عساكر، ترجمه على (ع) بتحقيق المحمودي، ج ١، ص ١١٠

٧- كما في قول ابن أبي الحديد عن هزيمة الشيخين في خيبر:

و للراية العظمى و قد ذهب بها ملابس ذلّ فوقها و جلايب

ص: ٢١٨

إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ مُصْعَبَ بْنَ عَمِيرٍ كَانَ صَاحِبَ لُؤَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، فَلَمَّا اسْتَشْهَدَ فِي أَحَدٍ صَارَ لُؤَاؤُهُمْ إِلَى عَلِيٍّ؛ فَعَلَى (ص) صَاحِبِ رَايَةٍ وَ لُؤَاءِ رَسُولِ اللَّهِ، وَ هُوَ أَيْضًا صَاحِبُ لُؤَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، وَ لَعَلَّ هَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ.

عَدَّة و عدد المسلمين

ثُمَّ تَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) إِلَى أَحَدٍ وَ مَعَهُ أَلْفُ رَجُلٍ، وَ يُقَالُ: تَسْعَمَائَةٌ، وَ زَادَ بَعْضُهُمْ خَمْسِينَ. مِنْهُمْ مِئَةُ دَارِعٍ. لَيْسَ مَعَهُمْ فَرَسٌ. (١) وَ قِيلَ: مَعَ النَّبِيِّ (ص) فَرَسُهُ، وَ فَرَسٌ لِأَبِي بَرْدَةَ بْنِ نِيَارٍ. (٢) وَ قِيلَ: كَانَ مَعَهُمْ فَرَسٌ وَاحِدٌ. (٣) وَ رَجَعَ ابْنُ أَبِي مَمَّارٍ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَ أَهْلُ الرَّيْبِ، وَ كَانُوا ثَلَاثُمِائَةَ رَجُلٍ، وَ قَالَ: مُحَمَّدٌ عَصَانِي وَ أَطَاعَ الْوُلْدَانِ، سَيَعْلَمُ!! مَا نَدْرِي عِلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا وَ أَوْلَادَنَا هَهُنَا أَيُّهَا النَّاسُ؟! وَ قِيلَ: إِنَّ النَّبِيَّ (ص) أَمَرَهُمْ بِالْإِنْصِرَافِ لِكُفْرِهِمْ. (٤) فَبَقِيَ (ص) فِي سَبْعَمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ أَوْ سِتِّمِائَةٍ. وَ بَرَجُوعُ ابْنِ أَبِي سَقَطٍ فِي أَيْدِي بَنِي حَارِثَةَ وَ بَنِي سَلَمَةَ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْمَوْقِفِ الْحَقِّ. قَالَ تَعَالَى: «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا...» (٥).

١- وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٨٤ و ٢٨٥ عن ابن عقبة، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٢١

٢- تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٩٠، السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٢١

٣- مجمع الزوائد، ج ٦، ص ١١٧ عن الطبراني، و حياة الصحابة، ج ٣، ص ٧٦٩ عن كثر العمال، ج ٣، ص ١٣٥ عن الطيالسي

٤- سيرة مغلطاي، ص ٤٩

٥- آل عمران: ١٢٢.

ص: ٢١٩

التعبئة للقتال

إنَّه لَمَّا وصل النَّبِيُّ (ص) إلى منطقة القتال، اختار أن ينزل إلى جانب جبل أحد، بحيث يكون ظهرهم إلى الجبل. ثمَّ عبَّ أصحابه، و صار يسوَّى صفوفهم، حتَّى إنَّه ليرى منكب الرّجل خارجاً، فيؤخّره. و أمرهم أن لا يقاتلوا أحداً حتَّى يأمرهم. و كان على يسار المسلمين جبل عينين و هو جبل على شفير قناة، قبلى مشهد حمزة، عن يساره. (١) و كانت فيه ثعرة؛ فأقام عليها خمسين رجلاً من الرّماء، عليهم عبدالله بن جبیر، و أوصاه: أن يردّوا الخيل عنهم، لا يأتوهم من خلفهم. و كان شعاره يوم أحد: أمّيت. أمّيت. و من جهة أخرى: فقد عبَّ المشركون قواهم، استعداداً للحرب.

نشوب الحرب، و قتل أصحاب اللّواء

و كان أوّل من رمى بسهم في وجوه المسلمين أبو عامر الفاسق في خمسين ممّن معه، و حرّض أبوسفیان بنى عبدالدار حاملي لواء المشركين على الحرب، و جعل النّساء يضربن بالدّفوف و يحرّضنهم بالأشعار. و طلب طلحة بن أبى طلحة، حامل لواء المشركين البراز؛ فبرز إليه على (ع) فقتله: فسّر رسول الله (ص) بذلك، و كبر تكبيراً عالياً. و اقتتل النّاس، و حميت الحرب و حارب المسلمون دفاعاً عن دينهم و عن وطنهم، الّذى فيه كلّ مصالحهم و يتوقّف على حفظه مستقبلهم و وجودهم. حاربوا فئة حاقدة، تريد الثّار لقتلاها في بدر و هى أكثر منهم عدداً و أحسن عدّة. ثمَّ شدّد أصحاب رسول الله (ص) على كتائب المشركين، فجعلوا يضربون

ص: ٢٢٠

وجوهم، حتى انتفضت صفوفهم. (١) ثم حمل اللواء عثمان بن أبي طلحة أخو طلحة السابق فقتل، ثم أبوسعيد أخوهما، ثم مسافع، ثم كلاب بن طلحة ابن أبي طلحة، ثم أخوه الجلاس، ثم أوطاه بن شرحبيل، ثم شريح بن قانط، ثم صواب، فقتلوا جميعاً وبقى لواؤهم مطروحاً على الأرض، وهزموا، حتى أخذته إحدى نسائهم، فرفعته، فتراجعت قريش إلى لوائها، ويقال: إن أصحاب اللواء بلغوا أحد عشر رجلاً. (٢) قال الصيادق (ع) بعد ذكره قتل أمير المؤمنين (ع) لأصحاب اللواء: «و انهزم القوم، و طارت مخزوم، فضحها على (ع) يومئذ». (٣) كما أن رماة المسلمين الذين كانوا في الشعب قد ردوا حملات عديدة لخيّل المشركين، حيث رشقوا خيلهم بالنبل حتى ردوها على أعقابها.

و أمعن في الناس حمزة و على و أبودجانه في رجال من المسلمين، و أنزل الله نصره على المسلمين و كانت الهزيمة. (٤)

الهزيمة بعد النصر

لما رأى أصحاب الثغرة المشركين قد انهزموا، و أنّ المسلمين يغنمون، اختلفوا فبعضهم ترك الثغرة للغنيمه. فلما رأى خالد قلة من على الثغرة، و خلاء الجبل، و اشتغال المسلمين بالغنيمه، و رأى ظهورهم خالية، صاح في خيله، فمربهم، و تبعه عكرمه في جماعة، فحملوا على من بقى في الثغرة، فقتلوه جميعاً، ثم حملوا على المسلمين من

١- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٢٧

٢- المصدر السابق

٣- الإرشاد للمفيد، ص ٥٢، و البحار، ج ٢٠، ص ٨٧ عنه

٤- الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ١٥٣.

ص: ٢٢١

خلفهم، و رأت قريش المنهزمة عودة رجالها للحرب، و رفعت الحارثية (١) لواءهم الذي كان ملقى على الأرض فعادوا إلى الحرب من جديد.

و إذا كان المسلمون قد تفرقوا، و انتقضت صفوفهم، و لم يعودوا صفاً واحداً كالبنيان المرصوص، يشدّ بعضه بعضاً، و فقدوا الارتباط بقيادتهم الحكيمه، و هم فى طلب المغنم، فمن الطبعى أن لا يتمكنوا من مقاومة هذه الحملة الضارية، و أن يضيقوا بين أعدائهم، فكان همّ كل واحد منهم أن ينجو بنفسه، فقد «اهتمّهم أنفسهم» على حدّ تعبير القرآن الكريم؛ لا سيما و أن أحد المشركين قد قصد مُصعب بن عُمير و هو يذبّ عن رسول الله (ص) فظنّ أنّه الرّسول، فقتله، فنادى قاتل مصعب أو غيره:- أنّ محمّداً قد قتل، فازداد المشركون جرأة، و هزم المسلمون الذين لم يستطيعوا جمع شملهم و لمّ شعثهم، (٢) و ثبت على (ع) و حده معه (ص) يدافع عنه. و خلص العدو إلى رسول الله (ص) و كلّم (٣) شفّته، و شجّ (٤) فى وجهه، و نشبت حلقتان من الدّرع فى وجهه الشريف، و دثّ (٥) بالحجارة حتّى وقع لِسَقَه (٦) كذا يقولون.

و حين هزم المسلمون، جعل الرّسول (ص) يدعوهم فى آخرهم: إلى عباد الله، إلى عباد الله، إلى يا فلان، إلى يا فلان؛ و هم يصعدون و لا يلوون، و لا يعرج عليه أحد، و النّبل يأتى إليه من كلّ ناحية. و استمروا فى هزيمتهم حتّى الجبل، و فيهم أبوبكر، و عمر، و طلحة و سعد بن

١- هى عمرة بنت علقمة الحارثية

٢- لمّ الله شعث فلان: قارب بين شتيت أموره و أصلح من حاله ما تشعث

٣- كلّمه: جرحه

٤- شجّ: أصابته شجّة

٥- دثّ الرّجل: رمى حتّى التوى بعض جسده

٦- الشّق: الجانب.

ص: ٢٢٢

أبى وقاص وغيرهم. أمّا عثمان فقد استمرّ في هزيمته ثلاثة أيام.

و حين انهزم الناس غضب (ص) و نظر إلى جنبه، فإذا على (ع)؛ فقال: مالك لم تلحق ببنى أبيك؟! فقال (ع): يا رسول الله، أكفر بعد إيمان؟! إن لى بك أسوء. (١) فقال جبرئيل (ع): يا محمّد، إنّ هذه المواساة لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى! فقال (ص) و ما يمنعه، و هو منى و أنا منه؟! فقال جبرئيل: و أنا منكما. ثم سمع مناد من السماء:

لا سيف إلّا ذو الفقار و لا فتى إلّا على

فسيّث (ص) عنه؛ فقال: هذا جبريل. (٢) و أصيب أمير المؤمنين (ع) بجراح كثيرة. قال أنس بن مالك: أتى رسول الله (ص) بعلى (ع) يومئذ و فيه ثيف و ستون جراحة، من طعنة، و ضربة، و رمية. فجعل رسول الله (ص) يمسحها و هى تلتئم بإذن الله تعالى كأن لم تكن. (٣)

لماذا كانت الهزيمة؟!

١. إنّ من الواضح: أنّ السبب الأوّل لما لحق بالنبي (ص) و للهزيمة التى لحقت بالمسلمين، و ما جرى عليهم من النكبات و القتل الذريع، حتّى لقد قتل منهم سبعون، و جرحت أعداد هائلة أيضاً هو: أنّهم عصوا و تنازعوا، ففشلوا. قال تعالى:

«وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ

١- البحار، ج ٢٠، ص ٩٥ و ١٠٧ عن إعلام الورى و روضة الكافى، ص ١١٠

٢- النصّ فى أكثره للمعتزلى فى شرح النهج، ج ١٤، ص ٢٥٠ و ٢٥١ عن الزاهد اللغوى غلام ثعلب، و عن محمد بن حبيب فى أماليه، و راجع: ج ١٣، ص ٢٩٣

٣- البحار، ج ٢٠، ص ٢٣، و مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٠٩.

ص: ٢٢٣

الْآخِرَةُ (١)

- و تصريح القرآن بأنهم قد عصوا و تنازعوا من بعد ما كان النصر منهم قاب قوسين أو أدنى، يُكذَّب ما يدَّعيه البعض: من أنَّهم قد تخيلوا انتهاء أمد أمر النَّبِيِّ (ص) و إنَّ هذا اجتهد منهم (٢). فإنه لو كان اجتهداً لما كان معصيةً، مع أنَّ القرآن يصرِّح بالمعصية.
٢. و أيضاً، فقد كان لا-غترارهم بأنفسهم، و بكثرتهم، أثر كبير في حلول الهزيمة بهم. و واضح أنَّ ال-اغترار بالكثرة يفقد العناصر المشاركة شعور الاعتماد على النَّفس، و يجعلهم يعيشون روح التَّوكل و اللّامسؤولية.
٣. إنَّ الله تعالى ما زال يؤيِّد المسلمين بنصره، حتَّى عصوا الرّسول (ص) طمعاً في الدُّنيا و إيثاراً لها على الآخرة؛ فكان لا بدَّ في هذه الحالة من إعادة التَّمحيص لهم، و ابتلائهم، ليرجعوا إلى الله تعالى، و ليميز الله المؤمن من المنافق، و ليزداد الّذين آمنوا إيماناً، لأنَّ الإنسان ربّما يغفل عن حقيقة العناية الإلهية، و الإمدادات الغيبية، حين يرى الانتصارات تتوالى، فينسب ذلك إلى قدرته الشخصية.
- و لأجل ذلك نجد: أنَّهم حين غلبوا شكوا في هذا الأمر و قالوا: «هل لنا من الأمر من شيء؟» فجاءهم الجواب القاطع: «قل إنَّ الأمر كلّهُ لله». ثم، لا بدَّ إذاً من إعادتهم إلى الله تعالى، و تعريفهم بحقيقة إمكاناتهم، و قدراتهم.
٤. و إنَّ الانضباطية خصوصاً حين يكون القائد حكيماً، فكيف إذا كان نبياً هي أساس النّجاح، و لربّما تكون مخالفة أفراد معدودين سبباً في دمار جيش بكامله، كما كان الحال في قضية أحد.

١- آل عمران: ١٥٢

٢- البوطي في: فقه السيرة، ص ٢٦١.

ص: ٢٢٤

عودة المسلمين إلى القتال

ثم إن كعب بن مالك كان أول من عرف النبي (ص)، رأى عينيه تزهقان من تحت المعفر؛ فصاح: يا معشر المسلمين، أبشروا؛ فهذا رسول الله. فأمره النبي بالسكوت، لحراجه الموقف وخطورته. ثم صار المسلمون يفيئون إلى رسول الله (ص) زرافاتٍ (١) ووحداناً، و جعل (ص) يذرهم و يحضهم على القتال، فقاتلوا على قلتهم خير قتال.

ولكن الذين كانوا على الجبل فوق الصخرة لم يعودوا أو أكثرهم إلى القتال، ولا تركوا مراكزهم.

و يبدو أنه في هذه اللحظات الحرجة، أن الله قد أنزل على القادمين الراجعين إلى النبي (ص)، التائبين، أمانةً نعاساً، (٢) لكي يطمئنوا إلى نصر الله و لطفه. أما أصحاب الصخرة أو كثير منهم فقد أهملتهم أنفسهم، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية.

وهكذا كان؛ فقد بلغ الرسول و تلك الثلثة من المسلمين المجاهدين، سفح جبل أحد، و استقرّوا فيه، و لم يجاوزوه. فأرعب ذلك المشركين، لما رأوه من عودة المسلمين إلى مراكزهم الأولى، و تجميع صفوفهم، و ارتفاع معنوياتهم من جديد. فخاف المشركون أن يُدال المسلمون منهم من جديد، و يفعلوا بهم كما فعلوا في ابتداء الحرب، ففصلوا إنهاء الحرب، و الانسحاب بسلام، و هكذا كان. و حينئذ أعلن أبوسفیان انتهاء الحرب، و أشرف على الجبل، و نادا بأعلى صوته: «أغلُّ هُبَل». و حيث إنَّ المسئلة لم تعد مسئلة شخصيّة، و أنّما يريد أبوسفیان أن يعتبر هذا

١- زرافات جمع الزرافة: الجماعة من الناس

٢- إنَّ النعاس في الحرب يكون من الإيمان و الاعتقاد بالله، ولكن في الصلاة يكون من الشيطان.

ص: ٢٢٥

النصر الظاهري مؤيداً لدينه و لإلهه هبل، فقد أجابه النبي (ص): (١) «الله أعلى و أجل».

فقال أبوسفیان: أنعمت فعال، (٢) إن الحرب سجال، (٣) يوم بيوم بدر.

فقال: لا سواء، (٤) قتلانا في الجنة و قتلاكم في النار.

و قد جاء على (ع) إلى النبي (ص) بعد ان انتهت الحرب، فغسل وجهه، و ضمدت جراحه فاطمة (ع).

و مثل نساء المشركين في قتلى المسلمين فجذعن (٥) الأنوف و الآذان. و تشاوروا في نهب المدينة؛ فأشار صفوان بن أمية بالعدم؛ لأنهم لا يدرون ما يغشاهم. (٦) و أرسل النبي (ص) علياً أمير المؤمنين (ع) في آثارهم، لينظر؛ فإن كانوا قد ركبوا الإبل و جئوا الخيل (٧)، فهم يريدون مكة، و

إن كان العكس، فهم يريدون المدينة، فلا بد من مناجزتهم فيها. فذهب (ع) و عاد، فأخبره بأنهم جئوا الخيل و امتطوا (٨) الإبل. (٩)

١- و في رواية: أن النبي (ص) علم علياً (ع) ذلك، فأجابه: «الله أعلى و أجل» (راجع: تفسير القمي، ج ١، ص ١١٧، و البحار، ج ٥٦، ص ٩٧ عن إعلام الوري)

٢- أنعمت فعال: أى بالغت، يعنى به الحرب أو الوقعة، يقال أنعم في الشيء: إذا بالغ فيه.

و قوله: فعال، أى ارتفع (بصيغة الأمر فيهما) و قد يجوز أن تكون معدولة من الفعل، أى بالغت في هذه الفعل، و يعنى بالفعل الوقعة

٣- السجال: المكافأة في الحرب و غيرها

٤- لا سواء، أى لا نحن سواء

٥- الجذع: ما انقطع من مقادير الأنف أو أقصاه

٦- السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٤٥

٧- جئوا الخيل: قادوها إلى جنوبهم

٨- امتطوا الدابة: جعلها مطية و اتخذها مطية و ركبها

٩- راجع: الثقات لابن حبان، ج ١، ص ٢٣٢، و تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٠٥ و ٢٠٦، و الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٦١، و السيرة

الحلبية، ج ٢، ص ٢٤٤ و ٢٤٥، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤٠.

ص: ٢٢٦

و بعد انتهاء الحرب أرسل علياً (ع) إلى المدينة ليبشّر أهلها بأنّ النّبيّ (ص) حيّ سالم. (١)

من مشاهد الحرب

١. لما كان يوم أحد قال مُخَيَّرِيقُ الحبر اليهودي: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أنّ نصر محمدٍ عليكم لَحَقَّ. قالوا: إنّ اليوم يوم السّبت. قال: لا سبت. فأخذ سيفه و عُيْدَتَه و قال: إنّ أُصِبْتُ فما لي لمحمّد، يصنع فيه ما شاء؛ ثمّ غدا إلى رسول الله، فقاتل معه حتّى قُتل؛ فيقال: إنّّه (ص) قال: مُخَيَّرِيقُ خير يهود. (٢) ٢. وأصرّ عمرو بن الجموح على الخروج إلى الحرب مع عرجه و دعا الله أن يرزقه الشّهادة، و لا يرده خائباً إلى أهله، فاستشهد رحمه الله.
٣. و أصيبت عين قتادة بن النّعمان، حتّى وقعت على وجنته، فردّها رسول الله (ص) بيده، فكانت أحسنَ عينيه و أحدهما.
٤. و قتل سعد بن الزّبيع، و كان آخر ما قاله في وصيّته مطوّله منه للمسلمين: إنّّه لا عذر لكم عند رسول الله أن يُخلّص إلى نبيّكم، و فيكم عينٌ تَطْرِفُ، (٣) ثمّ مات.
٥. و يقال: إنّ قُزَمانَ البذّي كان (ص) إذا ذكره يقول: إنّّه لَمِنْ أهل النَّارِ؛ (٤) قد حارب في أحد و قتل سبعةً أو ثمانيةً من المشركين، ففُرح، فبشّره البعض، فقال:

١- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤٠

٢- السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٩٤

٣- يقال: طرف بعينه يَطْرِفُ: إذا ضرب بجفن عينه الأعلى على جفن عينه الأسفل

٤- تاريخ الأمم والملوك (ط دار المعارف) ج ٢، ص ٥٣١، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٣٨، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٩٣؛ و المغازي، ج ١، ص ٢٢٤ و ٢٦٣. و يقال: إنّّه لما اشتدّت جراحته قُتل نفسه (تاريخ الطّبري، ج ٢، ص ٥٣١، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٩٤).

ص: ٢٢٧

بماذا أُبشِّر؟ فو الله ما قاتلت إلّا عن الأحساب. (١)

بعد ماهيت الزياح

ما جرى على حمزة و الشهداء

١. إنَّ هنداً زوجةً أبى سفيان قد أتت مصرع حمزة، فمَثَلت به و جدَّعت أنفه و قَطَّعت أذنيه و مذاكيره؛ ثمَّ جعلت ذلك كالسَّوار (٢) في يديها و قلَّند في عنقها، و استمرَّت كذلك حتَّى قدمت مكَّة، و كذلك فعل النِّساء بسائر الشهداء. و زادت هي عليهم: أنَّها بقرت بطن حمزة و استخرجت كبده فلاكتها (٣)، فلم تستطع أن تُسيغها. (٤) ٢. و أقبلت صفيَّة لتتظر أخاها، فالتقت بعلی (ع)، فقال: ارجعي يا عمَّة، فإنَّ في النَّاس تكشُّفاً، فسألته عن الرِّسول (ص)، فقال: صالح.

قالت: أدللني عليه حتَّى أراه؛ فأشار إليه إشارة خفيَّة من المشركين؛ (٥) فأقبلت إليه، فأمر (ص) الزَّبير بإرجاعها حتَّى لا ترى ما بأخيها. فقالت للزَّبير: و لِم؟ و قد بلغني أنَّه قد مُثِّل بأخي، و ذلك في الله قليل؛ فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنَّ و لأصبرنَّ إن شاء الله. فسمح لها النَّبيُّ (ص) برؤيته، فنظرت إليه، فصلَّت عليه، و استرجعت، و استغفرت له. (٦)

١- أی عن أحساب قومی

٢- السَّوار: حليَّة كالطَّوق تلبسه المرأة في زندها أو معصمها

٣- لاكتها: مضغتها

٤- أساغ الطَّعام أو الشَّراب، سهَّل مدخله في الحلق

٥- لعلَّهم كانوا لا يزالون قريبين من هناك و يخشى كرتهم فيمالو علموا أنَّ عليّاً بعيد عن النَّبيِّ (ص)

٦- راجع ما تقدم في: مغازی الواقدي، ج ١، ص ٢٨٩، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤١ و ٤٤٢ و حياة الصحابة، ج ١، ص ٥٧٠ و ٥٧١. و مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٩٨ و ١٩٩.

ص: ٢٢٨

٣. قال ابن إسحاق: و مرّ رسول الله (ص) حين رجع إلى المدينة بدور من الأنصار، فسمع بكاء التّوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله (ص)، ثم قال: لكن حمزة لا بواكى له. فأمر سعد بن معاذ و يقال: و أسيد بن حُضير نساء بنى عبد الأشهل: أن يذهبن و يبكين حمزة أوّلًا، ثم يبكين قتلاهنّ. فقالت أمّ سعد بن معاذ: فما بكت ممّا امرأة قطّ إلّا بدأت بحمزة إلى يومنا هذا.

٤. لقد بكى النّبيّ (ص) على حمزة، و قال: أمّا حمزة فلا بواكى له. و بعد ذلك بكى على جعفر و قال: على مثل جعفر فلتبك البواكى. و بكى على ولده إبراهيم و قال: تدمع العين و يحزن القلب و لا- نقول إلّا ما يرضى الرّب. و بكى كذلك على عثمان بن مظعون و سعد بن معاذ و زيد بن حارثة، و بكى الصّحابة، و بكى جابر على أبيه، و بشير بن عفرأ على أبيه أيضًا إلى غير ذلك ممّا هو كثير في الحديث و التّاريخ. (١) فكلّ ذلك فضلًا عن أنّه يدلّ على عدم المنع من البكاء، فإنّه يدلّ على مطلوبيّة البكاء و على رغبته (ص) في صدوره منهم.

و واضح أنّ حزن الرّسول (ص) هذا و رغبته تلك ليسا إلّا من أجل تعريف أصحابه و الأئمّة أيضًا بما كان لحمزة من خدمات جلّي لهذا الدّين، و من قدّم ثابتة له فيه، و بأثره الكبير في إعلاء كلمة الله تعالى.

و أنّ حزنه (ص) كان في الحقيقة حزنًا على ما أصاب الإسلام بفقدته، و هو المجاهد الفدّ الذي لم يكن يدّخر وسعًا في الدّفاع عن هذا الدّين و إعلاء كلمة الله.

و ما ذلك إلّا لأنّ النّبيّ (ص) لم يكن ليهتمّ بالبكاء على حمزة، و لا ليكي هو عليه لمجرّد دوافع عاطفيّة شخصيّة، أو لعلاقة رَحيميّة و نَسبيّة، و إنّما هو (ص) يحبّ في الله و في الله فقط، تمامًا، كما كان يبغض في الله و في الله فقط.

١- راجع: النّص و الاجتهاد، ص ٢٣٤ ٢٣٠، و الغدير، ج ٦، ص ١٥٩، و دلائل الصدق، ج ٣، قسم ١، ص ١٣٦ ١٣٤ عن عشرات المصادر الموثوقة.

ص: ٢٢٩

فهو (ص) يحزن على حمزة بمقدار ما كان حمزة مرتبطاً بالله تعالى، و خسارته خسارة للإسلام؛ و إلا فكما كان حمزة عمه، فقد كان أبولهب عمه أيضاً.

الصلاة على الشهداء و تغسيلهم و دفنهم

لقد روى بعضهم: أن النبي (ص) لم يصل على شهداء أحد، و به أخذ الأئمة الشافعية. و لكن ذلك غير صحيح، فقد صرحت الروايات الكثيرة بأنه (ص) قد صلى عليهم، و روى ذلك عن بعض أئمة الحديث، و به أخذ الأئمة الحنفية. (١) و الصحيح أنه قد صلى عليهم و لم يغسلهم، و هو الثابت عن أئمة أهل البيت (ع) الذين هم سفينة نوح؛ فلا يعبا بما رواه غيرهم. و أما بالنسبة للتكفين؛ فإن الشهيد يدفن في ثيابه، و لكن النبي (ص) قد كفن حمزة و حنطه؛ لأنه كان قد جرد، كما روى. (٢) و أما دفنهم؛ فيقال: إنه قد احتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة، فدفنوا بها، ثم نهى (ص) عن ذلك، و قال: ادفنواهم حيث صرخوا. (٣) و يقال: إنه قال: ادفنوا الإثنين و الثلاثة في قبر واحد و قدّموا أكثرهم قرآناً. (٤)

١- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤٢، و ليراجع أيضاً: السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٤٨ و ٢٤٩

٢- راجع: الدر المنثور للعالمى، ج ١، ص ١٣٥ عن من لا يحضره الفقيه

٣- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤٢ عن الاكتفاء و ابن إسحاق و أحمد و الترمذى و أبى داود و النسائى و الدارمى، و الكامل لابن اثير، ج ٢، ص ١٦٢ و ١٦٣

٤- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤٢ عن أحمد و الترمذى و أبى داود و النسائى، و شرح النهج، ج ٥، ص ٣٨، و مغازى الواقدى، ج ١، ص ٣١٠.

ص: ٢٣٠

عدد الشهداء و القتلى

أما عدد الشهداء، فقد كانوا سبعين، من المهاجرين أربعة و الباقون من الأنصار. (١) و هذا ما وعدهم به النبي (ص) في بدر: بأنه سيقتل من المسلمين بعدة أسرى بدر إن قبلوا بالفداء. و عدة أسرى بدر كانت سبعين كما يقولون. (٢) و يلاحظ هنا: أن أكثر القتلى كانوا الأنصار؛ و ذلك لأن قريشاً ظلت تحقد على الأنصار و على أهل البيت (ع) عشرات سنين و الأعوام. و لربما نفهم: أن الأنصار كانوا أكثر اندفاعاً إلى الحرب، و أشدّ تصدياً لمخاطرها؛ لأنهم يدافعون عن وطنهم و عن عقيدتهم معاً. و قد كان الإسلام فيهم أعمق من كثير من المهاجرين؛ فإنهم إنما أسلموا خوفاً أو طمعاً؛ و لذا فقد كثر فيهم المنافقون و المناوؤون (٣) لأهل البيت (ع). و أما عدد قتلى المشركين، فيقال: إنه قد قُتل منهم في معركة أحد ثمانية عشر رجلاً (٤) و قيل: أكثر من ذلك؛ (٥) لأن حمزة قد قتل وحده منهم واحداً و ثلاثين رجلاً، كما يقولون. (٦) و يروى البعض: أن أمير المؤمنين (ع) قد قتل في أحد اثني عشر رجلاً. (٧) و نعتقد أنه (ع) قد قتل أكثر من ذلك؛ لأنه قد قتل أصحاب اللواء بلا شك و هم

١- المغازي، ج ١، ص ٣٠٠، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٥٥، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤٦

٢- المغازي، ج ١، ص ١٤٤

٣- النوء: المعاداة

٤- مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٠٠، و البحار، ج ٢٠، ص ٢٢ عنه

٥- راجع: سيرة مغلطاي، ص ٥٠، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٤٧، و شرح النهج للمعتزلي، ج ١٥، ص ٥٤

٦- السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٢٦ و ٢٥٥، و الإصابة، ج ١، ص ٣٥٤

٧- شرح النهج للمعتزلي، ج ١٥، ص ٥٤.

ص: ٢٣١

تسعة أو أحد عشر؛ كما أنَّ المعتزلي يذكر: أنَّ كتائب المشركين صارت تحمل على النَّبِيِّ (ص)، وقد قُتل من كتيبة بني كنانة أبناء سفيان بن عوف الأربعة و تمام العشرة منها مَمَّن لا يعرف بأسمائهم. (١) وقال القوشجي: و كان أكثر المقتولين منه (من أمير المؤمنين (ع)). (٢) وقال الشيخ المفيد: وقد ذكر أهل السير قتلى أحد من المشركين، و كان جمهورهم قتلى أمير المؤمنين (ع)، ثم ذكر أسماء اثني عشر من الأبطال المعروفين مَمَّن قتلهم (ع). (٣) و ممَّا يدل على مدى ما فعله أمير المؤمنين (ع) بقريش في أحد: أنَّ النَّصَّ التاريخي يؤكِّد على أنَّ قريشاً كانت بعد ذلك و إلى عشرات السنين تحقد على (ع) و على أهل بيته لذلك.

١- نفس المصدر، ج ١٤ ص ٢٥٠ و ٢٥١

٢- شرح التجريد، ص ٤٨٦

٣- الإرشاد، ص ٥٤، و البحار، ج ٢٠، ص ٨٨ و ٨٩ عنه.

ص: ٢٣٥

الفصل السادس غزوة الخندق

موجز عن غزوة الخندق

اشاره

غزوة الأحزاب (الخندق) هي الغزوة التي سميت سورة قرآنيّة باسمها بسبب أهميّتها و حيث إنّّه لا يسعنا المجال عن الحديث التّفصيلي عن هذه الغزوة، نكتفي بذكر نصّ موجز لها، ثمّ نذكر بعض المباحث و الوقايح المرتبطة بهذه الغزوة تفصيلاً؛ فنقول: إنّّه في السّنة الرّابعة كما هو الأقوى أو في الخامسة سار عدد من اليهود إلى مكّة و استنفروا أهلها لقتال النّبيّ (ص)، و استئصال المسلمين، و اتّصلوا بقبائل غطفان و قبائل عربيّة أخرى و حرّضوهم على حرب محمّد (ص) و وعدوهم بالأموال: فساروا و هم ألوف كثيرة إلى المدينة لإنجاز هذا المهمّ.

فبلغ النّبيّ (ص) خبرهم؛ فحفر خندقاً حول المدينة من الجهة المكشوفة منها، و جعل للخندق أبواباً، و جعل على الأبواب حرساً. و قد شارك النّبيّ (ص) بنفسه في حفر الخندق، و ظهرت له حينئذٍ كرامات و معجزات. و قد عسكر (ص) إلى جنب جبل سلع، و جعل الخندق بينه و بين الأحزاب. و جعل النّساء و الصّبيان في بعض حصون المدينة، و استخلف على المدينة «ابن أمّ مكتوم» و كان لواء النّبيّ (ص) مع عليّ (ع).

و لمّا وافى الأحزاب، فوجئوا بالخندق، و نزلوا في الجهة الأخرى منه، و حاصروا المسلمين؛ و ذهب «حيي بن أخطب» اليهودي إلى بني قريظة، و لم يزل بهم حتّى نقضوا العهد مع المسلمين.

ص: ٢٣٦

فَلَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ (ص) ذَلِكَ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَنْ يَثْبِتُ لَهُ الْأَمْرَ. فَرَجَعُوا إِلَيْهِ وَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّ مَا بَلَغَهُ صَحِيحٌ؛ فَاشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَعَظُمَ الْبَلَاءُ، وَنَجَّمَ التَّفَاقُ (١) وَكَثُرَ الْخَوْضُ، وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ. وَقَالَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: «مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا» (٢) وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (ع) عَلَى الْعَسْكَرِ كُلِّهِ بِاللَّيْلِ يَحْرُسُهُمْ؛ فَإِنْ تَحَرَّكَ أَحَدٌ مِنْ قَرِيشٍ نَابِذَهُمْ. وَكَانَ النَّبِيُّ (ص) يَحْرُسُ بِنَفْسِهِ بَعْضَ مَوَاضِعِ الْخَنْدَقِ. وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَشْرِكِينَ قِتَالٌ إِلَّا الزَّمَى بِالنَّبْلِ وَالْحِصَا. وَكَانَ الْمَشْرِكُونَ يَتَنَاقَبُونَ عَلَى الْخَنْدَقِ، فَلَا يُمْكِنُهُمْ عُبُورُهُ وَالْمُسْلِمُونَ يَمْنَعُونَهُمْ بِالنَّبْلِ وَالْحِجَارَةِ. وَقَدْ اتَّعَدَّ فَوَارِسُ مِنَ الْمَشْرِكِينَ فَأَتَوْا مَكَانًا ضَيِّقًا مِنَ الْخَنْدَقِ وَأَكْرَهُوا خِيْلَهُمْ عَلَى عُبُورِهِ، فَعَبْرَهُ عِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَعَمْرُو بْنُ عَبْدِوَدٍّ، وَضَرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ الْفَهْرِيُّ، وَهَيْبَةُ بْنُ أَبِي وَهَبٍ، وَحَسَلُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ عَبْدِوَدٍّ، وَنُوفَلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَخْزُومِيُّ. فَخَرَجَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (ع) فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى أَخَذُوا عَلَيْهِمُ الثَّغْرَةَ الَّتِي اقْتَحَمُوهَا، وَطَلَبَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِوَدٍّ الْبَرَّازَ فَلَمْ يَبْرَزْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَخَافُوا مِنْهُ خَوْفًا شَدِيدًا، لَمَّا يَعْرِفُونَ مِنْ شَجَاعَتِهِ وَكَانَ يَعْدُ بِأَلْفِ فَارِسٍ. وَطَلَبَ عَلَى (ع) مِنَ النَّبِيِّ (ص) أَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِمُبَارَزَتِهِ، فَلَمْ يَأْذَنَ لَهُ. فَكَرَّرَ الدَّعَاءَ، وَأَنْشَدَ الشَّعْرَ، وَغَيَّرَ الْمُسْلِمِينَ الْمُحْجَمِينَ عَنْهُ، فَطَلَبَ عَلَى (ع) الْإِذْنَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمْ يَأْذَنَ لَهُ الرَّسُولُ (ص). فَلَمَّا كَانَ فِي الْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ، وَلَمْ يَبَادِرْ إِلَى ذَلِكَ سِوَى عَلَى (ع) أَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ (ص) وَعَمَّمَهُ وَدَعَا لَهُ وَقَالَ: «بَرَزَ الْإِيمَانُ كُلَّهُ إِلَى الشَّرِّكَ كُلِّهِ». فَبَارَزَ

١- نجم التَّفَاقُ: ظهر

٢- الْأَحْزَابُ: ١٢.

ص: ٢٣٧

على (ع)، فقتله و قتل ولده حسلاً و نوفل بن عبدالله و فر الباكون.

فقال (ص) «ضربته على يوم الخندق تعدل (أو أفضل من) عبادة الثقلين إلى يوم القيامة».

ثم أرسل الله سبحانه الرّيح على المشركين فكانت تكفأ قدورهم، و تطرح خيامهم، و تعبث بكلّ ما يحيط بهم، و قذف الله في قلوبهم الرّعب؛ فعادوا بالخزي و الخيبة، و الرّعب يلاحقهم، و كفى الله المؤمنين القتال.

و قال النّبيّ (ص) حينئذٍ: «الآن نغزوهم و لا يغزوننا» فكان كما قال. و إليك بعض التفصيل و التحقيق و التحليل حول هذه الغزوة.

١. أهداف الحرب

يظهر من بعض كلمات الأحزاب أنّ هدفهم من الحرب استئصال محمّد (ص) و من معه؛ ولكننا نجد أنّ أمير المؤمنين (ع) قد حدّد هدف الأحزاب و العرب من الحرب بأنّ: «قريشاً و العرب تجمّعت، و عقدت بينها عقداً و ميثاقاً لا ترجع من وجهها حتّى تقتل رسول الله و تقتلنا معه معاشر بني عبدالمطلب» (١). و نعتقد: أنّ هذا الكلام هو الأقرب و الأنسب فيما يرتبط بتحديد الهدف الأقصى للحرب فإنّ كلامهم المتقدّم و إن كان ينصّ على استئصال محمّد و من معه؛ إلّا أنّ استئصال جميع من مع النّبيّ من الأوس و الخزرج و سائر قبائل العرب لن يكون سهلاً و لا ميسوراً لهم؛ أمّا قتل محمّد و بني عبدالمطلب فهو الأسهل و الأيسر، و به يتحقق المطلوب، و لماذا يذهبون إلى أبعد من ذلك؟!

فاليهود إنّما قدموا مكّة ليتحالفوا و يتعاقدوا مع المشركين على استئصال محمّد (ص) و من معه حسب زعمهم، حيث قالوا لقريش: «نحن معكم حتّى

١- الخصال (باب السبعة) ج ٢، ص ٣٦٨، و البحار، ج ٢٠، ص ٢٤٤، و الاختصاص، ص ١٦٦ و ١٦٧.

ص: ٢٣٨

نستأصل محمداً» أو «سنكون معكم حتى نستأصله و من معه» كما أنهم و هم يقررون ما يتعاقدون عليه قالوا: «و لتكون كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقى منا رجل». و ذلك يعنى:

ألف. أن هدفنا المعلن هو استئصال شأفة (١) الإسلام و المسلمين.

ب. أنهم مصممون على تحقيق هذا الهدف بأسلوب الحرب حتى آخر رجل منهم.

ج. أن هذه المبادرة منهم قد جاءت عن طريق خيانتهم لعهودهم و موافقتهم التي كانوا قد أبرموها مع النفس الذين يريدون استئصالهم، مع العلم بأن ذلك الطرف لم يزل وفياً بعهدده، حافظاً لمواثيقه معهم، و لم يحدث أن خان أو تردّد فى عهدٍ مع أى فريق منهم، و لم يسئ إليهم و لا إلى غيرهم بشئ إلا ما يجرونه هم على أنفسهم بخياناتهم المتتالية و هم يرتكبون هذه الخيانة رغم أنهم قد رأوا بأن أعينهم عواقب خيانة بنى قينقاع، ثم خيانة بنى النضير و أكثرهم نضيريون.

٤. أن مبرر هذا الإلجام العظيم و البشع (٢) هو مجرد الحسد و الحقد منهم، بالإضافة إلى مكاسب سياسية و اجتماعية و غيرها و لم يكن الهدف عقيدياً و لا إنسانياً و لا أخلاقياً؛ بل هم قد داسوا بأقدامهم الإنسانية و الأخلاق و حتى مبادئهم و عقيدتهم التي يدعون أنهم ينتسبون إليها و هذا هو منتهى الأساف، و غاية التردى فى حماة الجريمة و البغى.

٢. المشورة و التخطيط

و يقول المؤرخون: إنه لما فصلت قريش من مكة إلى المدينة، خرج ركب من خزاعة إلى النبي، فساروا من مكة إلى المدينة أربعاً، فأخبروا النبي (ص) بالأمر. و ذلك حين ندب رسول الله (ص) الناس و أخبرهم الخبر و شاورهم فى أمرهم و

١- الشأفة: الأصل

٢- البشع: عكس حسن و طيب.

ص: ٢٣٩

أمرهم بالجدّ و الجهاد و وعدهم التّصر، إن هم صبروا و اتّقوا، و أمرهم بطاعة الله و طاعة رسوله. و شاورهم، فقال: أنبرز لهم من المدينة، أم نكون فيها و نخندقها علينا، أم نكون قريباً و نجعل ظهورنا إلى الجبل؟ فاختلفوا. فقال سلمان: يا رسول الله! إنّا إذ كنّا بأرض فارس، و نخوفنا الخيل خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟ فأعجب رأى سلمان المسلمين، و أحبوا الثّبات في المدينة.

فركب رسول الله (ص) فرساً له، و معه نفر من أصحابه فارتاد موضعاً ينزله، فكان أعجب المنازل إليه: أن يجعل سلعاً (١) خلف ظهره و يخندق على المّداد، إلى ذباب، إلى راتج. فعمل يومئذ الخندق، و ندب الناس و خبرهم بدنوعدوهم و عسكرهم إلى سفح سلع (٢) و لنا مع هذا الذي يذكره المؤرّخون وقفات، و هي التّالية.

ألف. من أخبر النّبي (ص) بمسير الأحزاب؟

قد تقدّم: أن ركباً من خزاعة قدم إلى المدينة في مدّة أربعة أيّام، فأخبروا النّبي (ص) بمسير الأحزاب إليه. ولكنا نجد نصّاً آخر عن علي (ع) يقول: إن النّبي (ص) قد علم بذلك من جهه جبرئيل (ع) فخندق على نفسه و من معه (٣) و لا- نستبعد أن يكون كلا الأمرين قد حصل.

ب. من المشير بحفر الخندق؟

إنّ السّياق المذكور آنفاً يدلّ: على أن النّبي (ص) هو الذي بادر إلى اقتراح حفر الخندق، ثمّ لما اختلف المسلمون، فتكلّم سلمان الفارسي بطريقه بيّن لهم فيها

١- جبل معروف بسوق المدينة

٢- راجع: المغازي، ج ٢، ص ٤٤٤، و الإمتاع، ج ١، ص ٢١٩ و ٢٢١، و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٣١١

٣- الخصال (باب السبعة) ج ٢، ص ٢٦٨ و البحار، ج ٢٠، ص ٢٤٤ عنه.

ص: ٢٤٠

وجه الحكمة في اعتماد إجراء كهذا، فأعجبهم ذلك حينئذ، فقبلوه و اجتمعت كلمتهم عليه؛ ولكن كلمات كثير من المؤرخين قد أظهرت: أن سلمان هو المشير بحفر الخندق، من دون أن تشير إلى أى تحفظ في ذلك،^(١) وهذا هو ما استنتجه بعض المشرّكين حين فوجئوا بالخندق.^(٢) وفي مقابل ذلك نجد ابن إسحاق و كذا غيره ينسب حفر الخندق إلى رسول الله (ص) و لا- يشير إلى مشورة سلمان، لا من قريب و لا من بعيد.^(٣) بل إن النبيّ (ص) قد كتب في رسالته الجوابية لأبى سفيان: «و أمّا قولك مَنْ عَلَّمَنَا الَّذِي صَنَعْنَا مِنَ الْخَنْدَقِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَلْهَمَنِي ذَلِكَ».^(٤) و لا نُخْفِي هُنَا إعجابنا بهذا الوعي من سلمان المحمّدي حيث بادر في الوقت المناسب إلى تقديم تبرير لأولئك النَّاس الذين اختلفوا على رسول الله (ص) يتوافق مع طريقة تفكيرهم، حيث قرّر لهم: أن الخندق المقترح من شأنه أن يحدّ من فاعليّة الخيل في الحرب و يدفع غائلتها، و يصبح الجهد الشّخصي للأفراد، هو الذي يقرّر مصير الحرب و نتائجها. فكان أن استجاب المسلمون لاقتراح حفر الخندق و أعلنوا موافقتهم عليه، و تحمّلوا مسؤوليّة الخيار و الاختيار، و هذا بالذات هو ما أرادّه الرّسول (ص) و سواء أكان حفر الخندق بمشورة سلمان أم لم يكن، بل النبيّ (ص) هو الذي بادر إلى

١- راجع: وفاء الوفاء، ج ١، ص ٣٠٠ و ج ٤، ص ١٢٠٦، و الثقات، ج ١، ص ٢٦٦، و التنبيه و الإشراف، ص ٢١٦، و سيرة مغلطاي، ص ٥٦، و الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٧٨

٢- راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٤، ص ٥٣٠، و تفسير القمي، ج ٢، ص ١٨٢، و بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢٢٤، و المغازي، ج ٢، ص ٤٧٠

٣- راجع: السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٢٢٦، و جوامع السيرة النبوية، ص ١٤٨، و عيون الأثر، ج ٢، ص ٥٥، و تهذيب سيرة ابن هشام، ص ١٨٩، و دلائل النبوة للبيهقي، ج ٣، ص ٣٩٩

٤- الإمتاع، ج ١، ص ٢٤٠، و خاتم النبیین، ج ٢، ص ٩٤٢.

ص: ٢٤١

اقتراحه كما نرجح ذلك فإن ما نريد أن نوكد عليه هو أن الإسلام لا يمنع من الاستفادة من تجارب الآخرين في المجالات الحياتية البناء، فقد روى: أن «الحكمة ضالة المؤمن، فاطلبوها و لو عند المشرك تكونوا أحق بها وأهلها».

ولكن هذه الاستفادة مشروطة: بأن لا تنشأ عنها سلبيات أخرى، كما لو كان ذلك يعطى للمنحرفين فرصة لتضليل الناس و جرهم إلى مهالك الانحراف، أو يعطيهم بعض النفوذ و الهيمنة أو يجرئهم على التدخل في الشؤون الخاصة بالمسلمين و ما إلى ذلك.

فالمفروض إسلامياً هو التبعية للآخرين و تقليدهم على غير بصيرة و أما الاستفادة الواعية من منجزاتهم الحيوية لبناء الحياة، و التغلب على مصاعبها بصورة تنسجم مع أحكام الشرع، فذلك أمر مطلوب و لا غضاضة فيه.

و حتى لو كان الخندق بإشارة سلمان من الأساس، و كان سلمان قد استفاد ذلك من بيئته و قومه الذين ما كانوا على طريقة الإسلام و لا على دين الحنيفية فلا ضيرو لا غضاضة في قبول مشورته؛ بل الغضاضة في ترك العمل بتلك المشورة إذا كانت موافقة للصواب.

٣. أين كان الخندق وما هي مواصفاته؟

قد تقدم: أن النبي (ص) قد ركب فرساً و خط لهم الخندق و قد بينت النصوص التاريخية لنا مواضع الخندق و خصوصياته و مواصفاته بشيء من التفصيل و نحن نذكر طائفة منها، فنقول:

* موضع الخندق: قال الواقدي: «كان الخندق ما بين جبل بني عبيد بخربى، إلى راتج. قال: و هذا أثبت الأحاديث عندنا».(١) و في نص آخر: «من المذاد إلى

*

ص: ٢٤٢

ذُباب، إلى راتج». (١) و عند القمي: «فأمر (ص) بمسحه من ناحية أحد إلى راتج». (٢)
و في نص أكثر تفصيلاً: «حفر النَّبِيُّ (ص) الخندق طولاً، من أعلى وادي بطحان، غربى الوادي مع الحرّة إلى غربى مصلى العيد، ثم إلى مسجد الفتح، ثم إلى الجبلين الصّغيرين، الذين في غربى الوادي. و مأخذه قول ابن النّجار». إلى أن قال: «و الحاصل: أنّ الخندق كان شامى المدينة، من طرف الحرّة الشّرقية إلى طرف الغربيّة». (٣) أبواب الخندق: و ذكروا: أنّ الخندق له أبواب؛ فلسنا ندرى أين موضعها». (٤) و حسب نص آخر: «جعل له رسول الله (ص) أبواباً و جعل على الأبواب حرساً». (٥) و ذكر القمي: أنّ عدد الأبواب كان ثمانية. (٦) خصوصيات و مواصفات أخرى: «و الخندق فيه قناة، يأتى من عين قباء إلى النّخل الذى بالسّنع حوالى مسجد الفتح، و فى الخندق نخل أيضاً، و انظّم (٧) أكثره و تهدمت حيطانه». (٨) و ذكروا أيضاً: أنّه قد بلغ طول الخندق نحواً من خمس آلاف ذراع، و عرضه

- ١- راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٤، ص ٥١٥، و المغازى، ج ٢، ص ٤٤٥
- ٢- تفسير القمي، ج ٢، ص ١٧٧. و قال الطبرسى فى مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٢: «كان اسم الموضع الذى حفر فيه الخندق: المّداد»
- ٣- وفاء الوفاء، ج ٤، ص ١٢٠٤ و الفقرة الأخيرة، ص ١٢٠٦
- ٤- المغازى، ج ٢، ص ٤٥٢
- ٥- المصدر السابق، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٤، ص ٥١٥
- ٦- تفسير القمي، ج ٢، ص ١٧٩
- ٧- انظّم الخندق: امتلأ بالتراب حتّى استوى مع الأرض
- ٨- وفاء الوفاء، ج ٤، ص ١٢٠٤ و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٨١.

ص: ٢٤٣

تسعة أذرع، وعمقه سبعة أذرع. (١)

لموقع الجغرافي للخندق: ونحن إذا راجعنا الواقع الجغرافي للمدينة، فإنه يتضح: أن الخندق قد ضرب على المدينة في مواقع من الجهة الغربية والشمالية؛ أما الجهة الشرقية والجنوبية فقد شبكت بالبنيان (٢) من الجبال والأودية والتضاريس (٣) والأشجار والحجارة ما يحد من قدرة تلك الجيوش الغازية على الحركة الفاعلة والمؤثرة، فلم يخندق المسلمون عليها.

و يوضح ذلك: أنه كانت توجد في الجهة الشرقية حرّة واقم وفي الجهة الغربية حرّة الوبرة، وهي مناطق وعرّة (٤) فيها صخورٌ بركانية وتمثل حواجز طبيعية و كان في جهة الجنوب أشجار النخيل وغيرها بالإضافة إلى الأبنية المتشابكة، وكل ذلك لا يتيح لجيش المشركين أن يقوم بنشاط فاعل وقوي ضد المسلمين.

يقول مصطفى طلاس: «و بحفر الخندق استطاعت قيادة الجيش الإسلامي أن تعزل قوات العدو عن مكان التجمع الرئيسي للقوات المدافعة عن المدينة، وأن تحول بينها وبين اقتحام مداخل المدينة؛ لأن هذه المداخل أصبح من الممكن حراستها بعد حفر الخندق». (٥) مدّة حفر الخندق: وقال المؤرخون: وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدو عليهم. (٦)

١- الرسول العربي و فنّ الحرب لمصطفى طلاس، ص ٢٤٠ و ٢٤١، و السيرة النبوية للندوي، ص ٢٨١

٢- البنيان: المبنى. يقال: كأنهم البنيان المرصوص، أي الملصق ببعضه بعض

٣- تضاريس الأرض: ما برز عليها كالأضراس

٤- الوعر: المكان الصلب ضدّ السهل

٥- الرسول العربي و فنّ الحرب، ص ٢٣٤

٦- السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٤١١، و المغازي، ج ٢، ص ٤٤٥.

ص: ٢٤٤

الأقوال في مدَّة حفر الخندق مختلفه بين ستَّة أيام(١)؛ بضع عشر ليلة؛(٢) شهر أو قريباً من شهر،(٣) وغير ذلك. وصرَّح القمِّي: بأنَّه (ص) قد فرغ من حفر الخندق قبل قدوم قريش و الأحزاب بثلاثة أيام.(٤) هذا ... ولكن يمكننا أن نخفي أعجابنا بهذا الانجاز الضخم و السَّريع جدّاً، مع ملاحظة ضعف الوسائل و الامكانيات المتوفَّرة للعاملين في حفر الخندق آنثذٍ بالاضافه إلى وجود المثبطين عن العمل. فحيّا الله هذه الهَمَم و بورك لهم جهادهم المبارك و الرائد تحت قيادة و في طاعته رسول الإسلام الأعظم و الأكرم (ص).

٤. عُدَّة و عدد الجيشين

أمّا المسلمون فقد اختلفت كلمات المؤرّخين في عُدَّة و عددهم. فأما بالنسبة للعُدَّة فقد ذكر ابن سعد: «أنَّه كان مع المسلمين ستَّة و ثلاثون فرساً.(٥) و أما بالنسبة إلى العدد، فقليل. كانوا سبع مئة و هو قول ابن إسحاق(٦) - و قيل: كانوا ألفاً أو نحوها و هو صريح رواية البخارى و مسلم عن جابر و صرَّح به قتادة أيضاً(٧) - و قيل: تسع مئة،(٨) و ذهب أكثر المؤرّخين إلى أنَّهم كانوا ثلاثة آلافٍ أو نحوها.(٩) و نقول: إننا نرجَّح قول ابن إسحاق، و إن حكم عليه البعض، كالحلبى و غيره

١- المغازى، ج ٢، ص ٤٥٤

٢- السيرة الحليَّة، ج ٢، ص ٣١٤

٣- وفاء الوفاء، ج ٤، ص ١٢٠٩

٤- تفسير القمى، ج ٢، ص ١٧٩، و البحار، ج ٢٠، ص ٢٢١

٥- المواهب اللدنيَّة، ج ١، ص ١١٠، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٨٠ عن ابن سعد

٦- تاريخ يعقوبى، ج ٢، ص ٥٠، و السيرة الحليَّة، ج ٢، ص ٣١٤ عن ابن اسحاق

٧- الكافى، ج ٥، ص ٤٦، و الوسائل، ج ١١، ص ١٠٥

٨- الرسول العربى و فنَّ الحرب، هامش، ص ٢٣٨

٩- راجع: وفاء الوفاء، ج پ ١، ص ٣٠١، و فتح البارى، ج ٧، ص ٣٠١، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٨٠.

ص: ٢٤٥

بأنه قد وهم أو غلط في ذلك. و لو تنزلنا عن ذلك، فإننا نأخذ بالقول الثاني؛ أما القول بأنهم كانوا ثلاثة آلاف، فلا مجال للاعتماد عليه؛ لما روى عن الإمام الصادق (ع) أنه (ص) شهد الخندق في تسع مئة رجل،^(١) و يحتمل أن تكون كلمة تسع تصحيفاً لكلمة سبع أيضاً.^(٢)

صفوة الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ؛ ؛ ص ٢٤٥

يرى البعض: أن المسلمين كانوا في أحد بعد رجوع المنافقين سبع مئة رجل، و بين أحد و الخندق سنة أو أكثر بقليل، و يبعد أن يزيد المسلمون خلال سنة واحدة هذه الزيادة الكبيرة، بحيث يصلون إلى ثلاثة آلاف.^(٣) و ما جرى في الخندق يوضح: أن عدد سكان المدينة لا يصل إلى الخمسة آلاف نسمة بما في ذلك الأطفال و النساء.

أما المشركون، فقد اختلفت الأقوال في عددهم. قال المسعودي: سارت إليه قريش، و غطفان، و سليم، و أسد و أشجع و قريظة و نضير، و غيرهم من اليهود، فكان عدده الجميع أربعة و عشرين ألفاً، منها قريش و أتباعها أربعة آلاف.^(٤) و قال ابن شهر آشوب: كانوا ثمانية عشر ألف رجل.^(٥) و قال ابن الزبيع: كانوا أحد عشر ألفاً.^(٦) و ذكر في موضع آخر: أنهم كانوا عشرة آلاف، و لعله حين عد معهم بنى قريظة ذكر الرزم الأول و حين غَضَّ النظر عنه عددهم عشرة آلاف.

و أما بالنسبة إلى عُيْدَتِهِم، فقد قال المسعودي: إنه كان معهم ثلاث مئة فرس، و ألف و أربع مئة بعير و قائدهم أبوسفیان، صخر بن حرب.^(٧) و ذكر آخرون: أنه كان

١- راجع: العبر و ديوان المبتدأ أو الخبر، ج ٢، قسم ٢، ص ٢٩

٢- السيد جعفر مرتضى العاملي تحقيق: على الرفيعي القوجاني، صفوة الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، ١ جلد، نشر مشعر - تهران، چاپ: ١.

٣- راجع: إمتاع الأسماع، ج ١، ص ٢٢٤ و ٢٢٥، و مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٢ و البحار، ج ٢٠، ص ٢٠٠ عنه

٤- التنبيه و الإشراف، ص ٢١٦

٥- مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٩٧، و البحار، ج ٢٠، ص ٢٧٢ عنه

٦- حدائق الأنوار، ج ١، ص ٥٢

٧- التنبيه و الإشراف، ص ٢١٦.

ص: ٢٤٦

معهم ألف و خمس مئة بعير و ثلاث مئة فرس،^(١) و غير ذلك من الأقوال. و من الواضح: أن لا مجال لتحديد الرقم الحقيقي لذلك كله و لا لغيره؛ لكن ممّا لا شك فيه: أن هذا العرض للتصوص و الأقوال يوضح مدى التفاوت بين عدّة و عدد المسلمين و أعدائهم من الأحزاب الذين جاؤوا من كلّ حذب و صوب.

٥. الحصار و القتال

إنّ المشركين قد أحاطوا بالمسلمين حتّى جعلوهم في مثل الحصن من كتائبه، و أخذوا بكلّ ناحيته، و قد استمرّ هذا الحصار مدّة طويلة بلغ شهراً كاملاً بل أكثر، و قد كانت الحراسة المستمرة و اليقظة الدائمة من الأمور الضرورية و كان المسلمون يقومون بها باستمرار. و أمر رسول الله (ص) المسلمين بالثبات في مكانهم و لزوم خندقهم. و نظر المشركون إلى الخندق، فتهيّئوا القدوم عليه، فجعلوا يدورون حوله بعساكرهم و خيلهم و رجلهم، و مكثوا على ذلك المدّة المتقدّمة و لم يكن بينهم حرب إلّا الرمي بالنبل و الحصار.^(٢) و كان للمشركين رماء يقدمونهم إذا غدوا متفرّقين أو مجتمعين بين أيديهم؛ فتناوشوا يوماً بالنبل ساعة و هم جميعاً في وجه واحد و جاء قبّة رسول الله (ص) و هو قائم بسلاحه على فرسه، فرمى «جَبَانُ الْعِرْقَةِ» سعد بن معاذ بسهم فأصاب أكَحْلَهُ.^(٣) و أمر (ص) بنقل سعد حينما جرح إلى خيمه رُفَيْدَةَ الَّتِي كانت أقامتها في

١- السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٣١٠ و ٣١١

٢- السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٣١٥ و نهاية الإرب، ج ١٧، ص ١٧١ و ١٧٢.

* الأكحل يقال له نهر الحياة، في كلّ عضو منه شعبة لها اسم على حدة. قال أبو حاتم: هو عِرْقٌ في اليد، و في الفخذ النساء و في الظهر الأَبهر

٣- إمتاع الأسماع، ج ١، ص ٢٣١ و ٢٣٢، و المغازي، ج ٢، ص ٤٦٨ و ٤٦٩.

ص: ٢٤٧

مسجد النبي لمداواة الجرحى، و كان يتعاهده بنفسه. (١)

٦. ضربة على (ع) يوم الخندق تعادل عبادة الثقلين

يقول المؤرخون: إنه بعد أن جرح سعد بن معاذ، أجمع رؤساء المشركين أن يغدو جميعاً، و جاؤا يريدون مضيقاً يقحمون منه خيلهم إلى النبي (ص)، فوجدوا مكاناً ضيقاً أغفله المسلمون، فلم تدخله خيولهم، فعبره عكرمة بن أبي جهل و نوفل بن عبد الله و ضرار بن الخطاب و هبيرة بن أبي وهب و عمرو بن عبدود، و وقف سائر المشركين وراء الخندق. (٢) و تقدم عمرو، فلما رأى المسلمين، وقف هو و الخيل التي معه و قال: هل من مبارز. (٣) و كان عمرو فارس قريش و كان يعدّ بألف فارس، و يسمى فارس يليل، (٤) و كان من مشاهير الأبطال و شجعان العرب، (٥) و كان كما قيل لم يهزم في مبارزة قط. (٦) فلما دعا عمرو للبراز قال (ص) على ما في الروايات من لهذا الكلب؟ فلم يقم إليه أحد. فلما أكثر، قام على (ع) و قال: أنا أبارزه يا رسول الله؛ فأمره بالجلوس، انتظاراً منه ليتحرك غيره. و أعاد عمرو النداء و الناس سكوت كأنّ على رؤوسهم الطير، لمكان عمرو، و الخوف منه و مَن معه و مَن وراءه.

١- عيون الأثر، ج ٢، ص ٧٢، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٢٥٠

٢- راجع: إمتاع الأسماع، ج ١، ص ٢٣٢، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٤، ص ٥٣٢ و ٥٣٣

٣- راجع: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٩٨، و الإرشاد للمفيد، ص ٥٢

٤- مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٢، و البحار، ج ٢٠، ص ٢٠٢. وجه تسميته بفارس يليل هو أنه أقبل في ركب من قريش، حتى إذا هو يليل و هو واد قريب من بدر عرضت لهم بنوبكر في عدد، فقال لأصحابه: امضوا. فقام في وجوه بني بكر حتى منعهم من أن يصلوا إليه، فعرف بذلك

٥- تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٨٦

٦- خاتم النبیین، ج ٢، ص ٩٣٨.

ص: ٢٤٨

فقال عمرو: أيها الناس! إنكم تزعمون أن قتلاكم في الجنة، و قتلانا في النار. أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنة، أو يقدم عدوًّا له إلى النار؟ فلم يقدّم إليه أحد.

فقام على (ع) دفعةً ثانية، قال: أنا له يا رسول الله، فأمره بالجلوس.

فجال عمرو بفرسه، مقبلاً مدبراً، وجاءت عظماء الأحزاب و وقفت من وراء الخندق و مدت أعناقها تنتظر، فلما رأى عمرو: أن أحداً لا يجيبه قال:

و لقد بحثت من النداء بجمعهم هل من مبارز؟ ...

فقام على (ع)، فقال: يا رسول الله! ائذن لي في مبارزته. فلما طال نداء عمرو بالبراز، و تتابع قيام أمير المؤمنين (ع)، قال له رسول الله

(ص): ادن مني يا علي. فدنا منه، فقلده سيفه (ذالفقار) و نزع عِمَامته من رأسه و عَمَّمه بها، و قال: امض لشأنك. (١)

فلما ولي (ع) قال النبي (ص): اللهم احفظه من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و من فوق رأسه و من تحت قدميه. (٢) و

يضيف البعض: أنه رفع عِمَامته و رفع يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه، و قال: اللهم إنك أخذت مني عبيدة بن الحرث يوم بدر،

و حمزة بن عبدالمطلب يوم أحد، و هذا أخى علي بن أبي طالب. «رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ» (٣) (٤) و قال (ص) حينئذ:

برز الإسلام (أو الإيمان) كله إلى الشرك كله. (٥) فخرج له علي (ع) و هو راجل، و عمرو فارساً، فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا

١- راجع: شرح النهج للمعتزلي، ج ١٩، ص ٦٣ و ٦٤، و الإرشاد، ص ٥٩ و ٦٠

٢- مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٣، و بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢٠٣ و ج ٤١، ص ٨٨

٣- الأنبياء ٨٩

٤- راجع: شرح النهج للمعتزلي، ج ١٩، ص ٦١ و ج ١٣، ص ٢٨٣ و ٢٨٤

٥- راجع: كشف الغمة، ج ١، ص ٢٠٥، و ينابيع المودة، ص ٩٤ و ٩٥، و إعلام الوري، ص ١٩٤.

ص: ٢٤٩

على. قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا على بن أبي طالب. فقال: يابن أخى، من أعمامك من هو أسن منك، فإننى أكره أن أهرق دمك. فقال له على. لكنتى والله لا أكره أن أهرق دمك.

فغضب، فنزل، و سل سيفه كأنه شعله نار، ثم أقبل نحو على (ع) مغضباً، واستقبله على بدركته؛ (١) فضربه عمرو فى دركته، فقدّها، و أثبت فيها السيف، و أصاب رأسه، فشجّه (٢) و ضربه على (ع) على جبل عاتقه، فسقط و ثار العجاج، (٣) فسمع رسول الله (ص) التكبير، فعرّنا أن علياً قد قتله.

... و خرجت خيولهم منهزمة، حتّى اقتحمت الخندق. (٤) عن ابن مسعود و عن بهز بن حكيم، عن أبيه قال: قال رسول الله (ص): لمبارزة على (أو قتل على) لعمر بن عبدود (أو ضربه على يوم الخندق) أفضل (أو خير) من عبادة الثقلين، أو أفضل من أعمال أمتى إلى يوم القيامة. (٥)

و فى نص آخر عن ابن مسعود: أبشر يا على، فلو وزن عملك اليوم بعمل أمتى لرجح عملك بعملهم. (٦) و زاد المجلسى و الطبرسى قوله: «و ذلك أنّه لم يبق بيتاً من بيوت المشركين إلّا و قد دخله و هن بقتل عمرو؛ و لم يبق بيت من بيوت المسلمين إلّا و قد دخله عزّ بقتل عمرو» (٧).

١- الدرقة: الجحفة و هى الترس من جلود ليس فيها خشب و لا عقب

٢- شج رأسه: جرحه و كسره

٣- العجاج: الغبار و الدخان

٤- راجع: البداية و النهاية، ج ٤، ص ١٠٦ عن البيهقى فى دلائل النبوة عن ابن إسحاق، و السيرة النبوية لابن كثير، ج ٣، ص ٢٠٤، و مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٣، و البحار، ج ٢٥، ص ٢٠٣ و ٢٠٤ و ٢٣٩

٥- راجع النصوص التى تشير إلى ذلك فى: كنز العمال، ج ١٢، ص ٢١٩، و تاريخ بغداد، ج ١٣، ص ١٩، و مقتل الحسين للخوارزمى، ص ٤٥، و مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ٣٢

٦- ينايع المودة، ص ٩٤، و شواهد التنزيل (ط سنة ١٤١١ هـ) ص ١٢

٧- راجع: مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٣، و البحار، ج ٢٠، ص ٢٠٥.

ص: ٢٥٠

قال المفيد: «فتوجه العتب إليهم، و التوبيخ، و التفریع، و الخطاب، و لم ینج من ذلك أحدٌ بالاتفاق إلّا أميرالمؤمنین (ع) إذ كان الفتح له و علی یدیه، و كان قتله عمرواً و نوفلاً بن عبدالله سبب هزيمة المشركين. و قال رسول الله (ص) بعد قتل هؤلاء النفر: الآن نغزوهم و لا یغزوننا».(١)

٧. الشهداء و القتلى

* الشهداء من المسلمين أربعة أو خمسة(٢)، و قيل ستة، و زاد الكازرونی: أنهم من الأنصار.(٣) و حسب بعض المصادر، فالشهداء هم: ثلاثة من بنی عبدالأشهل: سعد بن معاذ، رُمى بسهم، و أنس بن أوس، قتله خالد بن الوليد، و عبدالله بن سعد، رماه رجل من بنی عوفیف فقتله؛ و اثنان من بنی جشم، هما: الطفیل بن النعمان، قتله وحشى، و ابن عتمه، قتله هُبَيْرَة بن أبی وهب. و واحد من بنی النجار (أو دينار) هو كعب بن زيد، أصابه سهم غرب فقتله.(٤) * القتلى من المشركين ثمانية،(٥) و قيل: ثلاثة(٦)، و قيل: أربعة، جميعهم من قريش.(٧) و قال ابن شهر آشوب: إنّ عليّاً (ع) قتل يوم الأحزاب: عمرو بن عبدود و ولده و نوفلاً بن عبدالله بن المغيرة و منبه بن عثمان العبدري و هُبَيْرَة بن أبی هبيرة المخزومي.(٨)

١- الإرشاد، ص ٦٢.

٢- الوفاء، ج ١، ص ٣٠٤، و تاريخ الخميس، ج ١، ص ٤٩٢

٣- تاريخ يعقوبى، ج ٢، ص ٥٠، و تاريخ ابن الوردي، ج ١، ص ١٦٣

٤- سبل الهدى و الرشاد، ج ٤، ص ٥٥١، و عيون الأثر، ج ٢، ص ٦٧ و ٦٨

٥- تاريخ يعقوبى، ج ٢، ص ٥٠

٦- البدء و التاريخ، ج ٤، ص ٢٢٠

٧- العبر و ديوان المبتدأ و الخبر، ج ٢، ق ٢، ص ٣٢

٨- مناقب آل أبى طالب، ج ٢، ص ٨٣

ص: ٢٥٣

الفصل السابع بيعة الرضوان

إلى الحديبية

وقد ذكرت النصوص: أَنَّ النَّبِيَّ (ص) رأى في منامه: أَنَّهُ دخل مَكَّةَ هو وأصحابه، آمنين، مُحَلِّقِينَ رؤوسهم ومقَصِّرِينَ، وَأَنَّهُ دخل البيت، وأخذ مفتاحه، وأدَّى عمرته، وعَرَّفَ مع المعْرِفِينَ (١). فَلَمَّا أخبر (ص) أصحابه بما رأى فرحوا، وظَنُّوا أَنَّهُم يدخلون مَكَّةَ في عامهم ذاك. ثم أخبرهم أَنَّهُ يريد الخروج للعمرة؛ فتجهَّزوا للسَّفر، واستنفر العرب إلى ذلك وأهل البوادي من الأعراب حول المدينة، من أسلم، ثم خرج معتمراً، وأحرم هو وغالب من معه من ذِي الْحُلَيْفَةِ، وبعض أصحابه أحرم بالجحفة، وكان خروجه في ذِي القعدة.

وساق (ص) معه الهدى سبعين بدنة، وبعد أن صَلَّى الظَّهر في ذِي الحليفة أشعر عدَّةً منها، وهي موجَّهات إلى القبلة في الشَّقِّ الأيمن من سنامها، ثم أمر ناجية بن جندب، فأشعر الباقي، وقلدهنَّ (أى علَّقَ برقابهنَّ كلَّ واحدٍ نعلًا) وأشعر المسلمون بُدنهم وقلدوها، وكان النَّاسُ سبع مائة رجل، وقيل: ألفاً وأربع مئة، و سار حتَّى بلغ عُسفان* (٢).

١- راجع: تفسير مجاهد، ج ٢، ص ٦٠٣، ومعاني القرآن، ج ٦، ص ٥١١، وسبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ٣٣. و«عَرَّفَ مع المعْرِفِينَ» لعلَّ المراد أَنَّهُ جعل على النَّاسِ عُرُفَاء، كما في الأصل، أو المراد بالمُعْرِفِينَ هم الواقفون بعرفته، كما في سبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ٨٠.

٢- السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٩ و ١٠، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ١٦، و السيرة النبوية، لابن هشام، ج ٣، ص ٣٢١ و ٣٢٢. * عُسفان منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، وقيل: هي بين المسجدين، وهي من مَكَّةَ على مرحلتين، وقيل غير ذلك (راجع: معجم البلدان).

ص: ٢٥٤

و لما بلغ المشركين خروج رسول الله (ص)، راعهم ذلك، فاجتمعوا و تشاوروا، فتعاقدوا على منع رسول الله (ص) من دخول مكة في عامهم هذا.

ثم قَدَّمُوا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي مَأْتَى فَارِسٍ إِلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ (١)، و استنفروا من أطاعهم من الأحابيش، و خرجوا إلى بَلَدَحْ، (٢) و ضربوا بها القُباب و الأبنية و معهم النساء و الصبيان، فعسكروا هناك، و وضعوا العيون على الجبال.

و رجع بِشْرُ بْنُ سَفْيَانَ الَّذِي بَعَثَهُ (ص) عَيْنًا لَهُ مِنْ مَكَّةَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ و رَأَى عُسْفَانَ، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ (ص) بِخُرُوجِ قُرَيْشٍ مِنْ مَكَّةَ لِمَحَارَبَتِهِ و مَنَعِهِ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ لَقَدْ أَكَلْتَهُمُ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلُّوا بَيْنِي و بَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا، و إِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَاغْرَيْنَ، و إِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، قَاتَلُوا و بِهِمْ قُوَّةٌ؛ فَمَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ؟ فَوَ اللَّهِ لَا أَزَالُ أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ». (٣) ثم قام رسول الله (ص) في المسلمين و قال: «يا معشر المسلمين، أشيروا عليّ، أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبيهم؟ فأن قعدوا، قعدوا موتورين محرومين، و إن يأتونا، تكن عنقاً (٤) قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت، فمن صدنا عنه، قاتلناه؟».

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: اللَّهُ و رَسُولُهُ أَعْلَمُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، و لَمْ نَجِءْ

١- موضع بناحية الحجازيين مكة و المدينة و هو واد أمام عسفان بثمانية أميال (عن معجم البلدان)

٢- واد قبل مكة من جهة المغرب

٣- السالفة صفحة العنق، و هما سالفتان من جانبيه و كنى بانفرادها عن الموت

٤- و في لفظ: عينا بدل عنقا.

ص: ٢٥٥

لقتال أحد، و نرى أن نمضى لوجهنا فمن صدنا عن البيت قاتلناه. و وافقه على ذلك أسيد بن الحضير. ثم قام المقداد و قال بعد كلام أبى بكر: إنا و الله يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: «اذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» (١) و لكن اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون.

فقال رسول الله (ص): فسيروا على اسم الله. (٢) و خالف النبي (ص) العدو في الطريق، و قال لأصحابه: تيامنوا، في هذا العَصَل، (٣) و في رواية: اسلكوا ذات اليمين بين ظهور الحَمْض، (٤) فإن خالد بن الوليد بالعميم في خيل لقريش طليعة. (٥) كره رسول الله (ص) أن يلقي خالدًا فقال: تيامنوا فأيتكم يعرف ثنية ذات الحنظل؟ فقال بريدة بن الحَصِيب الأسلمي: أنا يا رسول الله عالم بها. فقال رسول الله (ص): اسلك أماننا. فأخذ بريدة في العصل قبل المغرب، فو الله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش (٦)، فانطلق يركض نذيرًا لقريش.

أمّا عدول النبي (ص) عن الطريق و عدم مواجهته طليعة المشركين التي كانت بقيادة خالد، فلعله أنه (ص) لم يُرد أن يواجه تلك الطليعة لكي يتجنب أى اشتباك معها، يمكن أن يدفع بالأمور إلى حيث تصبح الحرب مع قريش أمرًا مفروضًا لا يمكن تجنبه، و قد يمكن لقريش أن تشيع: أن أصحابه، أو بعضهم هم الذين

١- المائدة:

٢- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٧، و شرح النهج للمعتزلى، ج ١٤، ص ١١١

٣- العَصَل: الإعوجاج في صلابه، و المراد هنا الرَّمْل المعوج الملتوى

٤- الحَمْض: موضع يخرج على مهبط الحديبية من أسفل مكة

٥- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٧، و مسند أحمد، ج ٤، ص ٣٢٨، و عن صحيح البخارى، ج ٣، ص ١٧٨، و السنن الكبرى

للبيهقي، ج ٩، ص ٢١٨

٦- قتره الجيش: غبار الجيش.

ص: ٢٥٦

تسببوا بنشوب الحرب.

و يستوقفنا هنا قول رسول الله (ص): يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب الخ ... فإنّ نظرة منصفه إلى واقع الحال تعطينا: أنّ هذا الكلام من رسول الله (ص) ما هو إلّا رسالة ذات مغزى عميق و دقيق، يريد الرّسول (ص) أن يوصلها إلى النّاس، من أجل سوقهم نحو هدف يريد أن يصل إليه. مع ما في ذلك من إظهار درجة من العطف على هؤلاء الذين يظلمون أنفسهم و يظلمون غيرهم و هم قريش، أو على الأقلّ، فيه ايحاء بأنّ من الممكن التّجاوز عما مضى و أنّ الأمور بينه و بين قريش لم تصل إلى نقطة اللّارجوع.

اتّصالات و مداولات

لما اطمأنّ رسول الله (ص) بالحديّة أّاه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة، فكلموه و سأّله: ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنّه لم يأت يريد حرباً، و إنّما جاء زائراً للبيت، و معظماً لحرمة. فوعى بديل مقالته رسول الله (ص) و رجع إلى قريش و قال لهم: يا معشر قريش، إنّكم تعجلون على محمّد، إنّ محمّداً لم يأت لقتالٍ و إنّما جاء معتمراً، فاتّهموه و جبّهوه (١) و قالوا: و إنّ كان جاء و لا يريد قتالاً، فو الله لا يدخلها علينا عامه هذا أبداً، حتّى لا يبقى منّا رجلٌ.

ثمّ بعثوا إلى رسول الله (ص) عروة بن مسعود الثّقفي، فجاء رسول الله (ص) فقال: يا محمد، إنّها قريش، قد استنفروا لك الأحابيش (٢) و من أطاعهم، قد لبسوا جلود الثّمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً

١- جبّهوه: خاطبوه بما يكرهه

٢- الأحابيش هم بنو الهون بن خزيمه، و بنو الحرث بن عبد مناف، و بنو المصطلق، سمّوا بذلك لأنّهم تحالفوا تحت جبل بمكّه اسمه حبشى.

ص: ٢٥٧

و جعل عروءة يرمق أصحاب رسول الله (ص) بعينه ... فإذا أمرهم بأمرٍ ابتدروا أمره، و إذا توضّأ كادوا يقتتلوا على وضوئه، و لا يسقط شيءٌ من شعره إلّا أخذوه، و إذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، و ما يُحدّون النظر إليه، تعظيماً له.

فلَمّا فرغ عروءة من كلام رسول الله (ص) و ردّ عليه الرّسول (ص) مثل ما قال لبيد بن ربيعة، أتى عروءة قريشاً، فقال: يا قوم، إنّي وفدت إلى الملوكة: كسرى و قيصر و النجاشي، و إنّي والله ما رأيت ملكاً قطّ أطوع فيما بين ظهرائيه من محمدٍ في أصحابه. و الله إن رأيت ملكاً قطّ يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمداً و ليس بملكٍ ... و اعلموا أنّكم إن أردتم منهم السيف بذلوه لكم و قد رأيت قوماً لا يبالون ما يصنع بهم اذا منعتهم صاحبهم

فقال قريش: لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور، أو غيرك تكلم بهذا؟ ولكن نردّه عامنا هذا و يرجع إلى قابل.

فقام الحليس بن علقمة و كان يومئذ سيّد الأحابيش، فقال: دعوني آتية. فقالوا: آتية. فلَمّا أشرف على رسول الله (ص) قال (ص): هذا من قوم يُعظمون البُدن و يتألّهون (١)، فابعثوها له، فبعثت له، فلَمّا رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي (٢) عليها قلائدها، (٣) قد أكلت أو بارها من طول الحبس، ثمّ رجع إلى قريش و لم يصل إلى رسول الله (ص) إعظماً لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا له: اجلس، فإنّما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب و قال: و الله ما على هذا حالناكم، و لا على هذا عاقدناكم، أئصدّ عن بيت الله من جاء مُعظماً له! و الذي نفس الحليس بيده لَتَخْلُنَّ بين محمد و بين ما جاء له، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرّة رجلٍ واحد. قالوا له: مه، كُفّ عنّا يا حليس حتّى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

نجد أنّ جميع من جاؤوا من قبل قريش إلى النّبى (ص) لم يكن لديهم حجّة

١- يتألّهون: يتعبّدون و يعظمون أمر الإله

٢- عرض الوادي: جانبه

٣- القلائد: ما يعلق في أعناق الهدى ليعلم أنّه هدى.

ص: ٢٥٨

ي

عتصمون بها، فكانوا يلجأون إلى محاولة تخويله (ص) والمسلمين من عاقبه دفع الأمور باتجاه الحرب. ثم كانت حصيلة مساعيهم: أنهم يرجعون إلى قومهم ليواجهوهم بنفس المنطق الذي سمعوه من رسول الله (ص) و ذلك بدءاً من بديل بن ورقاء، مروراً بعروة بن مسعود الذي قال لهم: قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها، و انتهاءً بالحليس بن علقمة الذي سبقت مقالته.

فاتّضح بذلك كلّ: أنّ الأمر قد انتهى بتصدّع صفوف أهل الشّرك ... و ظهور الخلاف العميق فيما بينهم، إلى حدّ أنّ زعماء أقوياء في صفوفهم هم الذين يسعون لإقناع قريش بقبول عروض النبي (ص) و يعلنون أنّ خطّته خطّة رشد و صلاح، و هي نتيجة ذات أهميّة فائقة و حاسمة أيضاً.

رسول النبي (ص) إلى مكة

و قد بعث رسول الله (ص) خراش بن أميّة على جمل له (ص) إلى قريش ليخبرهم ما جاء له، فعقروا الجمل و أرادوا قتله فمنعه الأحابيش، فخلّوا سبيله، حتّى أتى رسول الله (ص) و أخبره بما لقي. (١) فدعا عمر ليعثه، فقال: إنّني أخاف قريشاً على نفسي و ليس لي من بني عدى أحد يمنعني، فبعث عثمان، فقال (ص) أخبرهم أنّا لم نأت لقتال و إنّما جئنا زوّاراً لهذا البيت معظمين لحرمة، معنا الهدى ننحره و ننصرف.

و لقيه أباؤ بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، فأجاره حتّى بلغ رسالته رسول الله (ص)، فقالوا: لا كان هذا أبداً و لا يدخلها علينا العام، و احتبسته قريش عندها ثلاثة أيام، فبلغ رسول الله (ص) أنّ عثمان قد قُتل، فقال (ص): لا نبرح حتّى نناجز

١- السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٦، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٦، و شرح أصول الكافي، ج ١٢، ص ٤٥٢، و جامع البيان، ج ٢٦، ص ١١١.

ص: ٢٥٩

القوم.

بيعة الرضوان

وقد زعموا: أن السبب في دعوة الناس إلى ببيعة الرضوان هو الشائعة التي سرت في الناس من أن عثمان قد قتل في مكة ... فدعا رسول الله (ص) الناس إلى البيعة.

ونقول: إن كون سبب البيعة هو هذه الشائعة موضع شك كبير، لأنهم يقولون: إن النبي (ص) قد بايع عن عثمان أيضاً بأن ضرب إحدى يديه على الأخرى وقال: اللهم إن هذه عن عثمان-(١) فإن صح هذا فهو يدل على أن النبي (ص) والناس كانوا يعلمون بحياة عثمان، فكيف يزعم الزاعمون أن شاعته قتله كانت السبب في أخذ البيعة من الناس؟!

على أننا نرجح أن يكون السبب القريب في الدعوة إلى ببيعة الرضوان:

١. إظهار مدى تصميم رسول الله (ص) على حقه الذي تنكره عليه قريش.

٢. أخذ قريش لعشرة من المسلمين الذين أرسلهم رسول الله (ص) إلى مكة لملاقاة أهاليهم و دخلوا سراً.

٣. إرسال جماعات ليلية تسعى لاختطاف أشخاص، أو القيام باغتيالات، قد يكون بعضها بالغ الخطورة، وقد أخذ المسلمون منهم خمسين رجلاً.

٤. حصول مناوشات و صدمات بين جماعة من المشركين و المسلمين، انتهت بأسر اثني عشر رجلاً من المشركين.

٥. قتل ابن زيم الذي أطلع النبي من الحديبية، فرماه المشركون، فقتلوه، ثم إصرار قريش، على أنها لن تمكن المسلمين من دخول مكة.

٦. إصرارها على استعادة هؤلاء الأرقاء الذين أسلموا و التحقوا بالمسلمين، حيث

١- السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٧، و كتاب الأربعين للشيرازي، ص ٥٨٨، و الإصابة، ج ٤، ص ٣٧٨.

ص: ٢٦٠

أراد (ص) أن يفهم قريشاً: أنه على استعدادٍ للدخول في الحرب من أجل هؤلاء.

٧. الضَّغَط على قريش لتستجيب إِمَّا لتمكينهم من زيارة بيت ربِّهم، أو ترضى بإعطاء العهد و الوعد لهم بذلك في السَّنة القادمة. فمن أجل كل ذلك جاءت الدَّعوة إلى بيعه الرِّضوان، الَّتِي تعطى الانطباع لقريش عن أن المسلمين يد واحدة مع رسول الله (ص).

النساء و البيعة

ولا ندرى كم كان عدد النساء اللَّاتِي حضرن في الحديبية، غير أن ممَّا لا شكَّ فيه هو: أن أخذ النَّبِيِّ (ص) البيعةَ منهنَّ له العديد من الدَّلالات، و هي التَّالية:

١. إنَّه يؤكِّد على حقيقة: أن الحرب حين تكون مصيريَّة، فإنَّ مشاركة النساء، و حتَّى الأطفال تصبح أمراً لا بدَّ منه، و لا غنى عنه.
 ٢. إنَّه عدا عن أن ذلك يتضمَّن تكريماً لعنصر المرأة، فإنَّه يعدَّ إعلاناً بأنَّ عليها أن تشارك في حماية المجتمع الإيماني، بما تقدر عليه ممَّا يتناسب مع طبيعة تكوينها و قدراتها.
 ٣. إنَّ ذلك يُظهر تصميم المجتمع الإيماني على الحصول على حقوقه، و يشير إلى قريش بحقيقة: أن الأمر ليس صراعاً على التَّفوذ، بهدف الحصول على مكاسب لفريقٍ يريد أن يجعل من نفسه حاكماً و مهيمناً. بل القضية أكبر من ذلك و أخطر؛ فإنَّ المجتمع الإيماني يرى: أنَّه إنَّما يطالب بحقوقه من حيث أن عناصره يحملون صفة الإنسانيَّة؛ فكلُّ من له هذه الصِّفة فلا بدَّ من أن ينال حقوقه بغضِّ النَّظر عن خصوصياته الفرديَّة، مثل اللون، أو العرق، أو السِّن، أو غير ذلك.
- و قد عبَّر عن ذلك عروة بن مسعود حين قال لقريش: «والله لقد رأيت معه نساءً ما كنَّ يُسلمنه على حالٍ».(١)

ص: ٢٦١

حديث البيعة

أتى رسول الله (ص) منازل بنى مازن بن النجار، و قد نزلت في ناحية من الحديبية فجلس في رحالهم تحت شجرة خضراء، ثم قال: «إن الله تعالى أمرني بالبيعة». فأقبل الناس يبائعونه حتى تداكوا، فما بقي لبنى مازن متاع إلّا وطئ، ثم لبسوا السلاح و هو معهم قليل. و كان عدد الذين شهدوا بيعته الرضوان - على ما روى البخارى و ابن مردويه عن قتادة خمس عشرة مائة، (١) و روى الشيخان و ابن جرير عن عبد الله بن أبي: كان أصحاب الشجرة ألفاً و ثلاثمائة، (٢) و روى سعيد بن منصور و الشيخان عن جابر بن عبد الله: كنّا يوم الحديبية ألفاً و أربعمائة. (٣) و قد اختلفوا في بيعته الرضوان، هل كانت على الموت، أو على عدم الفرار، (٤) أو أنّ المراد واحد كما ذكره البعض؟ (٥) و نقول: إنّ البيعة على عدم الفرار سواء أكانت هي نفسها البيعة على الفتح أم على الشهادة خلاف الحكمة و التدبير، و ذلك لأنها تتضمن اتهاماً لأصحابه، بأنهم مظنة الفرار من جهه، و فيها أيضاً إحياء للعدوّ بأنّ رسول الله (ص) غير واثق بنصر أصحابه له، و أنّ عدم الثقة هذا قد بلغ حدّاً جعله يلجأ إلى أخذ الموائيق و العهود منهم بذلك من جهه أخرى. و ممّا يشهد على ذلك ما رووه: من أنّ أول من بايع هو سنان بن أبي سنان الأسدي، فقال للنبي (ص): أبايحك على ما في نفسك. قال (ص): و ما في نفسي؟

١- المصدر السابق، ص ٥٠ و ٥١ عن البخارى، ج ٧، ص ٥٠٧

٢- نفس المصدر، عن البخارى، ج ٥، ص ٦٣، و مسلم ج ٣، ص ١٤٨٥

٣- عن البخارى، ج ٧، ص ٥٠٧ و عن مسلم، ج ٣، ص ١٤٨٤

٤- راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٥٠

٥- السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٧.

ص: ٢٦٢

قال: أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهر ك أو أُقتل، و صار الناس يبايعونه على ما بايعه عليه سنان. (١)

عهد الحديبية

فلما أجمعت قريش على الصلح و المودعة، بعثوا سهيل بن عمرو و حويطب و مكرزاً و قالوا لسهيل: ائت محمداً فصالحه و ليكن في صلحك: أن لا يدخل عامه هذا، فو الله لا تحدث العرب أنه دخل علينا عتوةً. فأتى سهيل رسول الله، (ص) فلما رآه رسول الله (ص) مقبلاً قال (ص): قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فلما انتهى سهيل إلى رسول الله (ص)، تكلم فأطال الكلام و تراجعاً، ثم جرى بينهما الصلح على:

١. أن توضع الحرب بينهما عشر سنين.
٢. أن يأمن الناس بعضهم بعضاً.
٣. أن يرجع رسول الله (ص) عامه هذا، فإذا كان العام المقبل قدمها، فخلوا بينه و بين مكة، فأقام فيها ثلاثاً.
٤. أن لا يدخلها إلّا بسلاح الرّاكب، و السيوف في القرب، (٢) لا يدخلها بغيره.
٥. أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه و إن كان على دين محمد رده إلى وليه.
٦. من أتى قريشاً ممن اتبع محمداً لم يردوه إليه.
٧. و أن بينهم و بين رسول الله (ص) عتية مكفوفة. (٣)

١- السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٨، و الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٩٣، و أسد الغابة، ج ٥، ص ٢٢١

٢- القرب: الخاصرة، و قيل هو شبه الجراب يطرح فيه الرّاكب سيفه بغمده و سوطه

٣- العتية المكفوفة: أن يكف ما يحمله الإنسان في باطنه من حقد أو غل أو عداوة، فلا يظهر ذلك و لا يعلن به.

ص: ٢٦٣

٨. أنه لا إسلال. (١) ٩. و لا إغلal. (٢) ١٠. أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد و عهده دخل فيه، و من أحب أن يدخل في عقد قريش و عهدهم دخل.
١١. أنه من قدم مكة من أصحاب محمد (ص) حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله، فهو آمن على دمه و ماله، و من قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر و إلى الشام، يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه و ماله. (٣) ١٢. أن يخلوا له مكة من قابل ثلاثة أيام، و تخرج قريش كلها من مكة، إلّا رجل واحد منها، يخلّفونه مع محمد و أصحابه. (٤) ١٣. و أن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه.
١٤. و أن لا يمنع أحداً من أصحابه إن أراد أن يقيم بها. (٥) ١٥. و أن يكون الإسلام ظاهراً بمكة لا يكره أحد على دينه و لا يؤذى و لا يُعَيَّر. (٦) و جاء في آخر العهد: «شهد أبوبكر بن أبي قحافة ... و كتب علي بن أبي طالب. (٧)

١- الإسلال: السرقة الخفية و لعل المراد نفى الإغارة، أو نفى سلّ السيوف، أو كليهما

٢- الإغلal: الخيانة، و المراد: لا خيانة خفيه، أو لا تلبس الدروع

٣- راجع: كنز العمال، ج ١٠، ص ٣٠٦، و مدينة البلاغة، ج ٢، ص ٢٨١، و تفسير النيسابوري، ج ٢٦، ص ٤٩، و مجمع البيان، ج ٩، ص ١١٨، و المصنّف لابن أبي شيبة، ج ١٤، ص ٤٤١

٤- راجع: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٤٥، والبحار، ج ٢٠، ص ٣٦٢

٥- مكاتيب الرسول، ج ٣، ص ٧٨، عن صحيح البخاري، ج ٢، ص ٢٤٢، و صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤١٠

٦- البحار، ج ٢٠، ص ٣٥٢ و ٣٦٢، عن تفسير القمي، ج ٢، ص ٣١٣، و مكاتيب الرسول، ج ٣، ص ٧٧ و ٩٠، و نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٣، و موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ٦٢٩

٧- راجع: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٥٠.

ص: ٢٦٤

فكره المسلمون هذه الشروط، و امتعضوا منها، و أبى سهيل إلّا ذلك، و لقي عمر من هذه الشروط أمراً عظيماً، و قال: والله ما شككت منذ أسلمت إلّا يومئذٍ و جعل يردّ على رسول الله (ص) الكلام. (١)

صلح الحديبية أعظم الفتح

قالوا: روى البيهقي عن عروء، قال: قفل رسول الله (ص) راجعاً، فقال رجلٌ من أصحابه: ما هذا بفتحٍ، لقد صُيِّدنا عن البيت، و صُيِّد هدينا، و ردّ رسول الله (ص) رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه.

فبلغ ذلك رسول الله (ص)، فقال: بنس الكلام، بل هو أعظم الفتح، قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالزّاح عن بلادهم، و يسألوكم القضية، و يرغبون إليكم فى الأمان، و لقد رأوا منكم ما كرهوا، و أظفركم الله تعالى عليهم، وردّكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتح

فقال المسلمون: صدق الله و رسوله، فهو أعظم الفتح، و الله يا نبى الله ما فكّرنا فيما فكّرت فيه و لأنّك أعلم بالله و بالأمور منّا. (٢) و روى ابن أبى شيبه، و الإمام أحمد، و البخارى فى تاريخه، و أبو داود، و النسائى، و ابن جرير و غيرهم عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحديبية مع رسول الله (ص) فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحى، و كان إذا أتاه اشتدّ عليه، فسرى عنه، و به من السرور ما شاء الله، فأخبرنا أنّه أنزل عليه: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً». (٣)

١- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٥٣ عن البخارى، ج ٤، ص ٢٦ و ١٢٥ و عن مسلم، ج ٣، ص ١٤١٢

٢- راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٥٨ و ٥٩، و الدر المنثور، ج ٦، ص ٦٨، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٢٤، و السنن الكبرى، ج ٦، ص ٣٢٥

٣- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٦٠ عن البخارى فى التفسير، ج ٨، ص ٥٨٢، و البيهقي فى الدلائل، ج ٤، ص ١٥٥، و الدر المنثور، ج ٦، ص ٦٨.

ص: ٢٦٥

نتائج و آثار

إن هدنة الحديبية كانت فاتحة عهد جديد، له خصوصياته و كانت له آثاره العميقة في التحوّلات الكبيرة و العامّة، التي أكّدت الحاجة إلى طاقات و إمكانيات، و كذلك إلى وسائل، ثم إلى سياسات و مواقف من نوع آخر غير ما كان الواقع يحتاجه في الظروف و في الفترة التي سبقت الحديبية، و إن سير الأحداث التي تلت هذا الصّبح يُظهر هذه الحقيقة و يفرض على الباحث رؤية جديدة من شأنها أن توفر له فهماً أعمق و أوضح لتلك الأحداث.

إن سورة الفتح و كذلك تصريحات رسول الله (ص) و نصوص عهد الحديبية أظهرت: أن الإسلام قد حقّق في الحديبية أموراً هامّة و أساسيّة جدّاً لا مجال للتعرض لها في كتاب كهذا، فلا بدّ من الاختصار على بعضها فنقول:

١. إن السّورة قد اعتبرت ما جرى في الحديبية فتحاً مبيناً، و صرّح بذلك الرّسول (ص) و قد أظهرت الوقائع هذا الأمر بصورة جليّة.
٢. لقد أوضحت الآيات: أن من جملة ما حقّقه صلح الحديبية هو: أن الله تعالى قد جعل الأمور باتّجاه أرغم قريشاً على اتّخاذ موقف من شأنه أن يسقط مزاعمها في حقّ رسول الله (ص)، فإنّ الصّبح قد ركز القناعة بأنّ النّبي (ص) لم يكن يسعى في قطع الأرحام، و لم يكن يمارس العدوان و البغي، و أنّه إنّما يطالب بالكفّ عن الظّلم و عن البغي، و أنّه الوّصول، الودود، الرّحيم، الرّضى، المّدى يتعامل بالصّفح و العفو، حتّى عن أعدى أعدائه.

و هذا هو ما أشار إليه قوله تعالى: «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر...» فقد هيأ الصّبح قريشاً للإقرار: بأنّ النّبي (ص) لم يكن مذنباً في حقّها، بل هي سوف تبرّؤه من الذّنب، حتّى حين تسير الأمور باتّجاه لا ترضاه.

و بعد... فإنّنا نستطيع أن نفهم الكثير من نتائج هذه الهدنة من ملاحظة نفس

ص: ٢٦٦

الشروط التي وضعت في وثيقة الصلح، منها:

ألف. أن الصلح قد أفسح المجال أمام الكثير من المشركين و المسلمين للتلاقى في مكّة و في المدينة و غيرهما، و طرح القضايا فيما بينهم على بساط البحث، و التقى الأصدقاء و الأهل و ذوو الأرحام ببعضهم.

ب. يضاف إلى ذلك: أن الكثيرين من المشركين قد شاهدوا عن قرب أحوال النبي (ص) و عاينوا حسن سيرته و حميد طريقته و جميل أخلاقه الكريمة، و عرفوا الكثير عن طبيعة تعاطيه مع القضايا، و أدركوا: أن ما يسعى إليه ليس هو التسلّط على الآخرين و اكتساب الامتيازات على حسابهم، بل هو يريد أن يُحقّق لهم المزيد من الرّفعة و الشّوكة و الكرامة و العزّة، و هذا أمر لم يعرفوه و لم يألفوه في زعمائهم، الذين يريدون: أن يتّخذوا مال الله دُولاً و عباد الله حُولاً.

فلا بدّ أن تميل نفوسهم إلى الإيمان و يبادر خلق منهم الإسلام و يزداد الآخرون له ميلاً. (١) و كان ذلك أعظم الفتح، فقد دخل الإسلام في تينك السّنتين مثل ما دخل فيه قبل ذلك، بل أكثر. (٢) بل لقد روى عن الإمام الصادق (ع) أنّه قال: فما انقضت تلك المدّة (و هي سنت الهدنة) حتّى كاد الإسلام يستولى على أهل مكّة. (٣) ج. إنّ شروط الصلح قد مكّنت من إظهار الإسلام في مكّة، بعيداً عن أى ضغوط حتّى النفسية منها، فلم يعد أحدٌ يمنع أحداً من الدّخول في الإسلام، فدخل فيه من أحبّ، و لم يعد الدّاخل في هذا الدّين يخشى الاضطهاد و الأذى.

و لو أنّ النبي (ص) اختار طريق الحرب، فإنّ ضرراً بالغاً سوف يلحق بهؤلاء

١- مكاتيب الرسول، ج ٣، ص ٩٤، و شرح صحيح مسلم للنووي، ج ١٢، ص ١٤٠، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٨٠

٢- تاريخ الأمم و الملوك، ج ٢، ص ٢٨٣، و النصّ و الاجتهاد، ص ١٨٣

٣- البحار، ج ٢٠، ص ٣٦٣، و إعلام الوري، ص ٦١، و مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٧٥، و مكاتيب الرسول، ج ٣، ص ٩٤.

ص: ٢٦٧

المسلمين المستضعفين؛ لأنّ قريشاً سوف تشتدّ عليهم و لربّما قتلت الكثير منهم.

فكان الصّالح سبباً في حفظ هؤلاء، و هو صلح سعت إليه قريش نفسها و ظهر إعزاز الله تعالى لأوليائه و لدينه.

د. إنّ هذا العهد قد جعل المسلمين في مأمن من جانب قريش، فتفرّغوا لنشر الإسلام في سائر القبائل. فما حقّقه (ص) في هذا الصّالح أضعاف أضعاف ما تحقّق في حروبه الدّفاعيّة مع قريش و سواها.

و يكفي للدّليل على ذلك، أنّهم يقولون: إنّ النّبيّ (ص) قد بعث بعد الحدييّة سراياه و بعوثة في مهمّة الدّعوة إلى الله تعالى، فلم تبق كورة و لا مِخلاف (١) في اليمن، و البحرين. و الإمامة إلّا و فيها رُسل النّبيّ (ص) و النّاس يدخلون في دين الله أفواجا. (٢) و إذا كان قد جاء إلى الحدييّة بألف و أربع مائه أو نحو ذلك، فإنّه جاء بعد سنتين فقط بعشرة آلاف مقاتل، و فتح الله له مكّة و دخلها من غير قتال. (٣) هـ. دخول النّبيّ (ص) مكّة في العام التّالي و أداء مناسك العمرة من دون قتال. و هذا يمثّل اعترافاً من قريش بقوة الإسلام و بأنّ للمسلمين الحقّ في ممارسة شعائر دينهم حتّى في مكّة.

٣. إنّّه بعد أن أصبح المسلمون في راحة من جهة قريش راسل (ص) الملوك من حوله، فأرسل كتب الدّعوة إلى الإسلام إلى كسرى و قيصر و المقوقس و غيرهم و كان ذلك بعد الحدييّة في السنّة السادسة أو السّابعة بعد الهجرة. (٤)

٤. إنّّه في ظلّ صلح الحدييّة انطلق النّبيّ (ص) إلى يهود خيبر، الّذين كانوا و ما

١- المِخلاف: الكورة من البلاد و منه مخاليف اليمن

٢- راجع: مكاتيب الرسول، ج ٣، ص ٩٥

٣- راجع: البداية و النهاية، ج ٥، ص ٣٥١، و الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٣٤، و السيرة النبويّة، لابن هشام، ج ٣، ص ٧٨٧

٤- راجع: مكاتيب الرسول، ج ١، ص ١١٣ عن الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٥٨ و ٢٥٩ و عن الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٨٠ و عن تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٨٨.

ص: ٢٦٨

ى

زالون يعلنون الحرب على الإسلام و المسلمين، و كان اليهود أكبر قوة ضاربة في منطقة نقطة الارتكاز للوجود الإسلامي، فقد كانوا قادرين على تجهيز عشرة آلاف مقاتل من اليهود في المنطقة، فزحف إليهم النبي (ص) في ألف و أربع مائة مقاتل. هو أمر لم يكن متيسراً له قبل الحديبية، فإنه لم يكن يستطيع أن يخلي المدينة من أهلها ليقود جيشاً يجمع فيه كل القوى المقاتلة و يترك المدينة من دون قوة تدافع عنها.

و قد منع عهد الحديبية قريشاً من مهاجمتها و من أن تمد يد العون ليهود خيبر و لغيرهم و كانت سائر القبائل القريبة أضعف و أهون من أن يخشى منها أمر من هذا القبيل.

٥. إن قريشاً قد اضطرت إلى الاعتراف بقوة المسلمين، و أنها أصبحت متكافئة معها، و أنها قوة لها حضورها و لابد أن تتعامل معها معاملة التد للتد، ولولا أنها رأت فيها ذلك لم تقدم على عقد الصلح معها. و قبل الحديبية لم تكن قريش على استعداد للاعتراف بهذا التكافؤ، بل ظلت تعتبر المسلمين حالة تمرّد شاذة لابد من السيطرة عليها و إخضاعها.

ص: ٢٧١

الفصل الثامن غزوة خيبر

تقديم

إنَّ هِدْنَةَ الْحَدِيثِ قَدْ أَعْطَتْ الانْطِبَاعَ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَصْبَحُوا قُوَّةً كَبِيرَةً، فَرَضُوا هَيْبَتَهُمْ فِي الْمَنْطِقَةِ بِأَسْرَهَا؛ الْأَمْرَ الَّذِي دَعَا قَرِيشًا إِلَى الْقَبُولِ بِالْهِدْنَةِ، بَعْدَ أَنْ أَنْهَكَتْهَا الْحُرُوبُ الْمُتَتَالِيَةُ مَعَهُمْ؛ بَلْ إِنَّهُ (ص) أَصْبَحَ يَعْمَلُ عَلَى نَشْرِ دَعْوَتِهِ فِي كُلِّ بَقَاعِ الدُّنْيَا وَهُوَ يَرْسِلُ إِلَى أَكْثَرِ مُلُوكِ الْأَرْضِ طَالِبًا مِنْهُمْ الدَّخُولَ فِي دِينِهِ فِي خُطَابٍ قَوِيٍّ وَحَازِمٍ.

وَلَمْ يَعُدْ فِي الْمَحِيطِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ قُوَّةً كَبِيرَةً مَتَمَّاسِكَةً، يُمْكِنُ أَنْ يَحْسَبَ لَهَا حِسَابًا إِلَّا يَهُودَ مَنْطِقَةِ خَيْبَرَ، الَّذِينَ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى تَجْهِيْزِ عَشْرَةِ آلَافٍ مُقَاتِلٍ، وَهِيَ قُوَّةٌ لَا يُسْتَهَانَ بِهَا، إِذْ لَدَيْهِمْ حُصُونٌ مَنِيعَةٌ، وَقُدْرَاتٌ اِقْتِصَادِيَّةٌ، وَلَسَوْفَ تَكُونُ الْمَوَاجِهَةُ صَعْبَةً مَعَهُمْ.

وَكَانَتْ اسْتِعْرَاضَاتُ يَهُودِ خَيْبَرَ لِقَوَّتِهِمْ، وَظُهُورُ اغْتِرَارِهِمْ بِهَا، وَرُكُونُهُمْ إِلَيْهَا قَدْ لَقَّتْ الْأَنْظَارَ، وَلَعَلَّهَا تَرَكَتْ آثَارًا عَلَى بَعْضِ الضَّعْفَاءِ فِي الْمَنْطِقَةِ مِثْلَ غُطْفَانَ وَسَوَاهَا.

وَلَكِنَّ الْأُمُورَ قَدْ سَارَتْ فِي غَيْرِ الْإِتِّجَاهِ الَّذِي تَوَقَّعُوهُ، إِذْ سَرَعَانَ مَا تَهَاوَتْ أَحْلَامُهُمْ، وَخَابَتْ آمَالُهُمْ، وَأَنْجَزَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَعْدَهُ وَنَصَرَ جُنْدَهُ وَهَزَمَ جُمُوعَ الْيَهُودِ وَحْدَهُ، وَكَانَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، وَكَلِمَةُ الْبَاطِلِ هِيَ السُّفْلَى.

ص: ٢٧٢

ماذا عن خيبر؟

خيبر اسم منطقة تقع على ثلاثة أيام من المدينة على يسار الحاج القادم من الشام، و بينها و بين المدينة ثمانية بُرد. (١) و الخيبر بلسان اليهود هو الحصن و لذا سميت خيابر أيضاً. (٢) و في هذه المنطقة حصون و مزارع و نخل كثير و توصف خيبر بكثرة التمر، (٣) و كانت حصونه ثمانية: النَّطَاء، و الوطيح، و السَّالَم، و الكتيبة، و الشَّق، و الصَّعب و ناعم و القموص. و كان أول حصن فتحه رسول الله (ص) فيها ناعم، ثم القموص، ثم حصن الصَّعب بن معاذ و كان أعظم حصون خيبر و أكثرها مالاً و طعاماً و حيواناً، ثم الشَّق، و النَّطَاء، و الكتيبة. فهذه الحصون الستة فتحها رسول الله (ص) عَنوةً، (٤) ثم افتتح الوطيح و السَّالَم و هو آخر فتوح خيبر صلحاً، بعد أن حاصرهم.

تاريخ غزوة خيبر

لَمَّا قدم رسول الله (ص) إلى المدينة من الحديبية و ذلك في ذى الحجة من سنة ست مكث بها عشرين ليلة، أو قريباً منها، ثم خرج في المحرم إلى خيبر. (٥) قال الواقدي: أمر رسول الله (ص) أصحابه بالخروج، فجدّوا في ذلك، و استنفروا

١- البريد أربعة فراسخ، و الفرسخ ثلاثة أميال، و كل ميل أربعة آلاف خطوة و كل خطوة ثلاثة أقدام

٢- راجع: تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٤٢، و تهذيب المقال، ج ٥، ص ٤٢١

٣- راجع: السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٣١، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٥٢

٤- العنوة: أخذ الشيء قهراً

٥- و قيل غير ذلك، فعن ابن عباس أنه أقام بعد الحديبية في المدينة عشر ليالٍ (سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٥٣) و عن سليمان التيمي: خمسة عشر يوماً (المصدر السابق) و قيل: أقام شهراً و بعض شهر (السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٣١). كما أنهم اختلفوا في الشهر الذي وقعت فيه غزوة خيبر، بين شهر صفر (سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٥٢ و المغازي، ج ٢، ص ٦٣٤) و ربيع الأول (نفس المصدرين) و جمادى الأولى (تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٤٢).

ص: ٢٧٣

من حوله مَن شهد الحديبية، يغزون معه (١)، واستخلف على المدينة نُمَيْلَةَ بن عبد الله الليثي (٢) وقيل: سَبَاع بن عُرْفَةَ (٣) وقيل أباذر. (٤) وقالوا: إنه (ص) أقام يحاصر خيبر بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها في صفر. (٥) ولكنه غير دقيق، فإن حصارها قد تعدى الأيام إلى الأشهر كما سنرى ولعله يتحدث إلى حصار بعض حصونها فقط.

وقد روى عن ابن عباس: أنه (ص) أقام بخيبر ستة أشهر يجمع بين الصلاتين. (٦) وأن حساب أيام الحصار للحصون المختلفة وفق ما ورد في النصوص التاريخية والروائية يعطى: أن الحصار قد دام عشرات الأيام وإن لم يصل إلى ستة أشهر.

وصول رسول الله (ص) إلى خيبر

ثم سار رسول الله (ص) حتى انتهى إلى المنزل و هي سوق لخيبر، وكانت يهود لا يظنون قبل ذلك أن رسول الله (ص) يغزوهم لمنعتهم و حصونهم و سلاحهم و عددهم. فلمّا أحسّوا بخروج رسول الله (ص) إليهم، قاموا يخرجون كلّ يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً، ثم يقولون: محمد يغزونا؟! هيهات! هيهات! و كان ذلك شأنهم.

فخرج رسول الله (ص) إليهم، فعَمِيَ عليهم مخرجه، حتى نزل بساحتهم ليلاً. فلمّا أصبحوا و فتحو حصونهم غادين معهم المساحي و الكرازين و المكاتل، (٧) فلمّا

١- المغازي، ج ٢، ص ٦٣٤

٢- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١١٥ عن ابن هشام

٣- نفس المصدر، عن أحمد و سعيد بن منصور

٤- الإمتاع، ص ٣١٠، و المغازي، ج ٢، ص ٦٣٧

٥- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٥٢، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٤٢

٦- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٥٦ عن الطبراني في الأوسط

٧- المساحي: جمع مسحاء و هي المجرفة من الحديد؛ و الكرازين: جمع كرز و هو الفأس؛ و المكاتل: جمع مكتل و هو الزبيل الكبير (النهاية ٢ / ١٥٠ و ٨ / ١٤).

ص: ٢٧٤

نظروا إلى رسول الله (ص) ولّوا هارين إلى حصونهم. (١) فقال رسول الله (ص) ورفع يديه: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين». (٢) قال ابن إسحاق ومحمد بن عمرو بن سعد: و فرّق رسول الله (ص) الرايات ولم تكن الرايات إلّا يوم خيبر وإّما كانت الألوية. (٣) وكانت راية رسول الله (ص) سوداء من بُرد لعائشة تدعى العقاب، ولواؤه أبيض، دفعه إلى عليّ بن أبي طالب (ع) وكان شعارهم: «يا منصور أمّث». (٤) ولكنّا نقول: أوّلًا، ذكروا أنّ اللّواء الّذى دفعه (ص) إلى عليّ (ع) يوم خيبر و كان أيضًا كان يقال له: العقاب أيضًا. (٥) إلّا يفيد ذلك أنّ اللّواء هو نفس الرّاية؟

ثانيًا؛ قد صرّح الروايات: أنّه (ص) أعطى اللّواء لعلّي (ع) في قضية قتل مرحب و فتح خيبر؛ مع أنّ عبارة النّبيّ (ص) الّتي تناقلتها الروايات الكثيرة هي: «لأعطين الرّاية غدًا رجلًا يحبّ الله و رسوله...». فلا معنى للتّفريق بين اللّواء و الرّاية.

ثمّ صفّ رسول الله (ص) أصحابه و وعظهم و نهاهم عن القتال حتّى يأذن لهم. ثمّ أذن لهم في القتال و حتّهم على الصّبر، و أوّل حصن حاصره حصن ناعم و قاتل (ص) يومه ذاك أشدّ القتال، و قاتله أهل النّطاة أشدّ القتال.

و جعلت نبل اليهود تخالط العسكر و تجاوزه، و المسلمون يلتقطون نبلهم، ثمّ

١- سبل الهدى و الرّشاد، ج ٥، ص ١١٨، و السيرة الحليّة، ج ٣، ص ٣٣، و المغازي، ج ٢، ص ٦٣٧ و ٦٤٣ و ٦٤٢

٢- هل كان هذا منه (ص) دعاءً بخراب خيبر، أو أنّه (ص) قد تفاعل بخرابها حين رأى الفؤوس و المساحي الّتي هي آله الهدم كما زعمه بعضهم-، أو أنّه (ص) بصدد الإخبار عن خرابها، بقرينه قوله: «أنا إذا نزلنا...»؟ قد يكون هذا الاحتمال الأخير قريبًا، ثمّ الاحتمال الأوّل، والله العالم

٣- سبل الهدى و الرّشاد، ج ٥، ص ١٢٠ و أخرجه البيهقي في الدلائل، ج ٤، ص ٤٨

٤- سبل الهدى و الرّشاد، ج ٥، ص ١٢٠

٥- راجع: السيرة الحليّة، ج ٣، ص ٣٦.

ص: ٢٧٥

ي

رَدُونَهَا عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ (ص) تَحَوَّلَ إِلَى الرَّجِيعِ وَ أَمَرَ النَّاسَ، فَتَحَوَّلُوا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) يَغْدُو بِالْمُسْلِمِينَ عَلَى رَايَاتِهِمْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ الْحَصْنَ عَلَيْهِمْ.

قَتْلُ عَلَى (ع) مَرَجَباً

لَقَدْ كَانَ بِخَيْرِ أَرْبَعَةِ عَشَرَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ فِي حَصُونِهِمُ الثَّمَانِيَّةِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) يَفْتَحُهَا حَصْنًا حَصْنًا، وَ كَانَ مِنْ أَشَدِّ حَصُونِهِمْ وَ أَكْثَرُهَا رِجَالًا الْقَمُوصُ؛ (١) بَلْ هُوَ حَصْنُ خَيْرِ الْأَعْظَمِ، (٢) وَ قَدْ فَتَحَ اللَّهُ هَذَا الْحَصْنَ الْعَظِيمَ عَلَى يَدِ عَلَى (ع) بَعْدَ أَنْ حَاصَرَهُ الْمُسْلِمُونَ عَشْرِينَ لَيْلَةً. (٣) وَ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: (٤) إِنَّ الْقِتَالَ بَقِيَ أَيَّامًا يَشْتَدُّ وَ الرَّسُولُ (ص) يُوَلِّي الْقِيَادَةَ كُلَّ يَوْمٍ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِهِ وَ يَرْجِعُ خَائِبًا وَ مُضَى يَقُولُ وَ يَرُوي عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَمْرٍو الْأَكْوَعِ: أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ أَبَا بَكْرٍ بِرَايَتِهِ وَ كَانَتْ بِيضَاءَ إِلَى بَعْضِ حَصُونِ خَيْرٍ، فَرَجَعَ وَ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا، ثُمَّ بَعَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَ كَانَ نَصِيْبُهُ نَصِيْبُ صَاحِبِهِ. وَ لَمَّا بَلَغَ الْجَهْدَ بِالْمُسْلِمِينَ وَ نَفَدَ أَكْثَرُ زَادِهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ (ص) بِصَوْتٍ رَفِيعٍ سَمِعَهُ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ: «وَاللَّهِ لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رِجُلًا يَحِبُّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَحِبُّهُ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ» وَ فِي لَفْظٍ: «يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، لَيْسَ بِفَزَارٍ ... يَأْخُذُهَا عَنُودَةً». قَالَ بَرِيدَةُ: فَبِتْنَا طَبِيبَهُ أَنْفُسَنَا أَنْ يَفْتَحَ غَدًا وَ بَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ (٥) لِيَلْتَهُمْ أَيْتُهُمْ

١- البحار، ج ٢١، ص ٢١ عن إعلام الوري، ج ١، ص ٢٠٧

٢- تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٤٨، و معجم ما استعجم للبكري الأندلسي، ج ٢، ص ٥٢٢

٣- راجع: السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٤١، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٤٨، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٢٤

٤- السيرة النبوية، ج ٣، ص ٣٤٩

٥- بات الناس يدوكون: أي باتوا في اختلاط و اختلاف، و الدوكة: الاختلاط.

ص: ٢٧٦

ي

عطاها.

فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ص) كُلَّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَمَا مَتَى رَجُلٌ لَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص) مَنْزِلَةٌ إِلَّا وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الرَّجُلُ.

و كان علي (ع) قد أصيب برمدٍ شديدٍ كما اتَّفقت على ذلك الروايات فاستدعاه النَّبِيُّ (ص)، فمسح بيده الكريمة على عينيه، و قيل: تفل فيها، فبرئت من ساعتها، و دعاه و أعطاه الزَّيْءَ و وجَّهه إلى الحصن. (١) قال سلمة بن الأكوع: فانطلق علي (ع) يهرول هروله، و نحن خلفه نتبع أثره، حتَّى ركز الزَّيْءَ تحت الحصن.

فكان أوَّل من خرج إليهم الحارث أبو زينب، أخو مرحب في عادية، (٢) و كان معروفًا بالشَّجاعة، فانكشف المسلمون، و ثبت علي (ع)، فاضطربا ضرباتٍ، فقتله علي (ع). و رجع أصحاب الحارث إلى الحصن، و أغلقوا عليهم، و رجع المسلمون إلى موضعهم. فاستعظم ذلك قائدهم مرحب بعد أن شهد مصرع أخيه و هزيمة من معه، فخرج من الحصن و عليه مِغْفَرٌ معصفريمانى و حجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه و هو يرتجز و يقول:

قد علمت خير أنى مرحب شاكى السلاح بطلٌ مجرَّب

إذا الليوث أقبلت تلَّهَّب و أحجمت عن صولة المغلَّب

و لم يكن بخير أشجع من مرحب، و لم يقدر أحدٌ من أهل الإسلام أن يقاومه فى الحرب. (٣) فبرز له على بن أبى طالب (ع) و هو يرتجز:

أنا الذى سمّنى أمى حيدر (٤) كليث غابات كربه المنظرة

١- راجع: منتخب كنز العمال (مطبوع مع مسند أحمد، ج ٤، ص ١٢٧ و ١٢٨، و الصواعق المحرقة، ص ٧٤، و حياة الحيوان، ج ١، ص ٢٣٧)

٢- أى ممّن يعدّون للقتال على أرجلهم

٣- تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٥٠

٤- قال ثابت بن قاسم: فى تسمية علي (ع) بحيدرة ثلاثة أقوال:

أحدها: أن اسمه فى الكتب المتقدّمة أسد، و الأسد هو الحيدرة.

الثانى: أن أمّه فاطمة بنت أسد (رضى الله عنها) حين ولدته، كان أبوه غائباً، فسّمته باسم أبيها، فقدم أبوه فسّماه عليّاً.

الثالث: أنّه كان لُقّب فى صغره بحيدرة؛ لأنّ «الحيدرة» الممتلى لحماً مع عظم بطن و كذلك كان علي (ع) (سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ١٦٣).

ولكنّ الصّحيح فى القضية هو ما رواه المفيد: لما كان يوم خيبر خرج مرحب و كان طويل القامة، عظيم الهامة، و كانت اليهود تقدّمه لشجاعته و يساره. إلى أن قال: و كانت له ظئرٌ و كانت كاهنّة، تعجب بشبابه و عظم خلقه، و كانت تقول له: قاتل كلّ من قاتلك و غالب كل من غالبك إلّا من تسمّى عليك بـ «حيدرة» فإنّك إن وقفت له هلكت.

فَلَمَّا ارْتَجَزَ (ع) يوم خيبر بـ «أنا الذى سمّنى أمى حيدر...» و سمعها منه مرحب، هرب و لم يقف، خوفاً ممّا حذرته منه ظئره. فتمثّل له إبليس فى صورة حبر من أحبار اليهود، فقال: إلى أين يا مرحب؟ فقال: قد تسمّى على هذا القرن بحيدرة!! فقال له إبليس:

فما حيدرته؟ فقال: إنَّ فلانهُ ظنَّي كانت تحذرنِي من مبارزة رجل اسمه حيدرهُ و تقول: إنَّه قاتلك. فقال له إبليس: شوهاً لك، لو لم يكن حيدرهُ إلَّا هذا وحده لما كان مثلك يرجع عن مثله تأخذ بقول النساء، و هنَّ يخطئن أكثر ممَّا يصبين؟! و حيدرهُ في الدُّنيا كثيرٌ، فارجع فلعلَّك تقتله .. فردَّه، فوالله ما كان إلَّا كفواق ناقةً حتَّى ضربه علي (ع) ضربةً سقطها منها لوجهه و انهزم اليهود يقولون: قتل مرحب، قتل مرحب (البحار، ج ٢١، ص ٩ عن الأمالى للمفيد، و أمالى الطوسى، ص ٤، و مدينة المعاجز، ج ١، ص ١٧٨).

ص: ٢٧٧

ضرب غلام ماجدِ خَزَوْرَةَ أَكَيْلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَةِ

فاختلفا ضربتين، فبدره عليّ بضربه (بذى الفقار) فقدّ الحجر و المغفر و وقع فى الأرضاس و سمع أهل العسكر صوت ضربته، و لما أبصر اليهود فارسهم مرحباً و لّوا منهزمين و استولى المسلمون على الحصن.

علي (ع) قانع باب خير

و قالوا أيضاً: «و قتل عليّ يومئذٍ ثمانية من رؤسائهم، و فرّ الباقون إلى الحصن،

ص: ٢٧٨

فتبعهم المسلمون؛ فينما على (ع) يشتد في أثرهم، إذ ضربه يهودى على يده ضربة سقط منها الترس، فبادر يهودى آخر، فأخذ الترس، فغضب على (ع) فتناول باب الحصن، و كان من حديد، فقلعه و تترس به عن نفسه» (١). روى ابن إسحاق عن أبي رافع مولى رسول الله (ص) قال: فلم يزل في يده، و هو يقاتل، حتى فتح الله تعالى عليه الحصن، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقله (٢). و عن زرارة، عن الباقر (ع): «انتهى إلى باب الحصن، و قد أغلق الباب في وجهه، فاجتذبه اجتذاباً و تترس به، ثم حمله على ظهره و اقتحم الحصن اقتحاماً و اقتحم المسلمون و الباب على ظهره ثم رمى بالباب رمياً ...» (٣). و قال القسطلاني: «قلع على باب خيبر و لم يحركه سبعون رجلاً إلّا بعد جهد».

و في شواهد النبوة: روى أن علياً (ع) بعد ذلك حمله على ظهره و جعله قنطرة حتى دخل المسلمون الحصن (٤). و هذا إشارة إلى وجود خندق كان هناك، فلما أغلقوا باب الحصن صار أمير المؤمنين (ع) إليه فعالجه حتى فتحه، و أكثر الناس من جانب الخندق لم يعبروا معه، فأخذ أمير المؤمنين (ع) باب الحصن فجعله على الخندق جسراً لهم، حتى عبروا، فظفروا بالحصن و نالوا الغنائم. فلما انصرفوا من الحصن أخذه أمير المؤمنين (ع) بيمناه، فدحا به أذرعاً من الأرض، و كان الباب يغلقه عشرون رجلاً (٥).*

١- تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٥١

٢- السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٣٥٠ ٣٤٩

٣- البحار، ج ٢١، ص ٢٢ عن إعلام الوري، ج ١، ص ٢٠٧

٤- تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٥١، و راجع: تحف العقول، ص ٣٤٦

٥- البحار، ج ٢١، ص ١٦، و ج ٤١، ص ٢٨١، و الإرشاد للمفيد، ج ١، ص ١٢٨ و عن مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ١٢٦، و مدينة المعاجز، ج ١، ص ١٧٥.

* و قد يقال: إن اختلاف الروايات في عدد الذين جربوا حمل ذلك الباب بين ثمانية رجال و أربعين و سبعين و ... دليل على عدم صحة الرواية و على أن ثمة من يعتمد الكذب في هذا الأمر.

غير أننا نقول: إن الاختلاف الذي يضر هو ذلك الذي يشير إلى تناقض لا مجال للخروج منه، ولكن الأمر هنا ليس كذلك، إذ لعل جميع هذه الروايات صحيحة على اعتبار: أن محاولات حمل أو قلب ذلك الباب قد تعددت و فشلت كلها، فأخبر كل واحد من الرواة عن الواقعة التي رآها.

ص: ٢٧٩

ما قلعت به قوّة جسمانيّة

ثمّ إنهم قد رووا أيضاً: أنّ عليّاً (ع) قال: «ما قلعت باب خير بقوّة جسمانيّة ولكن بقوّة إلهيّة» (١). وفي نصّ آخر: أنّ عمر سنل عليّاً (ع) قال: يا أبا الحسن، لقد اقتلعت منيعاً، و أنت ثلاثة أيامٍ خميصاً، (٢) فهل قلعتها بقوّة بشريّة؟ فقال (ع): «ما قلعتها بقوّة بشريّة، ولكن قلعتها بقوّة إلهيّة و نفسٍ بقاء ربّها مطمئنّة رضيّة» (٣).

و نقول:

١. بالرغم من أنّ عليّاً (ع) قد حقّق أعظم إنجازٍ بفتح خيبر و بقلع باب حصنها فإنّه لا ينسب ذلك إلى نفسه، و لا يدّعي أنّه قد فعل ذلك بقوّة الشّخصيّة و بقدرته الذاتيّة، بل هو قد نسب ذلك إلى قدرة الخالق جلّ و علا، و بذلك يكون قد لقّن نفسه و علّم الناس بصورة عمليّة درساً في هضم النّفس و في التّواضع لله عزّوجلّ، و الاستكانة و الخضوع له.

٢. إنّّه بذلك يكون قد أبعد النّاس عن الغلوّ فيه، من حيث إنّّه قد أفقدهم أي مبرّر لذلك، و قد كان (ع) متهمّاً بالحفاظ على صفاء الفكر و نقاء العقيدة لدى كلّ

١- تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٥١، عن شرح المواقف

٢- الخَمْصَة: الجَوْعَة. يقال: هو خميص الحشى، أى ضامر البطن

٣- البحار، ج ٢١، ص ٤٠ عن مشارق أنوار اليقين.

ص: ٢٨٠

الآخرين، وقد عَرَفَهُمْ أيضاً: أَنَّ الأمور لا تؤخذ على ظاهرها، بل لابد من التأمل والتدبر فيها ووضع الأمور في مواضعها الصحيحة.

٣. إِنَّهُ (ع) قد أوضح: أَنَّ الإطمينان إلى لقاء الله سبحانه والرضا به هو العنصر المؤثر على صعيد التضحية والجهاد؛ أمّا إذا بقى الإنسان متعلقاً بالدنيا ومخلداً إلى الأرض، فإنه لن يتمكن من تحقيق شيء، بل هو سوف يبقى يعيش الضعف والهروب والفشل الذريع والخيبة القاتلة والخزي في الدنيا، والخسران في الآخرة.

استقبال النَّبِيِّ (ص) لعلی (ع) بعد الفتح

ولما بلغ النَّبِيُّ (ص) فتح خيبر سرّ بذلك غاية السرور، فاستقبل علياً (ع) واعتنقه وقبل بين عينيه وقال: «بلغني نبؤك المشكور و صنعك، رضى الله عنك و رضيت أنا منك» (١) فبكى على (ع) فقال له: ما يبكيك يا علي؟ قال: فرحاً بأن الله و رسوله عليّ راضيان (٢) و عن علي (ع)، قال: قال لي رسول الله (ص) يوم فتحت خيبر: لو لا أن تقول طائفة من أمّتي مقالة النَّصارى في عيسى بن مريم (ع) لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمرّ بملاً من المسلمين إلّا أخذوا من تراب رجلك، و فضل طهورك يستشفون به، و لكن حسبك أن تكون منّي و أنا منك (٣) فالنَّبِيُّ (ص) يصرّح هنا: بأنّه قد خشي من غلوّ بعض النَّاس في علي (ع) و أن يقولوا فيه كما قالت النَّصارى في عيسى (ع)، فكان ذلك هو المانع له عن أن يقول فيه مقالته.

و إنّ هذا يدلّ على أن النَّاس ما كانوا في المستوى المطلوب فيما يرتبط

١- معارج النبوة (الركن الرابع)، ص ٢١٩

٢- البحار، ج ٢١، ص ٢٢

٣- ينابيع المودة (ط. بمبي)، ص ٥٢.

ص: ٢٨١

بوعیهم لقضایا العقیده و حدودها، فكانت البيانات النبویة تراعى حالهم، فلا تصرّح لهم إلّا بالمقدار الذى لا یوجب أیة سلبیة من هذه التّاحیه.

خیر بین الفتح و الصلح

و روى أكثر المؤرخین: أنّ علیاً (ع) بعد أن قتل مرحباً و أخاه، استولى الخوف على اليهود و أحسّوا بأنّه أسقط فى أیدیهم و أنّ المسلمین سیأسرونهم و یقتلونهم إن هم ظلّوا على موقفهم، فطلبوا الصّلاح من النّبی (ص)، فأجابهم إلى ذلك بعد أن استولى على أموالهم و أبقاہم یعملون فى الأرض على أن یكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم.

موقف النّبی (ص) من یهود فدک

لما فرغ رسول الله (ص) من خیر عقد لواء، ثمّ قال: من یقوم إلیه، فیاخذه بحقّه، و هو یرید أن یبعث به إلى حوائط فدک. فقام الزّبیر إلیه، فقال: أنا. فقال: أمط عنه. (١) ثمّ قام إلیه سعد، فقال: أمط عنه. ثمّ قال (ص): یا على قم إلیه فخذہ. فأخذه فبعث به إلى فدک (٢)، فصالحهم على أن یحقن دماءهم. فكانت حوائط فدک لرسول الله (ص) خاصّاً خالصاً. فنزل جبرئیل، فقال: إنّ الله عزّوجلّ یأمرك أن تؤتی ذاالقربی حقّه.

١- أمارط عن کذا: تنحى و ابتعد

٢- فدک قرية بالحجاز بینها و بین المدینة یومان و قیل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله فى سنة سبع للهجرة صلحاً، فكانت خالصة له (ص) و فیها عین فوّارة و نخل کثیر. روى عبدالله بن حماد الأنصارى أنّ دخلها کان أربعة و عشرين ألف دینار فى کلّ سنة (البحار، ج ١٧، ص ٣٧٩ و ج ٢٩، ص ١١٦، و مستدرک سفینه البحار، ج ٨، ص ١٥٢ و ج ٩، ص ٤٧٨) و فى رواية غیره سبعین ألف دینار (كشف المحجّة، ص ١٢٤، و سفینه البحار، ج ٧، ص ٤٥)

ص: ٢٨٢

قال: يا جبرئيل، و من قرباى و ما حَقَّها؟ قال: فاطمة فأعطها حوائط فذك و ماله و لرسوله فيها.

فدعا رسول الله (ص) فاطمة، و كتب لها كتاباً، جاءت به بعد موت أبيها إلى أبي بكر و قالت: هذا كتاب رسول الله لى ولابننى (١). و قال ابن إسحاق: «لما سمع أهل فذك بما صنع رسول الله (ص) بأهل خيبر، بعثوا إلى رسول الله (ص) يستلونه أن يسيرهم و يحقن لهم دماء هم و يُخلون له الأموال، ففعل، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين و فذك خالصه لرسول الله (ص)، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل و لا ركاب».

و قد أصبحت مسئلة فذك من المسائل الحساسة عبر التاريخ و صارت تمثّل ميزان الحرارة الذى يعطى الانطباع عن طبيعة العلاقة بين الحكام و بين أهل البيت (ع) و شيعتهم، فكانت تارة تؤخذ منهم و تارة تردّ إليهم، كما يظهر من مراجعة كتب التاريخ؛ بل صارت من العناوين الكبيرة لقضية الإمامة.

قدوم جعفر من الحبشة

كان رسول الله (ص) قبل مسيره إلى خيبر أرسل عمر و بن أمية الضمري إلى النجاشي، عظيم الحبشة و طلب منه أن يحمل إليه جعفرأ و أصحابه. فجّهز النجاشي جعفرأ و أصحابه بجهاز حسن، و أولاهم بكسوة و حملهم فى سفينتين، (٢) و كانوا ستّة عشر نفراً، سوى من توفى، أو رجع قبل ذلك. (٣).

١- البحار، ج ٢١، ص ٢٢ و ٢٣، و إعلام الورى، ج ١، ص ٢٠٩، و مكاتيب الرسول، ج ١، ص ٢٩١

٢- راجع: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٠٨ و ٢٥٩، و ج ٤، ص ٣٤٩، و البحار، ج ٢١، ص ٢٣، و مكاتيب الرسول، ج ٢، ص ٤٤٥ و ٤٥٠

٣- السيرة النبوية لابن هشام، ج ٤، ص ٨، و البدايه و النهايه، ج ٤، ص ٢٠٦ و ٢٠٧.

ص: ٢٨٣

و رجعوا في اليوم الذي تم فيه فتح المسلمين لخيبر، فبعث رسول الله (ص) مولاه أبا رافع يتلقاه،^(١) ولما رآه قام إليه واستقبله اثنتي عشر خطوة^(٢) ضمّه النبي (ص) إلى صدره وقبل ما بين عينيه وقال: «لا أدري بأيّهما أنا أشدّ فرحاً، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟»^(٣)

فتح خيبر و قدوم جعفر، مترابطان

روى عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: ما مرّ بالنبي (ص) يوم كان أشدّ عليه من يوم خيبر، و ذلك أنّ العرب تباغت عليه،^(٤) و قد بلغ جمعهم أربعة عشر ألف مقاتل.

لقد كان فتح خيبر أمراً مهماً للغاية، لما كان له من تأثير بالغ في بعث اليأس في قلوب كلّ القوى المناوئة للإسلام في الجزيرة العربية كلّها، و كان قدوم جعفر و من معه من أرض الحبشة هو التعبير الواضح عن هذه المرحلة و عن آثار هذا الحسم العسكري العظيم. و قد اعتبر رسول الله (ص) نفس قدوم جعفر، هو الأمر الذي لا يضاهي من حيث أهميته و قيمته و هو الموجب لفرحه (ص) بدرجة فرحه بفتح خيبر.

١- شرح النهج للمعتزلي، ج ١٩، ص ١٣٣؛ و غريب الحديث لابن قتيبة، ج ١، ص ٣٣٥

٢- الخصال، ج ٢، ص ٤٨٤، و عيون أخبار الرضا (ع)، ج ٢، ص ٢٣١

٣- السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ١٩٩، و روض الجنان، ص ٣٢٧

٤- علل الشرايع، ج ٢، ص ١٧٢، و البحار، ج ٢١، ص ١٣ و ١٨٠.

ص: ٢٨٤

و نفس القدوم هو المفرح للنبي (ص) و لذلك لم يذكر أنّ سلامه جعفر مثلاً هي سبب سروره، و لا أشار لاي شيء آخر، فمجرد قدوم هذا الإنسان يوازي فتح خيبر، أو هو أعظم و أهمّ من ذلك عند الله و رسوله، مع أنّ ذلك الفتح قد استوجب جهداً و جهاداً، و قدّم فيه شهداء.

و لا نجد في جعفر أية خصوصية توجب منحه هذا الوسام، إلّا أنّه ذلك الإنسان الإلهي الذي جسّد حقايق الإسلام في عمق وجوده و ذاته، لتصبح تلك الحقايق عقله و وعيه و خلقه و حركته و موقفه، و يصبح كلّ وجوده فانياً في الإسلام، و يصبح كلّ الإسلام متجسداً فيه.

الفصل التاسع سرية مؤته

أول بعث إلى خارج الجزيرة

ذكر بعضهم: أن بعث مؤته كان أول بعث يرسله النبي (ص) إلى خارج الجزيرة العربية و داخل الأراضي الشامية، التابعة للروم. (١)

و المعروف بين أهل المغازي أن سرية مؤته كانت سنة ثمان، و قد اختلف المؤرخون في الدوافع إلى هذه السرية، فقال بعضهم: إن الدافع إليها هو الانتقام للحارث بن عمير الأزدي، و كان قد وجهه النبي (ص) بكتاب إلى ملك بصرى، فلما نزل مؤته تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني و هو من أمراء قيصر على الشام، و قال له: أين تريد؟ فقال: الشام. قال: لعلك من رسل محمّد؟ قال: نعم، فأوثق رباطاً، ثم قدّمه، فضرب عنقه صبراً.

فبلغ رسول الله (ص) الخبر، فاشتد عليه و أرسل هذا الجيش المؤلف من ثلاثة آلاف للاقتصاص من ذلك الوالي. (٢)

١- الكتاب السابع من معارك الإسلام الفاصلة: غزوة مؤته، ص ٥. و لكن قد روى المؤرخون أن سرية أخرى كانت قد قصدت ذات أطلاح و هي من أرض الشام، و هي في اللقاء من الأردن و هذه المناطق كانت تحت سيطرة الروم؛ كما أن غزوة دومة الجندل قد حصلت قبل سرية مؤته بزمان و تقع دومة الجندل على خمس ليالٍ من دمشق، و على خمس عشرة ليلة من المدينة أوست عشرة، فهي من أعمال الشام (راجع: وفاء الوفاء، ج ٤، ص ١٢ و ١٣ و الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٦٣) فلا يصح قوله: إن غزوة مؤته هي أول بعث يرسله (ص) إلى خارج جزيرة العربية و داخل الأراضي الشامية التابعة للروم

٢- راجع: المغازي للواقدي، ج ٢، ص ٧٥٥ و ٧٥٦، و الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٢٨ و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٦٦، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٧٠، و البحار، ج ٢١، ص ٥٨ و ٥٩

ص: ٢٨٨

وقيل: إنَّ سبب سرية مؤته هو قتل أربعة عشر رجلاً من المسلمين على يد العرب المنتصرة في سرية ذات أطلاح جنوب الشام في منطقة البلقاء بالأردن، و كان يحكمها الحارث بن أبي شمر الغساني باسم ملك الزوم.

وبعد قتلهم أطلق الحارث هذا تهديدات بغزو النبي (ص) (١)، فبادر (ص) إلى تجهيز هذا الجيش ردّاً على هذه التهديدات.

ونقول: إنَّ الذين قتلوا الأربعة عشر رجلاً هم من قضاة، لا من الغساسنة، ورئيسهم رجلٌ يقال له: سُدوس و ليس هو الحارث بن أبي شمر الغساني، و أمّا التهديدات المشار إليها فلا تصلح مبرراً لإرسال الجيش، إلّا إذا أريد به تسديد ضربة استباقية، يؤخذ العدو فيها على حين غرة، و من الواضح أنَّ الأمور لم تجر على هذا النحو.

إنَّ ما يدعوا إلى التأمل: هو أن يكون الجيش الذي واجهه المسلمون في مؤته بهذه الأعداد الضخمة، تحتاج إلى وقت طويل و جهد كبير لجمعها و إعدادها.

كما أنَّ جيشاً بهذا المستوى لا يُعدّه هرقل لمحاربة جماعة صغيرة لم تستطع أن تجهز لأكبر حرب خاضتها أكثر من ألف و خمسمائة مقاتل؛ بل هو يعدّه لمحاربة جيوش ضخمة و من هو مثل كسرى في سعة الملك و كثرة الرجال و التوفّر على الأموال التي تمكّنه من التجهيزات المتميزة.

و هذا يعطينا: أنَّ هذا الجيش لم يجهّزه قيصر لمجرد دفع غائلة سرية مؤته، بل لعلّه أراد به الإنقباض على منطقة الحجاز بأسرها للقضاء على دعوة الإسلام و احتلال جزيرة العرب كلّها في وقت كان يرى فيه انشغال المسلمين بحرب المشركين و يهود المنطقة. و لو كان يرتبط جمع الجموع بدفع سرية مؤته بسبب مافعله شرحبيل بن

ص: ٢٨٩

عمرو الغساني، فلماذا يكون العنوان المطروح بين المسلمين هو أنهم: يسيرون لمحاربة ملك الروم. والنبى (ص) كان على علم تام بتحركات قيصر و بمقاصده و أن قتل الحارث بن عمير الأزدي كان هو الإشارة للمسلمين، التي جعلتهم قادرين على تلمس خطورة الأمر و شحذت (١) همهم للتغلب لمواجهة الخطر المحدق بطريقه توجب تشويش الأمور على قيصر، و تمنعه من متابعة مسيرته، و تحجب عنه فرصة اتخاذ القرار النهائي بالتوغل إلى عمق منطقة الحجاز. فسرية مؤتة رغم أنها لم تسر وفق ما يريده الله و رسوله باعتبار أن خالداً قد انهزم بالجيش بعد قتل قادته الثلاثة، إلا أنها حققت و لا شك - الحد الأدنى من أهدافها، و لو لا الهزيمة التي جرّها خالد عليهم، فلربما يكون إنجازها هائلاً و عظيماً، ليس بإمكاننا التكهن بحدود عظمتها و بمدى أهميتها.

جعفر هو الأمير الأول

إن غالب محدثي أهل السنة قالوا: بأنه (ص) قد أمر على السرية زيدا أولاً، قال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس؛ فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحه على الناس. ولكن الصحيح هو أن الأمير الأول كان جعفر بن أبي طالب، كما ذهب إليه الشيعة. قال ابن أبي الحديد المعتزلي: «اتفق المحدثون على أن زيد بن حارثة كان هو الأمير الأول، و أنكرت الشيعة ذلك و قالوا: كان جعفر بن أبي طالب هو الأمير الأول، فإن قتل فزيد بن حارثة، فإن قتل فعبد الله بن رواحه. و رووا في ذلك روايات، و قد وجدت في الأشعار التي ذكرها محمد بن إسحاق في كتاب المغازي

١- شحذ السكين و نحوه: أحده، و شحذه ببصره: أحده إليه و رماه به.

ص: ٢٩٠

ما يشهد لقولهم...» (١) بل يمكن أن يستظهر ذلك من قول يعقوبى، حيث قال: «ووجه جعفر بن أبى طالب، وزيد بن حارثة و عبدالله بن رواحه فى جيش إلى الشام لقتال روم سنة ٨». (٢) والزوايات التى أشار إليها ابن أبى الحديد كثيرة وقد قال السيد شرف الدين فى هذا المقام: إن «أخبارنا فى هذا متظافرة من طريق العترة الطاهرة». (٣) منها رواية أبان عن الصادق (ع) أنه قال: «إنه استعمل عليهم جعفرًا، فإن قتل فزيد، فإن قتل فابن رواحه...» (٤).

و الشعر الذى أشار إليه ابن أبى الحديد هو ما أنشد حسان بن ثابت فى رثاء شهداء مؤتة، فكان من جملة ما قال:

فلا يُبْعِدَنَّ الله قَتْلَى تَتَابَعُوا بِمُؤْتَةٍ، مِنْهُمْ ذَوِ الْجَنَاحِينَ جَعْفَرُ

و زيد و عبدالله حيث تتابعوا جميعاً، و أسباب المنيّة تَخْطِرُ (٥)

غَدَاةَ مَضَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ إِلَى الْحَرْبِ مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ أَزْهَرُ (٦)

أَغْرَ كَضُوءَ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ أَبْنَى إِذَا سِيمَ الضَّلَالَةُ مَجَسَّرُ (٧)

حيث لم يكتف فى هذا الشعر بذكر التتابع: جعفر، فزيد، فابن رواحه؛ بل صرح

١- شرح النهج، ج ١٥، ص ٦٢

٢- تاريخ يعقوبى، ج ٢، ص ٦٥

٣- النص و الاجتهاد، ص ٢٨

٤- مناقب آل أبى طالب لابن شهر آشوب، ج ١، ص ٢٠٥، و البحار، ج ٢١، ص ٥٥

٥- تخطر: تغتال و تهتر

٦- ميمون النقيب، مسعود الجدّ و أزهر: أبيض

٧- أبى: عزيز الجانب، و سيم: كلف و حُمِلَ (بالبناء للمجهول فيهما) و المجسر: المقدام الجسور.

ص: ٢٩١

بأن القائد لهم إلى الحرب ميمون النقيبة، أزهري، أغر، من آل هاشم، وهو جعفر رضوان الله تعالى عليه.

المسلمون في مؤتة

قالوا: ولما فصل المسلمون من المدينة سمع العدو بمسيرهم، فتجمعوا لهم وقام فيهم شرحبيل بن عمرو، فجمع أكثر من مائة ألف و قدّم الطلائع أمامه. (١)

فلما نزل المسلمون وادى القرى، بعث أخاه سيدوس بن عمرو في خمسين من المشركين، فاقتلوا، وانكشف أصحاب سدوس وقد قتل، فشخص أخوه، وعند الواقدي: «و خاف شرحبيل ودخل حصناً فتحصن وبعث أخاه يقول له: «و بر بن عمرو» (٢) إلى هرقل يستمدّه فبعث هرقل زهاء مائتي ألف» (٣) ومضى المسلمون حتى نزلوا معان من أرض الشام، وبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من لخم وجذام بكر و وائل وقبائل قضاعة من بلقين (٤) وبهراء و بلي.

وقيل: كانوا مائتي ألف من الروم وخمسين ألفاً من قبائل العرب المنتصرة ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين. فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله (ص) فنخبره بكثرة عدونا، فإذا أن يمددنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له.

١- راجع: الروض الأنف، ج ٤، ص ١٣٢، وسبل الهدى والرشاد، ج ٦، ص ١٤٨ و السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٦٦

٢- المغازي، ج ٢، ص ٧٦٠، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٧١

٣- سبل الهدى والرشاد، ج ٦، ص ١٤٨، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٧١

٤- والظاهر أن الصحيح «القيين» كما في السيرة النبوية لابن هشام.

ص: ٢٩٢

فشجع الناس عبد الله بن رواحه، فقال: «يا قوم، والله إن التي تكرهون، لتي خرجتم تطلبون: الشهادة. و ما نقاتل الناس بعدد و لا قوة و لا كثرة، و ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسينين؛ إمّا ظهور و إمّا شهادة و ليست بشر المنزلتين». فقال الناس: صدق و الله ابن رواحه. (١) فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم و العرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها: مشارف. (٢) ثم دنا العدو، و انحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤتة فالتقى الناس عندها، فتعبد لهم المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من غدره و على ميسرتهم رجلاً من الأنصار.

قال ابن إسحاق: ثم التقى الناس، و اقتتلوا قتالاً شديداً، فقاتل زيد بن حارثة براءة رسول الله (ص) حتى شاط (٣) في رماح القوم؛ ثم أخذها جعفر بن أبي طالب، فقاتل بها، حتى إذا ألحمه (٤) القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعرقبها، (٥) ثم قاتل القوم حتى قتل، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عرقب فرساً في سبيل الله. (٦)

١- أسد الغابة، ج ٣، ص ١٥٨، و عن إعلام الوري، ج ١، ص ٢١٢ و ٢١٣

٢- تنسب إليها السيوف المشرفية حيث يقال: إنها طبعت لسليمان (ع) بها. راجع: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٣١ و ٢٢٠

٣- يقال شاط الرجل: إذا سال دمه فهلك

٤- ألحمه القتال: نشب فيه فلم يجد مخلصاً، و اقتحم عن فرس له: رمى بنفسه عنها

٥- عرقب الدابة: قطع عرقوبها و هو الوتر الذي بين مفصل الساق و القدم. و في بعض النصوص: أنه عقر فرسه: أي ضرب قوائمها و هي قائمة بالسيف، و لعل الثاني هو الأولى و الأقرب إلى الصيحة، لأن عرقبة الفرس لا تناسب مع ما ورد من النهي الشرعي عن إيذاء الحيوان و نحن نجل جعفرًا عن الإقدام على عمل نهى عنه الشارع و يأباه الخلق الإنساني الرفيع. بل هناك نص عن رسول الله (ص) يتعرض لنفس هذا المعنى، فقد روى عنه (ص) قوله: «إذا حرنت على أحدكم دابة في أرض العدو فليذبها و لا يعرقبها» (الوسائل، ج

١٦، ص ٣٠٧ و ٣٠٨، ج ٨، ص ٣٩٦، ج ٥، ص ٥٢

٦- سبل الهدى و الرشاد، ج ٦، ص ١٤٨، و المغازي للواقدي، ج ٢، ص ٧٦١.

ص: ٢٩٣

قال ابن هشام: «وحدثني مَنْ أُنقِ به من أهل العلم: أَنَّ جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فَقَطَّعت، فأخذه بشماله فَقَطَّعت، فاحتضنه بَعْضُديهِ حتَّى قتل «رحمه الله تعالى» و هو ابن ثلاث و ثلاثين سنه، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء...» (١) عن أبي جعفر (ع): «أصيب يومئذ جعفر، و به خمسون جراحاً، خمس و عشرون منها في وجهه» (٢) فلما قتل جعفر، أخذ الزايدة عبد الله بن رواح، ثم تقدّم بها و هو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه و يتردد بعض التردد، ثم قال:

أقسمت يا نفس لتَنزِلَنَّهُ طائعه أو لتكرهه

إن أجلب الناس و شدوا الرنة مالى أراك تكرهين الجنة (٣)

قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنتِ إلّا نطفة في شنة (٤)

ثم تقدّم فقاتل حتّى قتل، و وقع اللواء من يده، فاختلط المسلمون و المشركون و انهزم بعض الناس، فجعل قطبة بن عامر يصيح: يا قوم، يقتل الرجل مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً، فبادر خالد بن الوليد، فأخذ الزايدة و انهزم بها و تبعه سائر الناس، ولكن هناك من سعى لتزوير الحقيقة و إيهام الناس بعكسها، فادّعوا: أَنَّ الذي حصل على يد خالد هو أحد الأمرين: إمّا مجرد الإنحياز و المحاشاة، ثم الإنصراف؛ و إمّا النصر و الفتح.

فقد ذكر ابن إسحاق: أَنَّهُ لم يكن إلّا المحاشاة و التخلّص من أيدي الروم الذين

١- السيرة النبوية، ج ٤، ص ٢٠

٢- البحار، ج ٢١، ص ٥٦ عن إعلام الوري، ص ١١٠ و ١١١

٣- أجلب القوم: صاحوا و اجتمعوا، والرنة: صوت فيه ترجيع شبه البكاء

٤- النطفة: الماء القليل الصافي. و الشنة: السقاء البالي، أى: فيوشك أن تهراق النطفة أو ينخرق السقاء. ضرب ذلك مثلاً لنفسه في جسده.

ص: ٢٩٤

كانوا مع من انضم إليهم أكثر من مائتي ألف، والمسلمون ثلاثة آلاف.

و على هذا سُمي هذا نصراً و فتحاً باعتبار ما كانوا فيه من إحاطة العدو و تراكمهم و تكاثرهم عليهم و كان مقتضى العادة أن يُقتلوا بالكلية. (١) مع أن هناك طائفة من الدلائل و الشواهد على أن الأمر لم يكن كما زعموا، فلاحظ ما يلي:

١. حدث رجل من بني مُرة كان في الجيش: أنه لما قتل ابن رواحة، نظرت إلى اللواء قد سقط، و اختلط المسلمون و المشركون، فنظرت إلى اللواء في يد خالدٍ منهزماً، و اتبعناه فكانت الهزيمة. (٢) ٢. يروى الواقدي عن محمد بن صالح عن رجل من العرب عن أبيه: أنه لما قتل ابن رواحة انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط في كل وجه، ثم تراجعوا، و كان ثابت بن أفرم قد أخذ اللواء ... ثم أعطاه لخالد، فأخذه خالد، فحمله ساعة، و جعل المشركون يحملون عليه، فثبت حتى تكركر (٣) المشركون، و حمل بأصحابه، ففضّ جمعاً من جمعهم، ثم دهمه منهم بشر كثير، فانحاش (٤) المسلمون، فانكشفوا راجعين. (٥) ٣. و عن ابن كعب بن مالك قال: حدثني نفر من قومي حضروا يومئذ قالوا: لما أخذ خالد اللواء انكشف بالناس، فكانت الهزيمة، و قُتل المسلمون، و اتبعهم، المشركون، فجعل قُطبة بن عامر يصيح: يا قوم، يُقتل الرجل مُقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً، يصيح بأصحابه، فما يثوب إليه أحد؛ هي الهزيمة و يتبعون صاحب

١- السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٦٨ و سبل الهدى و الرشاد، ج ٦، ص ١٥٠

٢- المغازي، ج ٢، ص ٧٦٢، و تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٨، ص ٨٧

٣- تكركر الرجل في أمره: تردّد

٤- حاشى بهم: انحاز بهم و هو من الحشى و هي الناحية

٥- المغازي، ج ٢، ص ٧٦٣.

ص: ٢٩٥

الزايه منهنماً. (١) ٤. إن أهل المدينة قد طرد ذلك الجيش العائد بقيادة خالد و حثوا التراب في وجوههم، و هجروهم و عاقبهم أسوأ عقوبة. فلو صح أنهم قد انتصروا لكان ينبغي أن يلاقوهم بالورود و الأناشيد، و بالأفراح و الزغاريد، (٢) و أن يرفعوهم على الزاحات، و يدوروا بهم في التوادي و الساحات.

و لكان يجب على خالد و جيشه أن يعترضوا على استقبال أهل المدينة بالتعنيف و الطرد، و أن يشتكواهم إلى رسول الله (ص)، و يجهروا بمظلوميتهم و بأنهم معتدى عليهم. فلماذا اختبأوا في بيوتهم، حتى إن منهم من ترك الحضور للصلاة من شدة الخجل مما حدث و حصل؟! حدث و حصل!

بل إن المتوقع في مثل هذه الحالة هو أن يبادر رسول الله (ص) لمنع هذا التجنى و لجم الظلم الذي حاق بهؤلاء الأبرياء المجاهدين، و لو بأن يخطب الناس في المدينة، و يؤنبهم على ظلمهم هذا، إن لم يتمكن من أن يعاقبهم عليه. على أن هذا الذي ذكرناه لا يعني أننا نريد أن ننفي أن يكون المسلمون قد أظهروا درجة من الجدية في قتال أعدائهم، و أنهم قد سجلوا عليهم انتصارات قوية.

ولكننا نقول: إن ذلك إن كان قد حصل، فإنما حصل في الأيام أو في الساعات التي سبقت استشهاد القادة، و لعل جذوته قد اتقدت بعد استشهادهم بصورة أكبر، ولكن خالداً ضيع ذلك.

و من المضحك المبكى حديث الرجل من بنى مؤتة، الذي أنكر فيه أن يكون خالد قد انهزم ثم شرح ذلك بأن اللواء سقط بعد قتل ابن رواحة ... واستمرت الحرب قال: «فنظرت إلى اللواء في يد خالد منهنماً، و اتبعناه، فكانت الهزيمة». (٣)

١- المغازي، ج ٢، ص ٧٦٣، و تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٩، ص ٣٣٧

٢- زغرد البعير: هدر مردداً هديره في حلقه و منه زغردت النساء في الفرح

٣- الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٢٩، و تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٩، ص ٣٧ و ج ٤٨، ص ٨٧.

ص: ٢٩٦

فما معنى نفيه هزيمة خالد أولاً، ثم إثباته لها أخيراً، حتى لقد جعل خالداً أوّل من هزم باللّواء فيهم، ثم تبعه النّاس؟ ونستطيع بعد كلّ هذا الّذى ذكرناه أن نؤكد على أنّ كلّ الدّلائل تشير إلى أنّ الفارّين كانوا عارفين بعظيم جرمهم، كما أنّ أهل المدينة كانوا عارفين بذلك و كذلك رسول الله (ص)، ولكنهم لم يرتكبوا بفرارهم ذنباً بنظر الشّرع، لأنّ الفرار من جيش يفوق عدده عدد جيش المسلمين بعشرات الأضعاف ليس حراماً شرعاً؛ فإنّ الفقهاء قد ذكروا: أنّه يجوز الهرب في الجهاد في أحوال ثلاثة:

الأولى: أن يزيد عدد الكفّار على ضعف عدد المسلمين. (١) الثانية: أن يترك القتال، ولكن لا بتيّء الهرب، بل لأجل أن ينصرف ليكمن في موضع، ثم يهجم.

الثالثة: أن يتحصّن إلى فئة و هو أن ينصرف على قصد أن يذهب إلى طائفةٍ ليستنجد بها في القتال. (٢) و على هذا يحمل قوله (ص) للّذين اعترفوا أمامه بالفرار من الرّحف: «بل أنتم

١- و الدّليل على الجواز: ألف. قوله تعالى: «الآن خفف الله عنكم و علم أنّ فيكم ضعفاً فان يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين و ان يكن منكم ألف يغلبوا الفين باذن الله و الله مع الصّابرين» (الأنفال: ٦٦).

ب. مارواه العائمه عن ابن عباس قال: من فرّ من اثنين فقد فرّ و من فرّ من ثلاثة فما فرّ (سنن البيهقي، ج ٩، ص ٧٦، و الحاوى الكبير، ج ١٤، ص ١٨٢).

ج. ما روى من طريق الخاصية: عن الصّيادق (ع): من فرّ من رجلين في القتال من الرّحف فقد فرّ و من فرّ من ثلاثة في القتال من الرّحف فلم يفرّ (الكافي، ج ٥، ص ٣٤، و التهذيب، ج ٦، ص ١٧٤).

٢- راجع: تذكرة الفقهاء، ج ١، ص ٤١١ (ط ق) و ج ٩، ص ٦١ (ط ج) و جواهر الكلام، ج ٢١، ص ٥٨، و المهذب، ج ١، ص ٣٠٤، و جامع المقاصد، ج ٣، ص ٣٨٢.

ص: ٢٩٧

الكرارون و أنا فتتكم» أو قال: «و أنا فئة كل مسلم» (١) فأراد (ص) به أن يؤيد اعترافهم بالفرار، ثم يخفف من وطأه ذلك على نفوسهم حين يقرر أن فرارهم يدخل في سياق التحيز إلى فئة، و بذلك يكون قد خفف عنهم بعض الألم الذي كان يعتصر قلوبهم. (٢)

- ١- راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٧، ص ١٥١ و ج ٦، ص ١٥٦ و قال في هامشه: أخرجه أبوداود، ج ٢، ص ٥٢، ح ٢٦٤٧ و الترمذى، ج ٤، ص ١٨٦، ح ١٧١٦ و أحمد في المسند، ج ٢، ص ١١١
- ٢- و بتعبير آخر أوضح و أصرح: أنه (ص) إنما قال ذلك لهم على سبيل التشبيه و التنزيل و المجاز لا على سبيل الحقيقة؛ إذ ليس في ظاهر حالهم حين فرارهم ما يدل على أنهم كانوا يقصدون بهذا الفرار التحيز إلى فئة، بل كان همهم النجاة بأنفسهم و حسب. ولكن النبي (ص) قد أراد معالجة سلبات الهزيمة بهذا النحو من التخفيف و التلطيف و اعتبارهم كأنهم قد تحيزوا إلى فئة، حتى قال لهم: و أنا فتتكم. و لو كان كلامه (ص) جارٍ على سبيل الحقيقة، لم يحتج إلى بيان من هو الفئة لهم

ص: ٣٠١

الفصل العاشر فتح مكة

بداية

لقد التزم النبي (ص) بكل بنود الصلح الذي كان بينه وبين قريش في الحديبية، ولكن قريشاً قد استخفت بقوة المسلمين بعد معركة مؤتة، وجرها هذا الاستخفاف إلى ارتكاب حماقة أصبح بعدها عهد المودعة لاغياً.

فقد سبق أن عهد الحديبية قد أعطى الحق لكل من أراد من العرب أن يدخل في عهد محمد (ص) أو عهد قريش، أن يدخل فيه، وكانت بين بني بكر وخزاعة أحقاد قديمة وحروب متواصلة. فلما تم صلح الحديبية دخلت خزاعة في عهد محمد (ص) ودخل بنو بكر في عهد قريش.

فلما كانت معركة مؤتة تخيل بنو الدليل (أو الدؤل) من بني بكر بن عبد مناة أحلاف قريش أن الفرصة قد ساحت لهم ليقبضوا من خزاعة حليفه المسلمين لثاراتهم القديمة، وظنوا أن المسلمين بعد تلك التكة التي أصيبوا بها لم يعد في مقدورهم أن يناصروا من دخل في عهدهم كخزاعة وغيرها. وحرضهم على ذلك عكرمة بن أبي جهل و صفوان بن أمية و حويطب بن عبد العزى و مكرز بن حفص و غيرهم من وجوه قريش و دسوا إليهم الرجال و السلاح، و يتنوا (١) خزاعة و هم على ماء لهم يدعى الوثير، فقتلوا منهم عشرين رجلاً و ذلك في شعبان من السنة الثامنة للهجرة، فالتجأت خزاعة إلى الحرم، ثم إلى دار بديل بن ورقاء و دار مولى

١- يتنواهم: قصدوهم ليلاً من غير أن يعلموا فأخذوهم بغتة.

ص: ٣٠٢

لهم يقال له: رافع الخزاعيين و انتهوا بهم في عماية الصبح (١) و دخلت رؤساء قريش منازلهم، و هم يظنون أنهم لا يعرفون، و أنه لا يبلغ هذا رسول الله (ص) و أصبحت خزاعه مقتلين على باب بديل و رافع.

و كان مما لا بد منه أن تستجد خزاعه بالنبي (ص)، فذهب جماعة منهم إلى المدينة، فلما دخلوا على الرسول و هو جالس في المسجد بين أظهر الناس، أنشد عمرو بن سالم الخزاعي قوله:

يا رب إني ناشد محمداً حلف أبينا و أبيه الأتلا (٢)

قد كنتم ولداً و كنا والداً ثُمّت أسلمنا فلم نترع يدا (٣)

إن قريشاً أخلفوك الموعدا و نقضوا ميثاقك المؤكدا

هم يبتون بالوتير هجداً و قتلونا رُكعاً و سجد (٤)

فقال رسول الله (ص) «حسبك يا عمرو، أي: و دمعت عيناه» أو قال: «نصرت يا عمرو بن سالم». فما برح حتى مرّت عنانته (٥) من السماء فرعدت، فقال رسول الله (ص): إن هذه السحابة لتستهل (٦) بنصر بني كعب (٧) و قام من ساعته و ندب المسلمين في المدينة و خارجها لأن يكون على أهبّة الاستعداد عندما يدعوهم إلى الخروج معه من غير أن يعرفوا و جهته التي يريد بها.

و توالدت الوفود عليه حتى اجتمع في المدينة خلال العشرة الأولى من شهر

١- عماية الصبح: بقيّة ظلمة الليل

٢- ناشد: طالب و مذكر. و الأتلا: القديم

٣- يريد أن بني عبد مناف أمهم من خزاعه، و كذلك قصي أمه فاطمة بنت أسد الخزاعية. والولد بمعنى الولد. و أسلمنا من السلم، و ثُمّت حرف عطف، أدخل عليه تاء التأنيث

٤- الوتير: اسم ماءٍ بأسفل مكة لخزاعه، و الهجد جمع هاجد و هو التائم هنا

٥- عنانته واحدة العنان و هو السحاب

٦- تستهل: تبشر

٧- سبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ٢٠٣ ٢٠٢، و السنن الكبرى، ج ٩، ص ٢٣٤.

ص: ٣٠٣

رمضان نحو عشرة آلاف مقاتل.

و ندمت قريش على ما صنعت مع خزاعة، و عرفت أن ذلك نقض للعهد من جانبها، و اتفقت على أن يشدّ أبوسفیان الرّحال إلى محمّد و يكلمه في الأمر قبل أن تستنجد به خزاعة، لعلّه يجدّد العهد فيما بينهم و بينه و يزيد في أمد الهدنة، و لم يكونوا قد علموا بوفد خزاعة إلى النّبيّ (ص).

و خرج أبوسفیان من مكّة و معه مولى له على راحلتين و أسرع السّير و هو يرى أنّه أوّل من خرج من مكّة إلى رسول الله (ص) بعد ذلك الحدث الّذي أطاح بعهد الصلح بينهم و بين النّبيّ (ص)، فلقى بديل بن ورقاء بعُسفان، فأشفق أبوسفیان أن يكون بديل جاء رسول الله (ص)، بل كان اليقين عنده، فقال للقوم: أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها؟ قالوا لا علم لنا بها. فعلم أنّهم كتموه، فقال: أما معكم من تمر يثرب شيءٌ تطعموناه؟ قالوا: لا. و أراد أبوسفیان أن يتأكّد من أمرهم، فقال يا بديل: هل جئتَ محمداً؟ قال: لا؛ ولكنّي سرت في بلاد خزاعة من هذا السّاحل في قتيل كان بينهم فأصلحت بينهم. فقال له أبوسفیان: إنك والله ما علمتَ برّ و أصل

و أقبل أبوسفیان حتّى دخل المدينة و أتى رسول الله (ص) و طلب منه أن يجدّد العهد و يزيد في أمره. فقال له النّبيّ (ص): فلذلك جئتُ يا أباسفیان؟ قال: نعم. فقال رسول الله (ص): هل كان من قبلكم من حدث؟ قال: معاذ الله، نحن على عهدنا و صلحنا يوم الحديبية، لا نغيرو ولا نبذل. فقال رسول الله (ص): فنحن على مدّتنا و صلحنا يوم الحديبية لا نغير و لا نبذل. فأعاد أبوسفیان على رسول الله (ص) القول، فلم يردّ عليه شيئاً. (١) فذهب إلى أبي بكر و عثمان و علي (ع) و سعد بن عباد و أشراف قريش و الأنصار يستعين بهم على إقناع النّبيّ (ص) بتجديد العهد و

١- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٠٦، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٧٢ و راجع: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٥٥، و البحار، ج ٢١، ص ١٠١ و ١٠٢ و ١٢٦.

ص: ٣٠٤

زيادة أمدّه، فلم يجد منهم تجاوباً على ذلك ورفضوا مراجعة النَّبِيِّ (ص) بهذا الخصوص.

وقد كان طَلَبُ أَبِي سَفِيَّانٍ مِنَ النَّبِيِّ (ص) تجديد عهد الحديبية و الزيادة في المدّة هو الخدعة التي أعدها هذا الرَّجُل، و من ورائه قريش للتخلّص من تبعات الجريمة التي ارتكبوها في حقّ خزاعة.

وقد كان لابدّ من ردّ أبي سفيان خائباً ليفهم: أن أساليب المكر والاحتيايل لا تجدى في إماتة الحقّ وإحياء الباطل. أضف إلى ذلك: أن ما واجهه أبوسفيان في المدينة كان غايةً في الزوعة، فقد ذاق طعم الدّل والخزى مرّة بعد أخرى و تجرّع مرارة الخيبة والفشل كرات و مرّات لم يعرف لها مثيلاً في حياته كلّها، وقد تجلّى هذا الدّل في مظاهر مختلفة، حتّى في لقائه مع ابنته أمّ حبيبة زوج النَّبِيِّ (ص)، فإنّه لمّا دخل عليها فأراد أن يجلس على فراش رسول الله (ص)، فَطَوَّتهُ دونه، (١) فقال: يا بَتِيَّةُ، أرغبت بهذا الفراش عنّي أم رغبت لي عنه؟ قالت: بل هو فراش رسول الله (ص) و أنت رجل مشرك نجس، فلم أحبّ أن تجلس على فراش رسول الله (ص). قال: لقد أصابك بعدى شرّ يا بَتِيَّةُ، (٢) ثم خرج من بيتها وقد استولى عليه الغضب من هذا الموقف الذي لم يكن يترقّبه من أقرب النّاس إليه.

التَّجْهِيْزُ لِسَفَرٍ مَّبْهَمٍ

ذكروا: أنّه لمّا عزم رسول الله (ص) على غزو مكّة قال لعائشة: جَهِّزِينَا و أخفى أمرِك. فأراد (ص) أن تخفى أصل التّجهّز والاستعداد لسفر لم يحدّده لها و لا عرّفها طبيعته هل هو سفر للحرب، أو لزيارة منطقة بعينها، أو لأى غرض آخر؟ و منع أحداً أن يخرج من المدينة مخافة أن يتسرّب خبر استعداده لقريش و

١- طوى الصّحيفة: نقيض نشرها

٢- سبيل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٠٦، و السيرة النبوية لابن هشام، ج ٤، ص ٣٨.

ص: ٣٠٥

قد كان يجب أن يدخل مكّة فاتحاً بدون حرب ولا قتال و دعا الله سبحانه أن يمنع عن قريش العيون والأخبار. ومن غير الطبيعي كتمان أمر عن أميّه بأسرها يستنفر منها عشرة آلاف مقاتل ليعالجوا نفس هذا الأمر المكتوم مع كثرة الموتورين و الحاقدين في المنطقة، و مع وفرة المنافقين المتربّصين بالإضافة إلى الذين يبحثون عمّا يفيدهم في مصالحهم الشخصية أو القبليّة أو غيرها.

و خفاء هذا الأمر الخطير إلى هذا الحدّ و في ظروف كهذه و في هذا المحيط بالذات يعدّ من أعظم الإنجازات و من أجل التوفيقات و يدلّل على التدبير و الضبط الدقيق للأمور من قبل رسول الله (ص).

اكتشاف تجسس أبي بلتعة لقريش

و مع هذا التّحفّظ الشّديد و تكتّمه عن سائر الناس سوى الخاصّة من أصحابه، فقد تسرّب نبأ مسيرته إلى حاطب بن أبي بلتعة، فكتب إلى قريش يخبرهم بالبدى عزم عليه رسول الله (ص)، و أعطى الكتاب إلى امرأة من مزيّنة و أعطاهها مبلغاً من المال في مقابل إيصال كتابه لقريش، فوضعت الكتاب في رأسها و فتلت عليه قرونها، و خرجت باتجاه مكّة، فنزل الوحي على الرسول (ص) يخبره بما صنع حاطب. فأرسل النبيّ (ص) من ساعته عليّاً و الزّبير و أمرهما أن يُجدا السّير في طلب المرأة قبل أن تفوتهما. فخرجا مُسرّعين، فأدركا المرأة بالخلقة؛(١) خليفه بنى أحمد، فاستنزلاها و التماسا الكتاب في رحلها فأنكرت و حلفت: أنّه لا شيء معها و بكت.

فقال الزّبير: ما أرى يا أبا الحسن معها كتاباً، فارجع بنا إلى رسول الله (ص) نخبره ببراءة ساحتها. فقال له أمير المؤمنين (ع): يخبرني رسول الله (ص) أن معها

١- الخليفه كسفيته: منزل على اثني عشر ميلاً من المدينة.

ص: ٣٠٦

كتاباً و يأمرني بأخذه منها، و تقول أنت: إنه لا كتاب معها!! ثم اخترط السيف (١) و تقدّم إليها، فقال: أما والله لئن لم تُخرجي الكتاب لأكشفنك، ثم لأضربن عنقك.

فلما رأت منه الجّد حلت قرونها و أخرجت الكتاب، فأخذه أمير المؤمنين (ع) و أقبل به على رسول الله (ص). (٢)
 فدعا حاطباً، فقال: يا حاطب، ما حملك على هذا؟ قال: يا رسول الله، إني والله لمؤمن بالله و رسوله، ما غيرت و لا بدّلت، ولكني كنت امرئاً ليس لي في القوم من أصل و لا عشيرة و كان لي بين أظهرهم ولدٌ و أهل، فصانعتهم عليهم. (٣) و أمر النبي (ص) بإخراجه من المسجد، فجعل الناس يدفعونه في ظهره حتّى أخرجوه و هو يلتفت إلى النبي (ص) و لا يتكلّم، فرق له و أرجعه إلى المسجد و أوصاه أن لا يعود لمثلها. (٤)

على طريق مكة

قيل: إنه استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر (٥) و قيل: أبارهم، كلثوم بن حصّين الغفاري (٦) و يقال: ابن أمّ مكتوم و به جزم الدّمياطي. (٧) و خرج يوم الأربعاء بعد العصر لعشر خلون من شهر رمضان، في عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين و الأنصار و طوائف من العرب و قادوا الخيل و امتطوا الإبل و قدّم رسول الله (ص)

١- اخترط السيف: استلّه

٢- الإرشاد للمفيد، ج ١، ص ٥٩ ٥٦، و راجع: البحار، ج ٢١، ص ١٢١ ١١٩ و ص ١٢٥ ١٢٦، و إعلام الوري، ج ١، ص ٣٨٤، و أعيان الشيعة، ج ١، ص ٤٠٨

٣- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢١٠

٤- الإرشاد للمفيد، ج ١، ص ٥٩ ٥٦

٥- البحار، ج ٢١، ص ١٢٧ عن اعلام الوري، ج ١، ص ٢١٨، و تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٥٨

٦- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢١٢ عن أحمد و الطبراني، عن ابن عباس

٧- المصدر المتقدم، عن ابن سعد و البلاذري.

ص: ٣٠٧

أمامه الزبير في مائتين من المسلمين. (١) والمقصد لا يزال مجهولاً والناس لا يدرون أين توجه رسول الله (ص) إلى قريش، أو إلى هوازن، أو إلى ثقيف. وهذه الخيارات كلها تحتاج لمثل هذا الجمع العظيم من المقاتلين، كما أن كلّها تقع في منطقة واحدة وفي أمكنة متقاربة، والطريق من المدينة إليها هي نفس هذه الطريق التي سلكها رسول الله (ص) إلى قديد، وإنما تتميز الطرقات إلى تلك المناطق بدءاً من سيرف التي كانت تبعد عن مكة أميالاً يسيرة. (٢) والذى زاد في حيرتهم: أنه (ص) لم يخرج بهذه الألوف على هيئة الحرب فهو لم يعقد ألوية ولا رفع رايات ولا رتب الجيش ترتيباً قتالياً حتى بلغ قديداً (٣) ففيها عقد الألوية ورفع الرايات ودفعها إلى القبائل.

فهل يمكن أن نضع هذا الإنجاز في مجال الاستطلاع والحفاظ على السيرة إلّا في عداد المعجزات وخوارق العادات التي لا يقدر عليها إلّا نبي أو وصي نبي؟!

أبوسفيان في أيدي المسلمين

عن ابن عباس أنه قال: مضى رسول الله (ص) عام الفتح حتى نزل مرّ الظهران (٤) عشاء، في عشرة آلاف من المسلمين وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله (ص) ولا يدرون ما هو صانع. (٥) وأمر (ص) أصحابه أن يوقدوا عشرة آلاف نار، وبلغ ذلك قريشاً، فخرج

١- نفس المصدر

٢- المغازي، ج ٢، ص ٨٠٥، و مجمع البحرين، ج ٢، ص ٣٦٥

٣- قديد تصغير قدد: اسم موضع قرب مكة

٤- الظهران اسم أضيف إليه مرّ فيقال: مرّ الظهران: اسم مكان قرب مكة

٥- سبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ٢١٤.

ص: ٣٠٨

أبوسفيان يتحسس الأخبار، فخرج هو و حكيم بن حزام فلقيا بُدِيل بن ورقاء، فاستتبعاه، فلما بلغوا الأراك (١) من مَرِّ الظَّهران و ذلك عشياً رأوا العسكر و القباب و النيران كأنه نيران عَرَفَةَ و سمعوا صهيل الخيل و رُغاء الإبل، (٢) فأفزعهم ذلك فزعاً شديداً. فلقىهم العباس على بغلة رسول الله (ص) الشَّهباء و قال لأبي سفيان: ويلك!! هذا رسول الله (ص) في عشرة آلاف. فقال: و اصباح قريش (٣)، بأبي أنت و أمي، فما تأمرني، هل من حيلة؟ قال: نعم، اركب عَجَزَ هذه البغلة، فأذهب بك إلى رسول الله (ص) فاستأمنه لك. فإنه و الله إن ظفر بك دون رسول الله (ص) لتقتلن. فقال: و أنا و الله أرى ذلك.

قال العباس كما جاء في رواية الواقدي:- فأردفته خلفي و اتجهت نحو معسكر المسلمين، و كانوا قد أوقدوا النيران ليلاً: فكلما مررت بنارٍ من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله (ص) و أنا عليها قالوا: عم رسول الله (ص) على بغلته

فحرَّكت البغلة حتَّى اجتمعنا على باب خيمة رسول الله (ص)، فدخلت و إياه على النَّبِيِّ (ص)، فقال عمر بن الخطَّاب: يا رسول الله، هذا أبوسفيان قد امكن الله منه، فدعني أضرب عنقه. فقلت: إني قد أجرته يا رسول الله ... فقطع النَّبِيُّ حوارهما بقوله للعباس: اذهب به، فقد أجرته لك، فليبت عندك حتَّى تغدوا به علينا إذا أصبحت.

فلما أصبحت غدوتُ به، فلما رآه رسول الله (ص) قال: و يحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت، ما أحلمك و أكرمك و أعظم عفوك! قد كان يقع في نفسي أنه لو كان مع الله إله لقد أغنى عني شيئاً (يوم بدر

١- الأراك: شجر معروف

٢- الصَّهيل: صوت الفرس. و رُغاء البعير أو النَّعام أو الضَّبُع: صوت و ضج

٣- منادى مستغاث، يقال عند استنفار من كان غافلاً عن عدوه.

ص: ٣٠٩

و أحد) بعد، لقد استنصرتُ إلهي و استنصرتُ إلهك، فو الله ما لقيتُك من مرّة إلّا نُصِرْتُ عليّ، فلو كان إلهي مُحَقَّقاً و إلهك مبطلًا لقد غلبتُك. فقال: ويحك يا أباسفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله؟ قال: بأبي أنت و أمّي ما أحلمك و أكرمك و أعظم عفوك! أمّا هذه فو الله إنّ في النّفس منها شيئاً حتّى الآن.

فقال العباس: ويحك! أسلم قبل أن تضرب عنقك، فشهد شهادة الحقّ على كُره منه حينما أدرك أن الموت ينتظره لحظة بعد لحظة و في نفسه من نبوّه رسول الله (ص) أشياء و أشياء و ظلّت تلك الأشياء في نفسه إلى أن مات فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله و أشهد أن محمّداً رسول الله. (١)

عشرة آلاف نار لماذا؟!

و لسنا بحاجة إلى بيان أهدافه (ص) حين أمر أصحابه بإيقاد عشرة آلاف نار؛ الأمر الذي بهرّ عتاءً و جابرةً أهل الشّرك و فراعنة قريش، و قد تقدّم: أنّ أباسفيان و حكيم بن حزام و ابن ورقاء فزعوا فزعاً شديداً حين رأوا تلك النّيران كأنّها نيران عَرَفة. (٢) و لو لا أنّهم رأوا القباب و العسكر الجزّار و سمعوا صهيل الخيل و رُغاء الإبل لأمكن أن يتسرّب إلى أوهامهم احتمال أن تكون فئة صغيرة هي التي أوقدت هذه النّيران الكثيرة. لقد تأكّد لديهم:

١. أنّ من يوقد هذه النّيران يريد أن يُعلم أعداءه بحضوره، غير آبه بهم (٣) و لا (٤)

صفوة الصحيح من سيرة النّبي الأعظم صلى الله عليه و آله ؛ ص ٣٠٩

١- البحار، ج ٢١، ص ١٢٩ عن إعلام الوري، ج ١، ص ٢٢١ و مستدرک سفينة البحار، ج ٨، ص ١٠٩

٢- إشارة إلى ماجرت عادتهم من إيقاد النّيران الكثيرة ليلة عرفة

٣- غير آبه بهم: غير ملتفت إليهم.

٤- السيد جعفر مرتضى العاملي تحقيق: على الرفيعي القوچاني، صفوة الصحيح من سيرة النّبي الأعظم صلى الله عليه و آله، ١ جلد، نشر مشعر - تهران، چاپ: ١.

ص: ٣١٠

خائف منهم، و أنّه لم يأت متسلّلاً ولا مُغيّراً يريد أن يربح المعركة عن طريق المباغته، لتعوض المباغته ضعفه أو لتوهن شيئاً من قدرات عدوّه.

٢. أنّه يريد بإيقاد هذه النيران الكثيرة أن يظهر حجم قوّته و حضورها وسعتها و امتدادها لتساعد تلك النيران أولئك النّاظرين الذين قد يكونون في مرتفع، على رؤيته أوّل و آخر رجل جاء لقتال عُتاة الشّرك، من دون أن تغرقهم عيونهم في ضباب الإيهام بسبب الظلمة التي قد تمنع العيون من الإحاطة بها.

إذن فقد كان طبيعياً أن يتخيّر أبوسفیان و من معه في هويّة هذا الجيش الذي أمّامهم هل هو خزاعة، أو تميم، أو ربيعة؟

العبّاس النَّاصح لقريش على بغلة رسول الله (ص)

و واضح: أنّ ركوب العباس على بغلة رسول الله (ص) و بحثه عن رسولٍ يرسله إلى قريش لا يمكن أن يكون بدون علم النّبيّ (ص)، بل ذلك فيما يظهر داخل في صلب خطّة النّبيّ (ص) لأخذ مكّة من أولئك الجّبارين من دون قتال، و ذلك باعتماد طريقة ترسيخ القناعة لدى أقطابها بعجزهم عن مناجزته الحرب إلّا إذا كانوا يريدون أن يلقوا بأيديهم إلى الدّمار و البوار.

و قد كان العباس افضل رسولٍ إلى قريش و زعمائها، فإنّهم على قناعة تامّة بأنّه لا يمكن أن يفرط بهم، كما اثبتته لهم تجربتهم الطّويلة معه.

و قد ظهر من تفديّة أبي سفيان للعباس بأبيه و أمّه مدى عمق علاقة المودّة و الصّفا فيما بينهما، حتّى أنّه يجعل نفسه رهن إشارة العباس. فإذا جاءتهم النّصيحة من قبل العباس، فإنّهم لا يرفضونها و لا يستغشونه.

ثمّ يظهر العباس هنا بمظهر القوى الحازم، الذي يفرض رأيه و قراره بدون أيّ تحفّظ. على أنّ ركوبه بغلة رسول الله (ص) من شأنه أن يطمئنّ أولئك المعاندون إلى أنّ مكانته محفوظة عند رسول الله (ص) و أنّ كلمته مؤثّرة لديه.

ص: ٣١١

كما أن أحداً من المسلمين لا يجرؤ على إخفار جواره، فإذا دخلوا هذا المعسكر معه و في حمايته، فكيف إذا أردف رأس الشّرك خلفه، و حمله معه؟
فالعباس بعد كلّ هذا هو الوسيلة الأكثر أماناً في الطّريق، و الأكثر فاعليته و تأثيراً لدى رسول الله (ص).

الإعلان بالأمان

و جاء في كتب السّيرة و التّاريخ أن أباسفيان و حكيم بن حزام قالوا لرسول الله (ص): ادع النّاس بالأمان: أرايت إن اعتزلت قريش و كفّت أيديها آمنون هم؟ فقال رسول الله (ص): نعم.
و في بعض المرويّات: قال العباس: قلت يا رسول الله! قد عرفت أباسفيان و حبه الشّرف و الفخر فاجعل له شيئاً.
فقال رسول الله (ص): «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». فقال: و ما تسع داري؟ زاد ابن عُبَيْه: «و من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن» (١) و من أغلق بابه فهو آمن و من دخل المسجد فهو آمن» (٢) و قال الحلبي الشافعي: «عقد (ص) في المسجد لأبي رُوَيْحَةَ (٣) لواءاً و أمره أن ينادي: و من دخل تحت لواء أبي رُوَيْحَةَ فهو آمن. و إنّما قال ذلك لما قال له أبوسفيان: و ما تسع داري و ما يسع المسجد» (٤) و نقول: إنّ في هذه النّصوص من الإشارات و الدّلالات، نذكر منها مايلي:

- ١- كانت دار أبي سفيان بأعلى مكّة و دار حكيم بن حزام بأسفلها
- ٢- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢١٨، عن ابن عُبَيْه
- ٣- هو الذي أخى النّبيّ (ص) بينه و بين بلال
- ٤- السيرة الحلبيّة، ج ٣، ص ٨٠.

ص: ٣١٢

ألف. هل هذا تشريف لأبي سفيان؟

قد كان ممّا أعطاه رسول الله (ص) لأبي سفيان: أن جعل الأمان لمن دخل داره؛ لأنّ أبا سفيان يحبّ التفخيم والذكر، ولكنّه (ص) وإن كان قد أنعم لأبي سفيان بهذا الأمر وأعطاه إياه بيدٍ، ولكنّه عاد فأخذه منه باليد الأخرى بأسلوب رصين يجعل الناس يدركون أنّه مجرد إجراء شكلي ليس له مضمون تشريف ولا تكريم، لأنّه:

١. أعطى مثل ذلك لحكيم بن حزام أيضاً.

٢. ساوى بين دخول دار أبي سفيان وبين اللّجوء إلى رايّة الأمان، التي جعلها مع أبي رويحة، و ساوى أيضاً بينه وبين أيّة دار في مكّة يدخلها صاحبها ويغلق بابها على نفسه. كما ساوى بين ذلك وبين أن يضع الإنسان سلاحه ويكفّ يده، ليكون ذلك إشارة إلى مجرد اتّخاذ وضع غير قتالي.

وبذلك يتّضح: أنّ أباسفيان ليس فقط لم يحصل على ما اراد من الذكر والفخر، بل أخذ منه ما كان قد استلبه بغير حقّ، لأنّ المساواة بين دخول داره وبين دخول دار أي إنسان في مكّة، ثمّ بين ذلك وبين أن يكفّ الإنسان يده ويضع سلاحه فيها، خطّ من المقام الذي جعله أبوسفيان لنفسه، وجعله كأى إنسان آخر من أهل مكّة.

ب. استجاء بعد الاستغناء

لقد كان أبوسفيان طيلة حوالى عشرين سنه يسعى لإطفاء نور الله، مدّعياً لنفسه مواقع الشرف والكرامة، متّخذاً من هذا الفعل المخزى سبيلاً للمجد والذكر والفخر؛ ولكنّه بين ليلة وضحاها أصبح يستجدي شيئاً من الذكر، وما يوجب له الفخر من نفس هذا العدو الذي لم يزل يحاربه إلى تلك اللحظة.

ج. حفظ حرم الله تبارك وتعالى

ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أنّ المطلوب من إعلان الأمان لأهل مكّة، وكذلك سائر المواقع والسياسات النبويّة في مسيره (ص) إلى مكّة، هو أن لا تراق

ص: ٣١٣

أَيَّةُ قطرة دم في حرم الله تبارك و تعالى. و لابد من أن يقارن الكثيرون من أهل مكة و غيرهم بين هذه السياسة مع صناديد قريش و كل رجالها و بين ما فعله أهل مكة أنفسهم بالخزاعيين الأبرياء من الصبيان و النساء و الرجال الضعفاء، في حين أن قريشاً لو تمكنت من الحرب لأبادت هذا الجيش القادم في نفس بيت الله و حرمه.

كتائب الإسلام إلى مكة

(١) قالوا: و أمر رسول الله (ص) منادياً ينادى: لتصبح كل قبيلة قد أرحلت و وقفت مع صاحبها عند رايته و تظهر ما معها من الأدوات و العدة. فأصبح الناس على ظهر (٢) و قدم بين يديه الكتائب. و مرت القبائل على قادتها، و الكتائب على راياتها. (٣) فأول ما مر به خالد بن الوليد في بني سليم و هم ألف ... فلما مروا بأبي سفيان كبروا ثلاث تكبيرات، ثم مضوا. فقال أبو سفيان: يا عباس، من هؤلاء؟ قال: هذا خالد بن الوليد. و هكذا أخذت القبائل تمر به الواحدة تلو الأخرى. و كلما مرت قبيلة بحذائه كبرت ثلاثاً و أبو سفيان يسئل عنها و العباس يجيبه، إلى أن مرت جميع الكتائب و لم يبق إلّا الكتيبة التي فيها رسول الله (ص). فلما طلعت كتيبة رسول الله (ص) الخضراء (٤) و طلع سواد شديد، و غبزة من سنابك الخيل (٥) و جعل الناس يمزون، و أبو سفيان يقول: أما مر محمد؟ و العباس

١- . الكتائب: جمع كتيبة و هي الطائفة من الجيش المجتمع

٢- أصبح الناس على ظهر: أى على غلبه و انتصار

٣- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢١٩ عن ابن عتبة

٤- سميت بذلك لغلبة الحديد على أهلها. شبه السواد بالخضرة، و العرب تطلق الخضرة على السواد و العكس

٥- سنابك الخيل: طرف حوافرها.

ص: ٣١٤

ي

قول له لا. وفيما هم كذلك و أبوسفيان يهزه الحقد و البغض و إذاً برسول الله (ص) و هو على ناقته القُصواء، فقال العباس: هذا رسول الله (ص).

فجعل أبوسفيان ينظرو يرتعد و كان قد حشد في تلك الكتيبة وجوه المهاجرين و الأنصار، و الألوية و الزيات و كلهم منغمسون في الحديد لا يرى منهم إلّا الحَدَق، (١) و في الكتيبة ألفا دارع، و راية رسول الله (ص) مع سعد بن عبادَةَ الأنصاري و هو أمام الكتيبة. فلما مرَّ سعد براية رسول الله (ص) نادى أباسفيان، فقال: اليوم يوم المَلْحَمَة، (٢) اليوم تُسْتَحَلُّ الحُرْمَة، اليوم أذلَّ الله قريشاً. فأرسل رسول الله (ص) إلى سعد، فنزع اللّواء من يده، و جعله إلى ابنه قيس، و يقال: إنّ رسول الله (ص) أمر عليّاً (ع)، فأخذ الزّاية، فذهب بها إلى مكّة حتّى غَزَها (٣) عند الرّكن.

قال الحافظ: والَّذي يظهر في الجمع: أنّ رسول الله (ص) أرسل عليّاً لينزعها و أن يدخل بها. (٤) و في نصّ آخر: إنّ أباسفيان سعى إلى رسول الله (ص) و أخذ بِغَزَهِ (٥)، فقَبَلَه و قال: بأبي أنت و أمّي، أما تسمع ما يقول سعد؟ إنّّه يقول:

اليوم يوم الملحمة اليوم تُسبى الحُرْمَة

فقال لعلي (ع): أدركه، فخذ الزّاية منه و كن أنت الذي يدخل بها و أدخلها

١- الحديق: العيون

٢- المَلْحَمَة: الحرب و موضع القتال و الجمع ملاحم، مأخوذ من اشتباك النَّاس و اختلاطهم فيها كاشتباك لُحْمَة الثّوب بالسّيدي و قيل: هي من اللّحم، لكثرة لحوم القتلى فيهما

٣- غزها: أدخلها و أثبتها

٤- راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٢٣ ٢١٩

٥- الغَز: ركاب الرّحل من جلد.

ص: ٣١٥

إدخالاً رفيقاً. فأخذها على و أدخلها كما أمر. (١)

أهداف حضور العَرَض

- و قد صرّح رسول الله (ص) بالهدف الذي كان يتوخّاه (٢) من حضور أبي سفيان عَرَض جنود الله و هو أمران:
١. أن يراه النَّاسُ جنودَ الله لتقوى بذلك عزائمهم و يصحّ يقينهم بوعد الله تعالى لهم بالفتح و النَّصر، منذ الحديبيّة.
 ٢. أن يرى هو جنودَ الله لتدلّ نفسه الأمّارة بالسوء، التي تُمنيه النَّصر و تدعوه إلى محاربة الله و رسوله و عباده المؤمنين، و ليُكَيِّتَهُ (٣) الله تعالى بذلك و يشفى به صدور قومٍ مؤمنين طالما اضطهدهم (٤) و ألحق بهم أنواعاً من الأذى و البلى.

يوم المرحمة و عزّ قريش

بعد أن رفض النَّبِيُّ (ص) قول سعد بن بن عبادة: اليوم يوم الملحمة، أفاد كلمته الخالدة التي انبعثت من قلبه الكبير، الذي لا يحمله إنسان في هذه الدّنيا و نادى أباسفيان: اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزّ الله قريشا. و لا شكّ في أنّ الرّحمة الإلهيّة قد شملت أهل مكّة بهذا الفتح الذي فرض عليهم الإسلام و أدّى إلى هيمنة أحكامه و شرايعه التي هي محض الحقّ و العدل و بها يكون لهم بلوغ درجات

١- مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٥٧، و البحار، ج ٢١، ص ١٠٥ و ١٣٠ عن إعلام الوری و المناقب

٢- يتوخّاه، من الوَخى كفتى بمعنى القصد

٣- كبته: صرعه و أخزاه و أذلّه

٤- اضطهده: قهره و اضطّره و أذاه بسبب المذهب.

ص: ٣١٦

الكرامة و الفضل.

إنَّه يوم رفع الظلم و الجبريَّة و يوم إعلان الحرب على الفساد و المفسدين و إبطال حكومة الأهواء و إسقاط هيمنة العصبية و الشهوات، و أيضاً يوم تعظيم الكعبة و كسوتها، بعد أن خرجت من يد المشركين، الَّذِينَ هتكوا حرمة حرم الله بذبح أطفال، و نساء، و ضعفاء و رجال خزاعه فيه و تجرؤوا على الله بعبادة الأصنام في بيته و الدَّعوة إلى الشُّرك به تعالى فيه. و هو يوم عزّ قريش التي أعلنت براءتها من الشُّرك و التَّرامها بالإيمان بالله، و بأنبيائه و رسله و قبول دينه، فمنحها ذلك حصانةً و عزَّةً، حتَّى لو كان إيمانها لا يزال في مراحل الأولى، الَّذي يقتصر على مجرّد الإعلان اللساني.

دخول النَّبِيِّ (ص) مَكَّة

قالوا: لَمَّا ذهب أبوسفیان، إلى مَكَّة بعد ما عاين جنود الله تمرَّ عليه، واصل المسلمون سيرهم حتَّى انتهوا إلى ذى طوى، (١) فوقفوا ينتظرون رسول الله (ص) حتَّى تلاحق النَّاس، و أقبل رسول الله (ص) في كتيبه الخضراء (٢) ... و قد طأطأ رأسه تواضعاً لله تعالى و هو يقرأ سورة الفتح. (٣) و جعلت الخيل تمعج (٤) بذى طوى في كلِّ وجه، ثمَّ ثابَّت (٥) و سكنت حين توسَّطهم رسول الله (ص). (٦)

١- ذى طوى: واد بمكَّة؛ مقصور مُنون و قد يمدّ، يصرف و لا يصرف

٢- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٢٦ عن ابن إسحاق و غيره

٣- تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٤

٤- معج الفرس: أسرع، أوسار لشدة عدوه مرّة في الشقّ الأيمن و مرّة في الشقّ الأيسر

٥- ثابَّت: رَجَعَتْ

٦- سبل الهدى و الرشاد: ج ٥، ص ٢٢٦.

ص: ٣١٧

و عند الواقدي: أنه (ص) أمر الزبير أن يدخل من كدى، (١) و أمر خالد أن يدخل من الليط (٢) و أمر سعد بن عباد أن يدخل من كداء، و مضى (ص) فدخل من أذاخر، (٣) حتى نزل بأعلى مكة و ضربت له هناك قبة. (٤) و أمر رسول الله (ص) أمراءه أن يكفوا أيديهم و لا يقاتلوا إلّا من قاتلهم. (٥) وقالوا: إن صفوان بن أمية و عكرمة بن أبى جهل و سهيل بن عمرو دَعَوْا إلى قتال رسول الله (ص) و جمعوا أناساً بالخذمة، (٦) و ضوى إليهم ناس من قريش و بنى بكر و هذيل، و لبسوا السلاح، يقسمون بالله لا يدخلها محمد عنوة أبداً.

فلما دخل خالد بن وليد من حيث أمره رسول الله (ص) وجد الجمع المذكور، فمنعوه الدخول، و شهروا له السلاح، و رموه بالنبل، و قالوا لا تدخلها عنوة. فصاح فى أصحابه، فقاتلهم، و قتل منهم أربعة و عشرون رجلاً من قريش و أربعة من هذيل. (٧) و جعل أبوسفیان و حكيم بن حزام يصيحان: يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن، و من وضع السلاح فهو آمن. فجعل الناس يقتحمون الدور (٨) و يغلقون عليهم و يطرحون السلاح فى الطرق حتى يأخذه

١- كدى: جبل قريب من كداء، و كداء كسماء جبل بأعلى مكة و هى الشّية التى عند المقبرة و سمى تلك النّاحية المعلّاء و دخل النبى (ص) مكة منها

٢- موضع بأسفل مكة

٣- المغازى، ج ٢، ص ٨٢٥ و راجع: تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٥

٤- تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٣

٥- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٢٧، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٨٣ و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٢

٦- الخندمة: اسم جبل معروف بمكة، يقع خلف جبل أبى قبيس و يمتد منه إلى المعلّاء على طول شعب على و عامر

٧- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٢٨ عن ابن إسحاق، و المغازى، ج ٢، ص ٨٢٦

٨- اقتحم الأمر: رمى نفسه فيه بشدة و مشقة، و المنزل: هجمه.

ص: ٣١٨

المسلمون. (١) و أقبل الزبير بمن معه من المسلمين حتى انتهى إلى الحجون و عَزَزَ الزَّايَةُ عند منزل رسول الله (ص) (٢) و فى المنتقى: و كل الجنود لم يلقوا جنوداً غير خالد. (٣) وقالوا: و وجه (ص) اللوم على خالد و قال له: قاتلت، و قد نُهِيتَ عن القتال؟! فاعتذر له: بأنهم هم بدأوا بالقتال. ولكنه عذر غير مقبول، إذ إنَّ بدأهم له بالقتال لا يمنعه من أن يراجع رسول الله (ص) فى أمرهم.

شعار النبى (ص) فى فتح مكة

روى الكليني عن على بن إبراهيم، عن أبيه، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله (ع) قال: شعارنا «يا محمد يا محمد» و شعارنا ... يوم الفتح: «نحن عباد الله حقاً حقاً». (٤) و سند الحديث صحيح.

قد بدا واضحاً أنَّ هذه العبارات المختارة لتكون شعاراً فى هذه الحرب كانت متوافقة مع طبيعة المرحلة التى يمرّون بها و التحديدات التى تواجههم، و ذلك لما يلى:

١. لقد كان مشركوا مكة و عتاتها و رموز الظلم و التعدى على حرّمات الله فيها، يحاربون الله و رسوله و يهتكون حرمة بيت الله و الحرم. ثم هم يدعون أنهم سدنة البيت و حماة الحرم و أولياؤه.

و قد ردّ الله تعالى ذلك عليهم، فقال: «وَمَا لَهُمْ آلًا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يُصُدُّونَ

١- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٢٨ عن ابن هشام، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٨٥

٢- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٢٩

٣- تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٣

٤- الكافي، ج ٥، ص ٤٧.

ص: ٣١٩

عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (١).

٢. إِنَّ الكعبة بيت الله، و الحرم المكى حرم الله، و لابد من أن تتجلى فى هذه الأماكن المقدسة و المشاعر المعظمة عبودية الإنسان لربه بكل أبعادها و مختلف تجلياتها.

و خير من يجسد هذه العبودية هم المؤمنون بالله الواحد الأحد، فَإِنَّ الشَّركَ ينقص من مقام العبودية. و لأجل ذلك اختار (ص) بيان هذه الحقيقة و إسقاط هذه المغالطة التى يمارسها المدعون لها كذباً و زوراً.

٣. إِنَّ اختيار العبودية لتكون أول مفهوم يطرح فى هذه المناسبة يؤكد على أَنَّ هذا الفتح العظيم لم يُخرج هؤلاء الفاتحين عن حالة التوازن و لم يوجب لديهم حالة من الغرور، بل زادهم ذلك تواضعاً و خضوعاً له واستسلاماً لإرادته و مشيئته تعالى.

٤. إِنَّ هذا الشعار الذى نادى به المسلمون فى فتح مكة دعوة لأهلها إلى قبول الحق و الدخول فى دين الله و التوبة و الاستغفار و طلب الرحمة؛ كما أنه شعار يتضمن إنذاراً لهم بضرورة التخلّى عن المكابرة و الجحود، لأنّ ذلك سوف يعرضهم لغضب الله و سخطه، و ستجرى عليهم و فيهم أحكامه و شرايعه.

منزل النبى (ص) فى مكة

روى عن ابن عباس أنه قال: دخل النبى (ص) مكة يوم الإثنين (٢) و عن أبى جعفر قال: كان أبو رافع قد ضرب لرسول الله (ص) قبة بالحجون من

١- الأنفال: ٣٤

٢- السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٨٥.

ص: ٣٢٠

أَدَمَ، فأقبل رسول الله (ص) حتّى انتهى إلى القبّة و معه أمّ سلمة و ميمونة زوجته. (١) عن جابر رضى الله عنه قال: كنت ممّن لزم رسول الله (ص) فدخلت معه يوم الفتح، فلما أشرف (ص) من أذاخر و رأى بيوت مكّة وقف عليها، فحمد الله و أثنى عليه و نظر إلى موضع قبّته، فقال: «هذا منزلنا يا جابر، حيث تقاسمت (٢) قريش علينا في كفرها»... و كنّا بالأبطح وجاه شتّعب أبي طالب حيث حصّر رسول الله (ص) و بنو هاشم ثلاث سنين. (٣)

قال الصّالحى الشّامى: الحكمة فى نزول النّبى (ص) بخيف (٤) بنى كنانة، الذى تقاسموا فيه على الشّرك، أى تحالفوا فيه على إخراج النّبى (ص) و بنى هاشم إلى شتّعب أبي طالب، و حصروا بنى هاشم و بنى المطّلب فيه، ليتذكّر ما كان فيه من الشّدّة فيشكر الله تعالى على ما أنعم عليه من الفتح العظيم و تمكّنه من دخول مكّة ظاهراً على رغم من سعى فى إخراجه منها. (٥) و قال أيضاً: لا مخالفة بين حديث نزوله (ص) بالمحصّب و بين حديث أمّ هانى أنّه نزل فى بيت أمّ هانى، لأنّه لم يقيم فى بيت أمّ هانى و إنّما نزل به حتّى اغتسل و صلّى، ثمّ رجع إلى حيث ضربت خيمته عند شعب أبي طالب و هو المكان الذى حصرت فيه قريش المسلمين قبل الهجرة. (٦)

١- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٣٠، و السيرة الحليّة، ج ٣، ص ٨٥

٢- تقاسمت: تحالفت

٣- راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٣٠ عن الواقدي

٤- الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل و ارتفع عن مسيل الماء

٥- نفس المصدر، ص ٢٦٧

٦- نفس المصدر، ص ٢٦٨.

ص: ٣٢١

طواف النَّبِيِّ (ص) و تحطيم الأصنام

اشاره

قالوا: دخل رسول الله (ص) مكّة بغير إحرامٍ و عليه السّلاح و مكث في منزله ساعة من النّهار حتّى اطمأنّ النّاس، فاغتسل و ركب راحتله القصواء و قد حفّ النّاس به.

فلما انتهى إلى الكعبة، استلم الرّكن بِمَحْجَنِهِ (١)، و كَبَّرَ، فكَبَّرَ المسلمون بتكبيره فرَجَعُوا التّكبير، حتّى ارتَجَّتْ (٢) مكّة تكبيراً، حتّى جعل رسول الله (ص) يشير إليهم أن اسكتوا؛ و المشركون فوق الجبال ينظرون.

و طاف رسول الله (ص) بالبيت، فأقبل على الحجر فاستلمه، ثم طاف بالبيت (٣) ثم انتهى المقام، فصلّى ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم، فأطلع فيها، و نزع له العبّاس بن عبدالمطلب دلوّاً فشرب منه و تَوَضَّأَ، (٤) و المسلمون يبتدرون وضوء رسول الله (ص) يصّبونه على وجوههم، و المشركون ينظرون إليهم و يتعجبون و يقولون: ما رأينا ملكاً قطّ أبلغ من هذا و لا سمعنا به.

و أمر بِهَبْلٍ، فَكَسَرُوهُ و وقف عليه. فقال الزّبير لأبى سفيان: يا أباسفيان، قد كُسِرَ هبل، أما إنك قد كنت منه يوم أحد في غرورٍ حين تزعم أنّه أنعم. قال: دع عنك هذا يابن العوّام، فقد أرى لو كان مع إله محمّد غيره لكان غير ما كان. (٥) و كان حول الكعبة ثلاثمائة و ستون صنماً مرصّعة بالرّصاص، و كان هبل أعظمها و هو وجاه الكعبة (٦) و إساف و نائلة حيث ينحرون و يذبحون الذّبائح و في

١- المَحْجَنُ، العصا المنعطفة الرّاس كالصّولجان

٢- ارتَجَّتْ مكّة: اضطرب أهلها

٣- سبل الهدى و الرّشاد، ج ٥، ص ٢٣٣ و مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ٢٤٤

٤- سبل الهدى و الرّشاد، ج ٥، ص ٢٣٥، و المغازى للواقدي، ج ٢، ص ٨٣٢

٥- سبل الهدى و الرّشاد، ج ٥، ص ٢٣٥

٦- وجاه الكعبة: مقابلها.

ص: ٣٢٢

ي

د رسول الله (ص) قوس (١) و قد أخذ بسية القوس، (٢) فجعل رسول الله (ص) كلما مرّ بصنم منها يشير إليه و يطعن في عينه و يقول: «جاء الحق و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» (٣) فما يشير إلى صنم إلّا سقط لوجهه و في لفظ لقفاه من غير أن يمسّه (٤) قال الصالحى الشامي: عن علي (ع) قال: انطلق رسول الله (ص) حتّى أتى بى الكعبة، فقال اجلس، فجلست بجانب الكعبة، فصعد رسول الله (ص) على منكبي، فقال: انهض، فنهضت فلما رأى ضعفى تحته، قال: اجلس، فجلست، فقال: يا على اصعد على منكبي، ففعلت ... فصعدت فوق الكعبة، و تنحى رسول الله (ص)، فقال: ألقى صنمهم الأكبر و كان من نحاس مؤتد بأوتاد من حديد إلى الأرض، فقال رسول الله (ص): «عالجه و يقول لى: «أيه أيه» جاء الحق و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، فلم أزل أعالجه حتّى استمكنت منه (٥) و فى بعض المصادر: أنّه (ع) جمع الحطب و أوقد ناراً، ثم وضع قدمه على عضد النبي (ص) و صار يأخذ الأصنام عن جدار الكعبة و يلقيها فى النار (٦).

لماذا لم يباشر النبي (ص) تحطيم الأصنام؟

ثم إنّ ما يدعو إلى التأمل هنا: أنّ النبي (ص) تولّى بنفسه مع أخيه على (ع)

١- قوس: عود

٢- سية القوس: هو ما عطف من طرف القوس

٣- الاسراء، الآية ٨١

٤- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٣٤ عن أبى نعيم و البيهقى و ابن إسحاق و ابن مندة و الواقدى

٥- نفس المصدر، ص ٢٣٦

٦- أنيس الجليس للسيوطى (ط سنة ١٢٩١ هـ -) ص ١٤٨ و إحقاق الحق (الملحقات) ج ١٨، ص ١٧).

ص: ٣٢٣

هذا العمل، مع أنه كان من الممكن أن يُوكَل هذا العمل إلى بعض من كان معه من المسلمين، فلماذا كان ذلك و ما الحكمة فيه؟ ونقول: لعل نفس مبادرة نبي الله (ص) و وصيه (ع) إلى تحطيم مظاهر الشرك في بيت الله لتدل على أن وجودها كله مبغوض لله تعالى، ولا يجوز الاحتفاظ بها تحت أى عنوان من العناوين.

البيعة

عن الأسود بن خلف: أنه رأى رسول الله (ص) يبايع الناس يوم الفتح. قال: جلس عند قرن مسفلّة فبايع الناس على الإسلام، فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء، فبايعهم على الإيمان بالله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وإنّ محمداً عبده ورسوله. (١) وقال ابن جرير: «فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا». (٢) فلمّا فرغ من بيعه الرجال بايع النساء وفيهنّ هند بنت عتبة، امرأة أبى سفيان، متنبّئة متنكّرة خوفاً من رسول الله (ص) أن يُخبرها بما كان من صنعها بحمزة. (٣) و كان رسول الله (ص) لا يوافق النساء ولا يمسّ جلده امرأة لم يحلّها الله تعالى له، أو ذات محرم. فدعا بقدح من ماء فأدخل يده ثمّ أخرجها، فقال: ادخلن أيديكنّ في هذا الماء، فهي البيعة. (٤) وفي رواية: ما كان يبايعهنّ إلّا كلاماً، ويقول:

١- سبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ٢٤٧ عن احمد و البيهقي

٢- سبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ٢٤٧، و تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٩

٣- السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٩٦

٤- راجع: الكافي، ج ٣، ص ٦٦، والبحار، ج ٢١، ص ١٣٤ و ١١٣ و ١١٧، و ح ٦٤، ص ١٧٨.

ص: ٣٢٤

إنما قولى لامرأة واحدة كقولى لمائة امرأة. (١) و روى على بن إبراهيم، عن أبيه، عن أحمد بن محمد بن أبى نصر البزنطى، عن أبان عن أبى عبد الله (ع) قال: لما فتح رسول الله (ص) مكة بايع الرجال، ثم جاء النساء يبايعنه، فأنزل الله عز وجل: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَشْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٢). (٣)

تجديد أنصاب الحرم

قالوا: أول من نصب أنصاب الحرم إبراهيم (ع)، كان جبرئيل (ع) يدلّه على مواضعها، فلم تحرّك حتّى كان إسماعيل (ع) فجدها؛ ثم لم تحرّك حتّى كان قصى بن كلاب فجدها؛ ثم لم تحرّك حتّى كان يوم الفتح، فبعث رسول الله (ص) تميم بن أسد الخزاعى، فجدد أنصاب الحرم. (٤) ونقول: إنّ هذا التسلسل يشير إلى أنّ هناك أناساً اختارهم الله تعالى لهذا الأمر و لعلنا نستطيع أن نفهم من اختيار هؤلاء الأشخاص لذلك أمرين:

أحدهما: إنّ قصى بن كلاب و هو أحد آباء رسول الله (ص) لم يكن إنساناً عادياً، بل كان من ذوى المراتب العليا و لعلّ الحديث الذى يقول: «ما زال الله

١- السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٩٤ و ٩٦، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٢٤٧ و ٢٤٨، و البحار، ج ٢١، ص ٩٨

٢- الممتحنة: ١٢

٣- راجع: وسائل الشيعة (ط. مؤسسة آل البيت)، ج ٢٠، ص ٢١١، و تفسير الصافى، ج ٥، ص ١٦٦، و تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٠٧، و تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٢٤٦

٤- سبل الهدى و الرشاد، ج ١، ص ٢٠٣، و ج ٥، ص ٢٤٩ عن الواقدى و الأزرقى.

ص: ٣٢٥

ي

نقلني من صلب نبي إلى صلب نبي، حتّى أخرجني من صلب أبي، عبد الله^(١) يدل على أنّ قصيّا كان من الأنبياء أيضاً. الثاني: إنّ الذين تصدّوا لوضع أنصاب الحرم و لتجديدها، هم رسول الله (ص) و آباؤه الطّاهرون و ليس فيهم أى نبي من غير آبائه. و فى هذا إشارة إلى موقع رسول الله (ص) من هذا البيت و هذا البلد، و اختصاص إبراهيم و إسماعيل و ذريته به، كما أنّ اقتران اسم قصي باسم هؤلاء الأنبياء العظام يدلّ على مقامه و علوّ درجته أيضاً.

عَتَابُ بْنُ أُسَيْدٍ عَلَى مَكَّةَ

قالوا: و ولّى رسول الله (ص) عَتَابُ بْنُ أُسَيْدٍ و عمره ثمانى عشرة، أو إحدى و عشرون سنه أمر مَكَّةَ، و أمره أن يصلّى بالنّاس، و هو أوّل أمير صلّى بمَكَّةَ بعد الفتح جماعةً.

و قال له: يا عَتَابُ، أتدرى على من استعملتك؟ استعملتك على أهل الله، فاستوص بهم خيراً. يقولها ثلاثاً. و لمّا ولّاه على مَكَّةَ جعل له فى كلّ يوم درهماً، فكان يقول: لا أشبع الله بطناً جاع على درهم فى كلّ يوم. و يروى: أنّه قام فخطب النّاس، فقال: يا أيّها النّاس أجاج الله كبد من جاع على درهم (أى له درهم) فقد رزقنى رسول الله (ص) درهماً فى كلّ يوم، فليست لى حاجة إلى أحد^(٢). إنّ عَتَابُ بْنُ أُسَيْدٍ قد أسلم يوم الفتح، و قد كان فى المهاجرين المكيين، من هو أفضل و أروع و أتقى و أكثر تجربةً منه بلا شكّ؛ ولكنّ النّبيّ (ص) فى نفس

١- سبل الهدى و الرشاد، ج ١، ص ٢٣٥، و راجع: مجمع الزوائد، ج ٧، ص ٨٦، و تفسير السمعاني، ج ٤، ص ٧١، و تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٣٦٥

٢- السيرة الحليّة (ط. دار المعرفة) ج ٣، ص ٥٩٦٠.

ص: ٣٢٦

الوقت الذي يريد أن يكون والى مكة من قريش، فإنه أراد مَن يعيش في مكة، و ممن أسلم يوم الفتح بالذات، فإنَّ حقد عتاه قريش عليه أضعف، و حساسيتهم منه تكون أقلَّ

و أراد أيضاً بهذا السن أن يبقية لآخر حياته؛ لأنَّ ذلك يُبطل ما سوف يتذرَّع به نفس هؤلاء نصرةً لأحبابهم لردِّ خلافة أمير المؤمنين (ع) بعد رسول الله (ص) و هو أنَّ من اختاروه كان أكبر سنّاً من علي، (ع) و أنَّ النَّاس لا يرضون بعلي (ع) بسبب حداثته سنّه و هذه الذريعة سوف تظهر على رغم وجود عتاب أميراً على مكة فعلاً. و مع أماره أسامة عليهم في المدينة فعلاً أيضاً، و رغم أنَّهم قد بايعوه يوم الغدير و

إنَّ ذلك كلّه يوضح: أنَّ قضيه توليه عتاب كانت في غاية الأهمية و في منتهى الحساسية.

ص: ٣٢٩

الفصل الحادى عشر غزوة حنين

بداية

إنَّ النصوص التاريخية تؤكد على: أنَّ قبيلة هوازن هي التي بادرت إلى جمع الجموع و تحركت من أماكن سكناها باتجاه المسلمين لتُورد ضربتها الحاسمة فيهم، فلما سمع رسول الله (ص) بجمعها و بتحركها، سار إليها، و سنهاول فى هذا الفصل متابعه أهم أحداث هذا التحرك، و الأجواء المهيمنة على هذا المسير، فنقول:

هوازن تحشد (١) و تستعد

قال أئمة المغازى: لما فتح رسول الله (ص) مكة، مشى أشراف هوازن و ثقيف بعضها إلى بعض، و أشفقوا أن يغزوهم رسول الله (ص)، فحشدوا و بعوا، و قالوا: والله، إنَّ محمداً لاقى قوماً لا يحسنون القتال، فأجمعوا أمرهم و سيروا إليه قبل أن يسير إليكم. فجمعها مالك بن عوف و هو يوم حنين ابن ثلاثين سنة و كان جملة من اجتمع إليه من بنى سعد و ثقيف أربعة آلاف، و انضمت إليهم أعداد من سائر العرب جموع كثيرة، كان مجموعهم ثلاثين ألفاً، و جعلوا أمر الجميع إلى مالك (٢). فلما أجمع مالك المسير بالناس إلى رسول الله (ص)، أمر الناس، فخرجوا معهم

١- حشد الشيء: جمعه و منه حشد الجنود للحرب

٢- السيرة النبوية لدحلان (ط. دار المعرفة) ج ٢، ص ١٠٧.

ص: ٣٣٠

أموالهم و نساؤهم و أبنائهم، ثم انتهى إلى أوطاس (١) فعسكر به، و جعلت الأمداد (٢) تأتي من كل جهة.

الاستعداد للزَّحِيل و عقد الأُلُوبِة

بلغ رسول الله (ص) اجتماع هوازن بأوطاس، فجمع القبائل و رغبهم في الجهاد، و وعدهم النصر و أن الله قد وعده أن يغنمه أموالهم و نساءهم و ذراريهم. فرغب الناس و خرجوا على راياتهم و عقد اللواء الأكبر و دفعه إلى أمير المؤمنين (ع)، و كل من دخل مكّة براية، أمره أن يحملها و خرج في اثني عشر ألف رجل، عشرة آلاف من المدينة و ألفين من أهل مكّة. (٣) و خرج إلى حنين (٤) لستّ خلون من شهر شوال، (٥) و انتهى إلى حنين لعشر خلون من شوال، (٦) و كان قد سبقهم مالك بن عوف، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي و فرقهم على الطرق و المداخل (٧)، و بشرهم بالفتح إن صدقوا و صبروا. و قدّم خالد بن الوليد في بنى سَليم و أهل مكّة و جعل ميمنةً و ميسرةً و قلباً؛ كان رسول الله (ص) فيه.

أمّا مالك بن عوف، فعبأ أصحابه في وادي حنين و هو وادٍ أجوف خطوط ذو

١- أوطاس: وادي في ديار هوازن، و الصحيح أنه غير وادي حنين

٢- الأمداد: جمع مدد و هو الجيش

٣- البحار، ج ٢١، ص ١٤٧ و ١٤٩ و ١٥٥ و ١٦٥، و تفسير القمّي، ج ١، ص ٢٨٦، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٥؟

٤- حنين وادٍ إلى جنب ذى المجاز، قريب من الطائف، بينه و بين مكّة بضعة عشر ميلاً

٥- السيرة النبوية لدحلان (ط. دار المعرفة) ج ٢، ص ١٠٨

٦- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣١٦ و ٣١٨ و ٣٤٦

٧- تاريخ الخميس، ج ٢، ص ١٠١.

ص: ٣٣١

شعاب و مضايق و فرق الناس فيها و اوعز(١) إليهم أن يحملوا على رسول الله و أصحابه حملةً واحدةً.

الهزيمة في اللّحظات الأولى

إنّه لا ريب في وقوع الهزيمة على المسلمين في أول صدام لهم مع المشركين، و قد كان خالد بن الوليد مع بنى سليم في مقدّمة الجيش، فخرج عليهم كتائب هوازن من كلّ ناحية، فانهزمت بنو سليم، و انهزم من وراءهم(٢) و زعموا أنّ المشركين قد كمنوا في المضايق و الشعاب، فهاجموهم، ثم كانت الهزيمة(٣) و هذا الكلام موضع ريب و شكّ. أوّلًا: أنّ الموضوع الّذى اختير للقتال لم يكن فيه مضايق و لا شعاب؛ لأنّ دُرَيْدُ بن الصَّمَةِ حين لمس الأرض و سأل عنها، و أخبروه باسمها، قال: نعم مجال الخيل. فالموضع الصّالح لجولان الخيل لا بدّ أن يكون متّسعاً ليس فيه عوائق. ثانيًا: إنّ لا يصحّ قولهم: إنّ الكمين هو الّذى هزمهم، فقد صرّحت رواية الثّراء بن عازب: بأنّ الجيشين قد تواقفا، و أنّ جيش المسلمين قد حمل على المشركين فكشفهم، فانكبّوا(٤) على الغنائم، فاغتنمها منهم المشركون فرصة، فرشقوهم بالسّهام(٥). ثالثًا: إنّ الهزيمة إنّما وقعت على خصوص بنى سليم و من جهة واحدة، و لو كان الهجوم من المضايق و الشعاب، أو على خصوص أهل مكّة لم يتّبعهم غيرهم.

١- أوعز إليه في كذا أن يفعله: تقدّم و أشار

٢- تفسير القمى، ج ١، ص ٢٨٧، و البحار، ج ٢١، ص ١٤٩ عنه

٣- السيرة النبوية لدحلان (ط. دار المعرفة) ج ٢، ص ١٠٩، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٠٨

٤- انكبّ على أمر: أقبل عليه و لزمه.

٥- السيرة النبوية لدحلان (ط. دار المعرفة)، ج ٢، ص ١٠٩، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٠٨.

ص: ٣٣٢

فإن قيل: لماذا اختار الرسول (ص) مقدّمة جيشه من هؤلاء، مع أنّ احتمال هزيمتهم جبناً و خوراً، أو تأمراً و كيداً كانت قريبة و ظاهرة؟

نقول: إنّ من جملة مقاصده:

١. إنّ ذلك يطمئنّ زعماء مكّة و الزعامات الأخرى في المنطقة إلى أنّه يقبلهم في المجتمع الإسلامي و يعاملهم فيه كغيرهم، و لا يريد أن ينتقم من أحد.
٢. و ليعلم الجميع: أنّ دخولهم في الإسلام لا ينقص من قدرهم و لا يوجب الخسران لهم، بل هو يعلى من مقامهم و يمنحهم العزة و الكرامة.
٣. إنّ أهل المنطقة إذا رأوا أنّ الذين يخشون سطوتهم هم الذين يدعونهم إلى هذا الدين، بل هم يحاربونهم دفاعاً عنه و عن أهله و عن نبيّه.

ما الذي جرى بعد الهزيمة؟

إشاره

إنّ المسلمين انهزموا عن رسول الله (ص) في حنين بلا مبرور، و قد أنزل الله في فعلتهم هذه قرآناً يسجّل ملامتهم و يجاهر بتوبيخهم و يعلن: أنّ الله سبحانه قد أنزل سكينته على رسول الله (ص) و على خصوص المؤمنين الذين جاهدوا و صمدوا و لم يفزوا. ثمّ جرت أحداث و معالجات للموقف من قبيل رسول الله (ص) انتهت بهزيمة المشركين. إنّنا نستطيع أن نجمل ما جرى من حين الهزيمة إلى حين عودة بعض المسلمين بما يلي.

١. محاولات لاغتيال النّبي (ص).
٢. حين وقعت الهزيمة صار (ص) يركض بغلته قبل الكفّار و قد شهر سيفه، ثمّ نزل عنها و صار يتقدّم نحوهم.
٣. أمر رسول الله (ص) عمّه العباس بأن يصعد مرتفعاً لينادي المسلمين و يذكّرهم العهد لكي يرجعوا، و قد ناداهم النّبي (ص) نفسه أكثر من مرّة: يا للأنصار.

ص: ٣٣٣

٤. رفع (ص) يديه إلى السماء و صار يدعو بما دعا به موسى (ع) حين فلق له البحر.
٥. أخذ كفاً من حصى أو من تراب و رمى به فى وجوه المشركين و قال: «شاهت الوجوه».
٦. تولى على (ع) قتال الكفار، و الباقون من بنى هاشم، احتوشوا النَّبِيَّ (ص) ليكونوا جداراً بشرياً له، يحميه من العدو.
٧. أنزل الله تعالى جنوداً من الملائكة لتكون مع المسلمين.
٨. حمى و طيس الحرب (١)، حتى كُسرت شوكة المشركين بجهاد على (ع) و صبر النَّبِيَّ (ص). ثم بدأت عودة بعض الأنصار و خصوصاً من الخزرج إلى ساحة القتال.
- و إليك تفصيل بعض هذه المفردات، فنقول:

ألف. النَّبِيُّ (ص) يعالج الموقف

قال الشيخ المفيد: «و لما رأى رسول الله (ص) هزيمة القوم عنه، قال للعباس و كان رجلاً جهورياً صَيِّتاً نادى فى القوم و ذكّرهم العهد. فنادى العباس بأعلى صوته: يا أهل بيعه الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، (٢) إلى أين تفرّون؟ اذكروا العهد الذى عاهدتم عليه رسول الله (ص) و القوم على وجوههم قد ولّوا مدبرين، و كانت ليلة ظلماء ... فنظر رسول الله (ص) إلى الناس ببعض وجهه فى الظلماء، فأضاء كأنه القمر ليلة البدر، ثم نادى المسلمين: أين ما عاهدتم الله عليه؟ فأسمع أولهم و

١- الوطيس: التّور و ما أشبهه، و حمى الوطيس، اشتدّ الحرب

٢- وجه تسميتهم بأصحاب سورة البقرة، أنّ هذه السّورة هى أوّل سورة نزلت فى المدينة، فلعلّ هذا النداء يرمى إلى تذكيرهم ببعض آياتها التى تقول: «و أفوا بعهدى أوف بعهدكم» (الآية: ٤٠). و تقول: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله» (الآية: ٢٤٩) و تقول: «و من الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضات الله و الله رؤوف بالعباد» (الآية: ٢٠٨)

ص: ٣٣٤

آخرهم، فلم يسمعها رجل إلّا رمى بنفسه إلى الأرض، فانحدروا إلى حيث كانوا من الوادي، حتّى لحقوا بالعدوّ فقاتلوه» (١). يظهر من سياق رواية المفيد: أنّ الناس لم يصغوا إلى نداء العباس، بل مَرّوا على وجوههم في هزيمتهم، فلمّا ناداهم النّبيّ (ص): «أين ما عاهدتم الله عليه؟» لم يسمعها رجل إلّا رمى بنفسه إلى الأرض، الخ. فلا يصحّ قولهم: إنّ عودة الأنصار كانت لسماعهم نداء العباس (٢). غير أنّ لنا تحفظاً على قوله: «لحقوا بالعدوّ فقاتلوه» إذ إنّ الدّلائل و الشّواهد تشير إلى أنّهم لم يقاتلوه.

ب. هزيمة المشركين على يد علي (ع)

وقد ذكرت الروايات: أنّه لما عاد الأنصار للقتال، قال رسول الله (ص): «الآن حمي الوطيس» (٣). ونقول: إنّ الهزيمة للمشركين قد حصلت على يد علي (ع)، فإن كان قد قال هذه الكلمة، فقد قالها حين اشتدّ القتال بين المشركين و بين علي (ع)، لا بين المسلمين بعد عودتهم و المشركين؛ إذ إنّهم بعد عودتهم لم يرم أحد منهم بسهم، و لم يطعن برمح و ذلك لما يلي:

١. روى عن أنس و عكرمة، قالّا: لمّا انهزم المسلمون بحنين و رسول الله (ص) على بغلته الشّهباء و كان اسمها دُلْدُل فألزقت بطنها بالأرض، فأخذ رسول الله (ص) حفنةً من تراب، فرمى بها في وجوههم و قال: «حم لا يُنصرون»، فانهزم

-
- ١- البحار، ج ٢١، ص ١٦٧ و راجع: ص ١٥٦ و ١٥٧، و الإرشاد، ج ١، ص ١٤٢
 - ٢- راجع على سبيل المثال: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٣، و مجمع البيان، ج ٥، ص ١٧ و ١٨، و المعجم الكبير للطبراني، ج ٧، ص ٢٩٩، و الثقات، ج ٢، ص ٦٩
 - ٣- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٨، و إعلام الوري، ص ١٢٢، و البحار، ج ٢١، ص ١٥٧ و ١٦٧.

ص: ٣٣٥

القوم، و ما رمينا بسهم ولا طعنا برمح. (١) ٢. و عن أنس أيضاً: أنه (ص) بقى وحده، فنادى الأنصار عن يمينه تارة و عن يساره أخرى بُدائين لم يخلط بينهما، فلبّوه بأنهم معه، فهزم الله المشركين و لم يُضرب بسيف و لم يطعن برمح. (٢) ٣. قال ابن إسحاق: «و رجع رسول الله (ص) من جهة المشركين بعد انهزامهم إلى العسكر و أمر أن يُقتل كل من قدر عليه، و تاب (٣) من انهزم من المسلمين». (٤) فإنه ظاهرٌ في أن عودة من انهزم قد كانت بعد انقضاء الأمر.

٤. قولهم: فو الله، ما رجعت راجعةً للمسلمين حين هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتوفين عند رسول الله (ص) (٥) فإنه صريح في أن هزيمة المشركين وقعت، و أُسِرَ مَنْ أُسِرَ منهم قبل رجعة راجعة المنهزمين، و هذا معناه: أن المنهزمين لم يشاركوا في القتال بعد عودتهم.

٥. إن أحاديث: أنه (ص) حثّ التراب في وجوه المشركين، فهزمهم الله، تدلّ على أن المشركين انهزموا من دون أن يباشر المسلمون العائدون من الهزيمة أى قتال معهم.

فكلّ هذه الدلائل و الشواهد تدلّ على أنه لم يُحارب أحد من المسلمين، بل الذى قاتل هو خصوص علي (ع) و قد قتل أربعين رجلاً بيده حسب تصريحهم. و هو ما روى عن الإمام الصادق (ع) أيضاً. (٦)

١- مجمع الزوائد، ج ٦، ص ١٨٣، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٤

٢- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٥ عن ابن أبي شيبة، و أحمد، و الحاكم، و ابن مردويه

٣- تاب: رجع بعد ذهابه

٤- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٣٢ عن ابن إسحاق

٥- نفس المصدر، ص ٣٢٣

٦- الكافي، ج ٨، ص ٣٧٦، و البحار، ج ٢١، ص ١٧٦ و ١٧٨ و ١٧٩، و ج ٤١، ص ٩٤ و ٩٦ عنه و عن مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٢٩٥ و ٢٩٦.

ص: ٣٣٦

قال أنس: «و كان (ع) يومئذٍ أشدَّ الناس قتالاً بين يديه».(١)

ج. نزول السكينة

قال الطبرسي: «ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا»(٢) حين رجعوا إليهم وقاتلوهم. وقيل: على المؤمنين الذين ثبتوا مع رسول الله (ص): على، و العباس في نفر من بنى هاشم. عن الضحّاك.(٣) و روى في قول الله تعالى: «وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا» قال: هم الملائكة. «و عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا» قال: قتلهم بالسيف. و روى أيضاً عن سعيد بن جبير، قال: «في يوم حنين أمدَّ الله تعالى رسوله (ص) بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين...».(٤) و قد زعموا أنَّ سبب نزول السكينة على المسلمين ليس هو جنبهم، فإنَّ فرار المسلمين لم يكن عن جبن، و إنما كان بسبب مفاجأة هوازن و ثقيف لهم، حيث شدّوا عليهم شدّة رجل واحد، فاحتاجوا إلى السكينة، فأنزلها الله عليهم.

و احتاجها أيضاً رسول الله لأجل ما دخله من الحزن و الاضطراب و الأسف ممّا جرى على المسلمين.

و الدليل على أنَّ جنبهم ليس هو السبب: أنَّهم رجعوا إلى ساحة القتال بمجرد سماعهم لنداء العباس.

و نقول: إنَّ ذلك لا يمكن قبوله و ذلك:

أولاً: إنَّ ظاهر الآيات من سورة التوبة هو: أنَّهم قد فرّوا جبناً و خوفاً، لأنَّهم اعتقدوا أنَّ كثرتهم تغني عنهم في ساحة القتال، و لم يفكّروا بأنَّ عليهم أن يرجعوا

١- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٤ عن أبي يعلى و الطبراني، و مجمع الزوائد، ج ٦، ص ١٨٠ و ١٨٢

٢- التوبة: ٢

٣- مجمع البيان، ج ٥، ص ١٧ و ١٨

٤- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٧ عن ابن أبي حاتم.

ص: ٣٣٧

إلى الله و يعتمدوا عليه، و لم يتذكروا ربهم الذي نصرهم في ثمانين موطناً.

ثانياً: إن الآيات المشار إليها إنما هي بصدد لومهم و تأنيبهم على فرارهم و تولية أديبارهم؛ الأمر الذي يوجب لفاعله: أن ييؤ بغضب من الله كما دلت عليه الآية الشريفة: «وَمَنْ يُولِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بُشِّسَ الْمَصِيرُ» (١).

فتولية الأديبار المحرمة في الحرب توجب الغضب الإلهي، سواءً أكان بسبب الاضطراب الناشئ من المفاجأة أو بسبب الجبن. ثالثاً: إن أسف النبي (ص) و حزنه على ما صدر من أصحابه، حيث لم يعتصموا بالله، أمر محمود و محبوب لله تعالى و لا شأن للسكينة به و لا يمكن أن يكون مبغوضاً، و مع غض النظر عن ذلك، فإنه (ص) معصوم و لا يصدر منه ما يكون مبغوضاً.

د. الثابتون في حنين

قال الحلبي و غيره: «وردت في عدد من ثبت معه (ص) روايات مختلفة. فقل: مائة. و قيل: أقل و قيل: ثلاثمائة. و قيل ثمانون. و قيل: اثنا عشر. و قيل: عشرة» (٢). و عدوا من الرجال الذين ثبتوا في حنين أشخاصاً كثيرين. قال الصالحى الشامي! عن الحكم بن عتيبة، قال: لم يبق معه إلا أربعة؛ ثلاثة من بنى هاشم و رجل من غيرهم؛ على بن أبى طالب، و العباس، و هما بين يديه، و أبوسفیان بن الحارث آخذ بالعنان، و ابن مسعود من جانبه الأيسر. قال: فليس يُقْبَلُ أحدٌ إلّا قُتِلَ و المشركون حوله صرعى» (٣).

١- الانفال: ١٦

٢- راجع: السيرة الحلبيّة، ج ٣، ص ١٠٨، و السيرة النبوية لدحلان، ج ٢، ص ١١٠

٣- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٢٩.

ص: ٣٣٨

وقال الشيخ المفيد: «و لم يبق منهم مع النبي (ص) إلا عشرة أنفس: تسعة من بنى هاشم خاضيه و عاشرهم أيمن بن أم أيمن، فقتل أيمن و ثبتت التسعة الهاشميون حتى تاب إلى رسول الله (ص) من كان انهزم، فرجعوا أولًا فأولًا حتى تلاحقوا و من ثبت معه من بنى هاشم ... العباس بن عبدالمطلب عن يمين رسول الله (ص)، و الفضل بن العباس عن يساره، و أبو سفيان بن الحارث مُمسكٌ بسرجه عند ثفر (١) بغلته، و أمير المؤمنين (ع) بين يديه يضرب بالسيف، و نوفل بن الحارث، و ربيعة بن الحارث، و عبدالله الزبير بن عبدالمطلب، و عتبه و مُعَتَّب ابنا أبي لهب حوله، و قد وُلت الكافة مدبرين سوى من ذكرناه» (٢).

و كذلك عدّهم سائر المؤرخين كابن قتيبة في المعارف، و الثعلبي في الكشف، و يعقوبى في تاريخه، و ابن شهر آشوب في المناقب، فراجع، (٣) غير أن البحث العلمى و الموضوعى لا- يسمح بالجزم بثبات أحد سوى على أمير المؤمنين (ع) فإنه هو الوحيد المتسالم على ثباته من بين جميع من ذكروهم، و من الزاجح أيضاً أن يكون هناك جماعة من بنى هاشم قد أحاطوا بالنبي (ص) خوفاً من أن يناله سلاح الكفار. (٤) أما القتال فكان محصوراً بعلى (ع).

مقارنتان بين بدر و حنين

إنّ هناك خصوصيات تتشارك فيها غزوتا بدر و حنين، نذكر منها:

- ١- الثفر: سير من الجلد فى مؤخر السرج
- ٢- الإرشاد، ج ١، ص ١٤٠ و ١٤١ (ط. دار المفيد)
- ٣- المعارف، ص ١٦٤؛ البحار، ج ٤١، ص ٩٣ و ٩٤ و عن مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٦٠٤ و (ط. المكتبة الحيدرية)، ج ٢، ص ٣٣٠؛ و تاريخ يعقوبى، ج ٢، ص ٦٢
- ٤- البحار، ج ٤٩، ص ١٩٩، و عيون أخبار الرضا (ع)، ج ٢، ص ١٩٣.

ص: ٣٣٩

١. الإمداد بالملائكة.
٢. إِنَّ فِتْنَةً قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ.
٣. إِنَّ النِّكَايَةَ فِي الْمَشْرِكِينَ فِي كِلَيْهِمَا كَانَتْ لَعَلَى (ع).
٤. إِنَّ عِدَدَ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ عَلَى (ع) مُتْقَارِبٌ فِي الْغَزَوَتَيْنِ، حَيْثُ قَتِلَ فِي حَنِينٍ أَرْبَعِينَ رَجُلًا بِيَدِهِ، (١) وَقَتْلٌ فِي بَدْرٍ مَا يَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْعِدَدِ أَيْضًا، فَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّهُ (ع) قَتَلَ نِصْفَ السَّيِّعِينَ وَ شَارَكَ فِي قَتْلِ النِّصْفِ الْآخِرِ. (٢) وَ حِينَ يَذْكُرُونَ الْأَسْمَاءَ وَ نَجْمَعَ بَيْنَ مُخْتَلَفَاتِهَا، فَلَعَلَّ الْعِدَدَ يَبْلُغُ الْأَرْبَعِينَ.
٥. إِنَّ حَرْبَ بَدْرٍ كَانَتْ مَصْرِيَّةً بِالنِّسْبَةِ لِأَهْلِ الشُّرْكَ وَ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، وَ كَذَلِكَ كَانَتْ حَرْبُ حَنِينٍ. وَ نَفْسُ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ (ص): «إِنْ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ لَا تَعْبُدُ» خَيْرٌ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ.
٦. إِنَّ عِدَدَ قَتْلَى الْمَشْرِكِينَ مِنْ ثَقِيفٍ كَانَ سَبْعِينَ رَجُلًا، أَمَّا عِدَدُ الشَّهَدَاءِ فَكَانَ أَرْبَعَةً أَوْ خَمْسَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَطْ. (٣) وَ فِي بَدْرٍ كَانَ عِدَدُ قَتْلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ سَبْعِينَ رَجُلًا وَ عِدَدُ الشَّهَدَاءِ أَيْضًا كَانَ خَمْسَةً عَلَى بَعْضِ الْأَقْوَالِ.
٧. إِنَّ غَزْوَةَ بَدْرٍ كَانَتْ أَوَّلَ غَزْوَةٍ لِلْعَرَبِ، وَ غَزْوَةُ حَنِينٍ كَانَتْ آخِرَ غَزْوَةٍ لَهُمْ، فَخَمَدَتْ (٤) جَمْرَةُ الْعَرَبِ بِهَاتَيْنِ الْغَزَوَتَيْنِ.
٨. إِنَّهُ (ص) رَمَى بِالْحَصَى فِي وَجْهِ الْمَشْرِكِينَ فِي الْغَزَوَتَيْنِ.

- ١- الجامع لأحكام القرآن، ج ٨ ص ١٩٩، و راجع: كشف الغطاء (ط. ق) ج ١، ص ١٥ و الكافي، ج ٨ ص ٣٧٤، و مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٣٥٥
- ٢- راجع: نهج الحق الموجود في ضمن دلائل الصدق، ج ٢، ص ٣٥٣
- ٣- راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٣٤، و الميزان، ج ٩، ص ٢٣٥
- ٤- خَمَدَتِ النَّارُ: سَكَنَ لَهَبُهَا وَ لَمْ يَطْفَأْ جَمْرُهَا، وَ الْجَمْرُ: النَّارُ الْمُتَّقَدَةُ.

ص: ٣٤٠

حصار الطائف

(١)

قالوا: إنه لما فتح رسول الله (ص) حنيناً، خرج إلى الطائف يريد جمعاً من هوازن و ثقيف و كانوا قد هربوا من معركة حنين. (٢) و يذكرون في بيان ما جرى: أنه لما قدم فل (٣) ثقيف الطائف، رموا حصنهم (٤) و أغلقوا عليهم أبواب مدينتهم و تهيؤوا للقتال. و قدّم رسول الله (ص) بين يديه خالد بن الوليد في ألف من أصحابه إلى الطائف. و سار (ص) في إثر خالد و لم يرجع إلى مكة و لا عرج بها (٥) على شيء إلا على غزو الطائف، قبل أن يقسم غنائم حنين و قد ترك السبي بالجعرانة (٦) و ملئت عرش (٧) مكة منهم، و كان مسيره في شوال سنة ثمان.

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله (ص) حتى نزل قريباً من الطائف، ف ضرب عسكره و أشرفت على حصنهم و لا مثال له في حصون العرب و أقاموا رماتهم و هم مائة رام فرموا بالسهم و المقاليع (٨) من بعد من حصنهم حتى أصيب ناس من المسلمين بجراح و قتل منهم اثنا عشر رجلاً. (٩) فارتفع (ص) إلى موضع مسجده اليوم الذي بنّته ثقيف بعد إسلامها.

- ١- الطائف بلد كبير، يقع على ثلاث مراحل، أو على مرحلتين من مكة إلى جهة المشرق
- ٢- تاريخ الخميس، ج ٢، ص ١١٠، و عمدة القاري، ج ١٢، ص ١٣٧
- ٣- الفل: الجماعة المنهزمون من الجيش
- ٤- رموا حصنهم (بتشديد الميم المضمومة): قصدوه
- ٥- عرج: مال من جانب إلى جانب، و لم يُعرج عليه: لم يمل
- ٦- الجعرانة بكسر الجيم و سكون العين خفف الأكثر الزاء و شدّدها غيرهم موضع سبعة أميال من مكة من جهة الطائف
- ٧- عرش، جمع عريش؛ بيوت مكة، سميت بذلك لأنها كانت عيداناً تنصب و يظل عليها
- ٨- المقاليع جمع مقلاع و هي آلة ترمى بها الحجارة
- ٩- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٨٣.

ص: ٣٤١

فقاتلهم رسول الله (ص) بالرّمي عليهم، و هم يقاتلونه بالرّمي من وراء الحصن، فلم يخرج إليه أحد، و كثرت الجراحات له من ثقيف بالنبل. (١) و شاور رسول الله (ص) أصحابه في أمر الحصن، فقال له سلمان الفارسي: يا رسول الله، أرى أن تنصب المنجنيق (٢) على حصنهم، فإنّا كنّا بأرض فارس نصب المنجنوقات على الحصون، فنصيب من عدونا: فأمره رسول الله (ص)، فعمل منجنيقاً بيده، فنصبه على حصن الطائف، و هو أوّل منجنيق رُمي به في الإسلام. (٣) و عن مكحول: إنّ رسول الله (ص) نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوماً. (٤) و لكنّه كان قليل الجدوى، لم يكن يؤثّر على حصونهم و لا على أعصابهم، فاستعملوا نوعاً آخر من الأسلحة، كان لبعض القبائل المقيمة بأسفل مكّة علمٌ بها و هو الدّبابه. (٥) و لكن رجال الطائف كانوا من المهاره، بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلودوا بالفرار، فقد أرسلت ثقيف بـسَكِكِ الحديد المَحْمَاهُ بالنّار، فَحَرَقَتِ الدّبابه، فخرج المسلمون من تحتها و قد أصيب منهم من أصيب، فرمتهم ثقيف بالنبل، فَقُتِلَ منهم رجال. (٦)

و لم يبق للنّبي (ص) من وسيلة للضّغط عليهم إلّا الالتجاء إلى تقطيع الأعناب و الأشجار و تحريقها، عساهم يستسلمون عندما يرون أملاكهم قد تعرّضت للخطر، و بدلا من أن يستسلموا، أرسلوا إلى النّبي (ص) يناشدونه أن يكفّ عنها لأصحابها أو يأخذها لنفسه، فأمر عند ذلك أصحابه بالكفّ عنها.

١- نفس المصدر

٢- المنجنيق: آلة حربيّة تُصنع من جلود و خشب و حديد يقذفون الحجارة بها

٣- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٨٥ عن الواقدي

٤- تاريخ الخميس، ج ٢، ص ١١٠ عن المنتقى، و سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٨٥

٥- الدّبابه: آلة حربيّة توضع الجلود عليها و يدخل فيها الرّجال فيذبّون إلى أسوار الحصن لينقبوها

٦- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٨٥، و السيرة النبويّة (ط. دار المعرفة)، ج ٢، ص ١١٢.

ص: ٣٤٢

نهاية حرب الطائف

قالوا: لما حاصر رسول الله (ص) الطائف أربعين ليلة، أو ثلاثين ليلة، أو قريباً من ذلك و لم ينل منهم شيئاً، آثر (ص) أن يرفع الحصار عنهم و يرجع بمن معه إلى الجعرانة حيث الأسرى و الغنائم، و دعا حين ركب قافلاً: «اللهم اهدهم و اكفنا مؤنتهم» (١) و قال لأصحابه، حين أرادو أن يرتحلوا: «قولوا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، و نصر عبده، و أعزّ جنده، و هزم الأحزاب وحده». (٢) ثم إنه جاء في بعض النصوص أن النبي (ص) حين ترك الحصار أطلق تهديداته القويّة لأهل الطائف: بأنّه سوف يرميهم بعلى (ع) ليضرب أعناق مقاتليهم و يسبى ذراريهم أو يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة.

و يمكن تفسير و توضيح ذلك بمايلي:

١. أنّه (ص) بتحركاته تلك حيث كان يتركهم ثم يعود إليهم في أوقات مختلفة كأنّه يريد أن يفهم أهل الطائف عملاً لا قولاً أنّهم غير متروكين و أنّ عليهم أن يتوقعوا مفاجأتهم في كلّ وقت و زمان، و بديهي أنّه لا يمكنهم العيش في مثل هذه الأجواء الصعبة.
٢. أنّه (ص) قد أطلق تهديداته لهم بأنّهم إن لم يستجيبوا لنداء المنطق و العقل، فسوف يرميهم بأخيه على (ع)؛ الذي إذا قهم وحده طعم الهزيمة المرة و الدّليّة قبل أيام يسيرة و حين كانوا قد جمعوا عشرات الألوف، فهل يمكنهم الصمود في وجهه بعد أن تفرّق الناس عنهم و أصبحوا وحدهم، و قد قطعت عنهم جميع الإمدادات؟

١- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٨٨

٢- نفس المصدر عن الواقدي.

ص: ٣٤٣

٣. وفوق ذلك، فإن مصيبتهم العظمى إنما تكون حين يأذن النبي (ص) لعلی (ع) فيهم، فإنه لا شيء يقف في وجهه (ع) ولا تجدى الحصون ولا غيرها في دفعه عنهم. وقد رأى الناس ما جرى على يديه لحصون خيبر وكيف قتل فرسانها، واقتلع أبوابها.

فك الحصار لتسهيل الاستسلام

و عن الإمام الصادق (ع): أنه (ص) لما فرغ من هوازن، سار حتى نزل الطائف، فحصر أهل وج (١) أياماً، فسأله القوم أن يبرح عنهم (٢) ليقدم عليه و فدهم، فيشترط له، و يشترطون لأنفسهم. فسار حتى نزل مكة، فقدم عليه نفر منهم بإسلام قومهم، و لم يبخل (٣) القوم له بالصلاة و لا الزكاة.

فقال (ص): إنه لا خير في دين لا ركوع فيه و لا سجود. أما والذي نفسي بيده ليقمن الصلاة و ليؤتن الزكاة، أو لأبعثن إليهم رجلاً هو مني كنفسى، فليضرب أعناق مقاتليهم و ليسبين ذراريهم و هو هذا و أخذ بيد علی (ع)، فأشالها (٤).

فلما صار القوم إلى قومهم بالطائف أخبروهم بما سمعوا من رسول الله (ص)، فأقروا له بالصلاة و أقروا بما شرط عليهم. فقال (ص): ما استعصى على أهل مملكه، و لا أمه إلا رميتهم بسهم الله عز وجل. قالوا: يا رسول الله، و ما سهم الله؟ قال: على بن أبى طالب، ما بعثته في سرية إلا رأيت جبرئيل عن يمينه، و ميكائيل عن يساره، و ملكاً أمامه، و سحابة تظله، حتى يعطى الله عز وجل حبيبي النصر و

١- وج: موضع بناحية الطائف. أو اسم جامع حصونها أو اسم واحد منها

٢- برح المكان أزاله عنه، والمعنى: سأله القوم أن يبتعد

٣- لم يبخل القوم: لم يقروا و لم يدعوا

٤- أشاله: رفعه و حمله.

ص: ٣٤٤

الظَّفَر. (١)

و هذا معناه: أَنَّ النَّبِيَّ (ص) قد حَقَّق نصرًا عظيمًا يوازي ما حَقَّقَه في غزوة الخندق و خيبر و سواهما. و يدلُّ على ذلك أيضًا ما تقدَّم من أَنَّهُ (ص) قد قال لأصحابه حين أرادوا أَن يرحلوا عن الطَّائِف: قولوا لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شريك له الخ. (٢) فلو لم يكونوا منتصرين، لم يكن وجه لأمرهم بأن يقولوا ذلك؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ (ص) لا يُطلق الشَّعارات جزافًا.

السَّيَابَا وَ الْغَنَائِم

قالوا: كان السَّيْبَى ستَّة آلاف رأس، و الإبل أربعة و عشرين ألف بعير، و الغنم أكثر من أربعين ألف شاة و أربعة آلاف أوقية فضة. (٣) و لكنَّ المروى عن الصِّادِق (ع) قوله: «سبى رسول الله (ص) يوم حنين أربعة آلاف فارس و اثني عشر ألف ناقة سوى ما لم يعلم من الغنائم». (٤) و كانت الغنائم للنَّبِيِّ (ص) و على (ع) حيث إنَّ المسلمين انهزموا جميعاً عن النَّبِيِّ (ص) و أَنَّ راجعتهم حين رجعت وجدت الأسارى مُكْتَفَيْن عند رسول الله (ص) و أَنَّ المسلمين المهزومين لم يضربوا بسيف و لم يطعنوا برمح، و تقدَّم أَنَّ الَّذِينَ بقوا عند رسول الله (ص) كانوا تسعة أشخاص أو أقلَّ من ذلك كلَّهم من بنى

١- الأُمَالِي لِلطُّوسِي، ص ٥١٦ و ٥١٧، و البحار، ج ٢١، ص ١٥٣ و ج ٣٨، ص ٣٠٥، و مستدرک سفینه البحار، ج ٥، ص ٣١٥، و مدينة المعاجز، ج ٢، ص ٣٠٨

٢- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٣٨٨ عن الواقدي

٣- راجع السيرة النبوية لدحلان (ط. دار المعرفة) ج ٢، ص ١١٢ و ١١٤، و السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١١٩

٤- إعلام الوری، ص ١٢٣، و البحار، ج ٢١، ص ١٦٨ و ١٨٣.

ص: ٣٤٥

هاشم، فكان ثمانية منهم، أو أقلّ قد احتوشوا رسول الله (ص) لكي لا يصل إليه أحد من المشركين بسوءٍ، و المهاجم الوحيد لجيوش المسلمين كان على بن أبي طالب (ع) فهزم الله المشركين على يديه شرّ هزيمة.

فالتصرّ إنّما تحقّق بجهد على (ع) و بالتأييد الإلهي للنبي (ص) بإنزال الملائكة. و هذا يبيّن السبب في أنّ الله سبحانه ردّ أمر الغنائم و السبى إلى رسول الله (ص) ليعطيها لمن يشاء، فأعطاه لمن أراد أن يتألّفهم، و لم يعط منها حتّى أقرب الناس إليه و هم الأنصار؛ لأنّهم لم يكن لهم و لا للمهاجرين و لا لغيرهم حقّ فيها.

و كان القسم الأكبر لأولئك الذين لا يزالون يُبطنون الشّرك كأبى سفيان و معاوية و عكرمة و أمثالهم و كان الحرمان من نصيب الأنصار، عزّ ذلك عليهم، و قال بعضهم ليست هذه القسمة بعادلة و قال آخرون منهم: لقد لقي محمّد قومه و ما يصنع بنا بعد ذلك، إلى غير ذلك ممّا بدر منهم من الكلمات الّتي تدل على أنّهم لم يرتاحوا لتوزيع الغنائم بالنّحو الّذي تمّ توزيعها عليه.

فجمعهم النّبيّ (ص) و قال لهم: يا معشر الأنصار ألم آتكم ضّملاً فهداكم الله تعالى، و عالته فأغناكم الله، و أعدائاً فألّف بين قلوبكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، الله و رسوله أمّن (١) و أفضل (٢)....

فارتفعت أصواتهم بالبكاء و قام شيوخهم إليه، فقبلوا يديه و رجله، ثم قالوا: رضينا بالله و عنه و برسوله و عنه و هذه أموالنا بين يديك، فإن شئت فاقسمها على قومك، و إنّما قال من قال ممّا على غير و غر صدر (٣) و غلّ في قلب، و لكنّهم ظنّوا سخطاً عليهم و تقصيراً بهم، و قد استغفروا الله من ذنوبهم، فاستغفر لهم يا رسول الله.

فقال النّبيّ (ص): اللّهم اغفر للأنصار و لأبناء الأنصار، و لأبناء أبناء الأنصار. يا

١- أمّن: من المنة و هي النعمة

٢- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٠٣ ٤٠٢

٣- و غر صدره على فلان: توقّد عليه من الغيظ، فهو واغر الصدر عليه. و الغلّ: الحقد و الغشّ.

ص: ٣٤٦

معشر الأنصار، أما ترضون أن يرجع غيركم بالشأه والنعم، و ترجعون أنتم و فى سهمكم رسول الله؟ قالوا: بلى رضينا. فقال رسول الله (ص) عند ذلك: الأنصار كَرِشَى (١) و عَيْبَتَى (٢) لو سلك الناس شِعْباً (٣) و سلك الأنصار شِعْباً لَسَلَكْتُ شعب الأنصار. (٤) فطابت نفوسهم بهذه السّياسة الرّشيده الحكيمه.

رجوع رسول الله (ص) إلى المدينة

قالوا: انتهى رسول الله (ص) إلى الجعرانه ليله الخميس، لخمس ليال خلون من ذى القعدة، فأقام بالجعرانه ثلاث عشرة ليله، ثم خرج (ص) بمن معه من الجعرانه متّجهاً إلى مكّه، فأتم عمرته و حلّ من إحرامه و استخلف على مكّه عتّاب بن أسيد و معه معاذ بن جبل يفقه الناس بالدين و يعلمهم القرآن، و خرج منها متّجهاً إلى المدينة بمن معه من المهاجرين و الأنصار و دخلها فى الأيام الأخيره من ذى القعدة بعد انتصارين من أعظم انتصارات التى حقّقها فى حروبه و غزواته. و هما فتح مكّه و هزيمة جيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل فى حنين، هزيمة لم تعرف هوازن و أحلافها أسوأ منها و تركت هذه الانتصارات المتتاليه أثراً بليغاً فى نفوس عظماء العرب و قادتهم الذين كانوا لا يتصوّرون أن تضطرّهم الأيام للخضوع لمحمّد و الإقرار له بالطّاعه.

١- الكرش: الجماعة من الناس و عيال الرّجال

٢- عيبتي: موضع سرى

٣- الشّعب: الطريق بين الجبلين

٤- الإرشاد للمفيد، ج ١، ص ١٤٥ و ١٤٦، و إعلام الورى، ص ١٢٥ و ١٢٦. و البحار، ج ٢١، ص ١٥٩ و ١٧٢ و ١٧١

ص: ٣٤٩

الفصل الثاني عشر غزوة تبوك

الإعداد والاستعداد

وقد صرّحوا بأنّ تبوك (١) آخر مغازيه (ص) وهى المعروفة بغزوة العُسرة و تعرف بالفاضة لافتحها المنافقين فيها، و كانت فى رجب سنة تسع، قبل حجة الوداع. و قد اختلفت المزاعم و الاجتهادات فى سببها، فقل: إنّ قد اتّصل به (ص) نبأ من بلاد الروم أنّ ملك الروم قد هبّ جيشاً كبيراً لغزو العرب فى شبه الجزيرة، و أعدّ العدة للقضاء على محمّد و أتباعه، الذين أصبحوا يهدّدون المناطق المتاخمة لحدود الحجاز.

و كتب (ص) إلى قبائل العرب، ممّن قد دخل الإسلام، و بعث إليهم الرّسل، يرغبهم فى الجهاد و الغزو، و بين للناس مقصده و أنّه يريد بلاد الروم، لبعده الشُّقّة و شدة الزّمان و كثرة العدو الذى يصمّد له، ليتأهبّ الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، فأوعب معه بشر كثير، و تخلف عنه آخرون، فعاتب الله تعالى من تخلف منهم لغير عذر من المنافقين و المقصّرين، و وبّخهم و بين أمرهم. (٢) هذا ما جاء فى كتب السيرة (٣) ولكنّا نقول: إنّ الإعلان بمقصده (ص) لم يكن

- ١- تبوك اسم موضع، و هى أقصى موضع بلغه رسول الله (ص) فى غزواته، و هى فى طرف الشّام من جهة القبلة و بينها و بين المدينة اثنتا عشرة مرحلة (معجم البلدان و كتاب العين) و قيل: أربع عشرة (فتح البارى، ٨ ص ٨٤)
- ٢- راجع: الآيتين ٤١ و ٤٢ من سورة التوبة
- ٣- راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٣٤.

ص: ٣٥٠

لمجرد بُعد الشُّقَّة و شِدَّة الزَّمان و كثرة العدو، فإنَّه قد أرسل قبل سنَّة و شهرين سرِّيَّة إلى مؤتة و هي أبعد من تبوك بكثيرٍ، لأنَّها تقع في تخوم البلقاء من أرض الشَّام، و كانت حشود الأعداء عظيمة و هائلة و الشُّقَّة أبعد، و عدد جيش المسلمين لا يصل إلى عَشْر عدد الجيش الَّذي جهَّزه هو. من أجل ذلك نقول: لعلَّ الأصحَّ هو أنَّه قد أراد فيما أراد:

١. أن يفضح حقيقة نوايا تلك الطَّغمة الَّتِي تتربَّص بالإسلام و المسلمين شرًّا، و هذا ما أشار إليه الشَّيخ المفيد «رحمه الله» حيث قال عن تبوك:

«فأوحى الله تبارك و تعالى اسمه إلى نبيِّه (ص) أن يسير إليها بنفسه، و يستنفر النَّاس للخروج معه، و أعلمه أنَّه لا يحتاج فيها إلى حرب و لا- يمني بقتال عدوٍّ، و أنَّ الأمور تنقاده بغير سيف، و تَعَبَّدَ بامتحان أصحابه بالخروج معه و اختبارهم، لِيَتَمَيَّزُوا بذلك، و تظهر به سرائرهم.

فاستنفرهم النَّبِيُّ (ص) إلى بلاد الرُّوم، و قد أَيْنَعَت ثمارهم، (١) و اشتدَّ القيظ (٢) عليهم، فأبطأ أكثرهم عن طاعته رغبةً في العاجل و حرصاً على المعيشة و إصلاحها و خوفاً من شِدَّة القيظ و بعد المسافة و لقاء العدو، ثمَّ نهض بعضهم على استئصالٍ للنَّهوض و تخلف آخرون...» (٣). ٢. إنَّه (ص) أراد أن يقدم نموذجاً عملياً لأمر الإمامة من بعده و ذلك بأن يجعل النَّاس يتَحَسَّسون الحاجة إلى الحافظ القوى، و الإمام الوصي، حتَّى لا يعبث أصحاب الأطماع بمصير النَّاس، و لا يفرضوا عليهم مساراً يؤدِّي بهم إلى البوار و الهلاك. ٣. إنَّ ذلك لابدَّ من أن يثير الزَّهو و الشَّعور بالعرَّة في مجتمع المسلمين أينما كانوا و حيثما و جدوا، و سيشدُّ أنظار كلِّ النَّاس إليهم و سيشتاقون إلى اللِّحاق

١- أَيْنَع الثَّمَر: أدرك و طاب و حان قطافه

٢- القيظ: الشَّدِيد الحرّ

٣- الإرشاد، ج ١، ص ١٥٤ و ١٥٥، و البحار، ج ٢١، ص ٢٠٧.

ص: ٣٥١

بركب أهل الإيمان الذي يسير من نصرٍ إلى نصرٍ، و يضيف مجداً إلى مجدٍ قبل فوات الأوان، حيث لم يكن أحدٌ أعظم في أعينهم و أهيب في قلوبهم من قيصر؛ فإنّ تبوك لم تبق مجالاً لأن يتوهم أحدٌ أنّ عدم مبادرة قيصر إلى غزوهم، قد كانت بسبب غفلته عنهم، و لعدم اكتراثه (١) بهم، أو ما إلى ذلك.

العدد و الغدة

و عن زيد بن ثابت و معاذ بن جبل قال: خرجنا مع رسول الله (ص) إلى غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفاً. (٢) و نقل الحاكم في الإكلیل عن أبي زرعه قال: كانوا بتبوك سبعين ألفاً. (٣) و جُمع بين الكلامين: بأن من قال ثلاثين ألفاً لم يعدّ التابع، و من قال سبعين ألفاً عدّ التابع و المتبوع. و كانت الخيل عشرة آلاف فرس، و قيل: بزيادة ألفين. (٤) قال عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب: خرج المسلمون في غزوة تبوك، الرجال و الثلاثة على بعير واحد. (٥) و أمر رسول الله (ص) جيشه بالاستكثار من النعال و قال: إنّ الرجل لا يزال راكباً مادام منتعلاً. (٦)

على (ع) خليفة النبي (ص) في أهله أو على المدينة كلها؟

و زعمت بعض الروايات: أنّ النبي (ص) إنّما خلف عليّاً (ع) في أهله، و أنّه لم

١- اكثر بالأمر: بالي به، يقال: هو لا يكثر لهذا الأمر أي لا يعأبه و لا يباله

٢- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٤٢ عن ابن إسحاق و الواقدي

٣- نفس المصدر، عن الحاكم في الإكلیل و ابن الأمين

٤- نفس المصدر

٥- نفس المصدر، ص ٤٤٣ عن البيهقي

٦- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٤٢.

ص: ٣٥٢

ي

ستخلفه على المدينة كلها، حيث قالوا:

و خلف رسول الله (ص) على بن أبي طالب (ع) على أهله و أمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، و قالوا: ما خلفه إلّا استثقلاً له و تخففاً منه. فلمّا قالوا ذلك أخذ على (ع) سلاحه، و خرج حتّى لحق برسول الله (ص) و هو نازل بالجرف، فأخبره بما قالوا. فقال رسول الله (ص): كذبوا، و لكنّي خلفتك لما تركت و رائى، فارجع فاخلفنى فى أهلى و أهلكت، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ إلّا أنّه لا نبى بعدى؟ فرجع على (ع) إلى المدينة و هذا الحديث رواه الشيخان و له طرق (١) و نجيب أولاً: إنّ معظم نصوص غزوة تبوك لم تخصّ حديث المنزلة فى استخلاف النّبى (ص) لعلى (ع) على أهله (ص)، بل أطلقت الخلافة. ثانياً: إنّ حديث المنزلة بإطلاقه قد قاله رسول الله (ص) فى مواقف كثيرة كانت تبوك واحدة منها، فقد قاله فى: يوم المؤاخاة الأولى؛ (٢) يوم المؤاخاة الثانية؛ (٣) يوم تسمية الحسن و الحسين (ع) (٤)؛ فى حجة الوداع؛ (٥) فى منى؛ (٦) يوم غدير خم؛ (٧) يوم

١- نفس المصدر، ص ٤٤١، عن ابن إسحاق و البخارى و مسلم، و قال فى الهامش: أخرجه البخارى، ج ٧، ص ٧١، و مسلم، ج ٤، ص ١٨٧٠

٢- راجع: البحار، ج ٣٨، ص ٣٣٤، و ج ٨، ص ٣٣٠، و كنز العمال، ج ١٥، ص ٩٢، و ج ٦، ص ٣٩٠

٣- راجع: المناقب للخوارزمى، ص ٧، و تذكرة الخواص، ص ٢٠، و الفصول المهمة، ص ٢١

٤- علل الشرايع، ص ١٣٧ و ١٣٨، و ينابيع المودة، ص ٢٢٠، و فرائد السمطين، ج ٢، ص ١٠٥ ١٠٣

٥- البحار، ج ٣٧، ص ٢٥٦ و دعائم الإسلام، ج ١، ص ١٦، و وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٢١٣

٦- البحار، ج ٣٧، ص ٢٦٠ و الدرّ النظيم، ص ٢٨٤

٧- البحار، ج ٣٧، ص ٢٠٦، و تفسير العياشى، ج ١، ص ٣٣٢.

ص: ٣٥٣

المباهلة^(١)، غزوة تبوك؛ عند الرجوع بغنائم خيبر^(٢) و مواقف كثيرة أخرى. و ذلك كله يشير إلى أَنَّ عَلِيًّا (ع) شبيه بهارون في جميع مزاياه، و أَظْهَرُهَا شراكته في الأمر، و وزارته، و شدّ أذره، و إمامته للناس في غياب أخيه موسى (ع).
ثالثاً: إِنَّه لو كانت خلافة أمير المؤمنين (ع) لرسول الله (ص) منحصرة في أهله (ص) لوقعت المنافات بين صدر الزوايه و ذيلها؛ فَإِنَّ صدرها يقول: إِنَّه يستخلفه في أهله، و ذيلها يجعله منه كهارون من موسى، مع أَنَّ هارون إِنَّمَا خَلَفَ موسى في قومه لا في أهله. و صرّحت الآية: بأنَّ موسى قد طلب من الله أن يجعل له هارون أخاً و شريكاً له في الأمر الذي هو إمامة الناس و قيادتهم.

لماذا خَلَفَ عَلِيًّا فِي الْمَدِينَةِ؟

قال الشَّيْخُ المفيد رضوان الله تعالى عليه، و نعم ما قال: «و قال: يا علي إِنَّ الْمَدِينَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا بِي أَوْ بِكَ، و ذلك أَنَّهُ (ص) علم خبث نيات الأعراب و كثير من أهل مكّة و مَنْ حولها، مَمَّنْ غزاهم و سفك دماءهم، فأشفق أن يطلبوا المدينة عند نأيه عنها و حصوله ببلاد الرّوم، فمتى لم يكن فيها مَنْ يقوم مقامه، لم يؤمن من مَعَرَّتِهِمْ^(٣) و إيقاع الفساد في دار هجرته، و التَّخَطُّى إلى مايشين أهله، و مخلفيه.

و علم أَنَّهُ لَا يقوم مقامه في إرهاب العدوّ و حراسة دار الهجره و حياطة من فيها إلّا أمير المؤمنين (ع)، فاستخلفه استخلافاً ظاهراً و نصّ عليه بالإمامة من بعده نصّاً جليّاً، و ذلك فيما تظاهرت به الزوايه أَنَّ أهل النَّفَاق لما علموا باستخلاف رسول الله (ص) على المدينة حسدوه لذلك و عظم عليهم مقامه فيها بعد خروجه، و علموا

١- البحار، ج ٢١، ص ٣٤٣، و المناقب للخوارزمي، ص ١٠٨، العمدة لابن البطريق، ص ٤٦

٢- الأُمالي للصدوق، ص ٨٥، و المناقب للخوارزمي، ص ٧٦ و ٩٦

٣- المَعَرَّة: المساءة و الإثم و الأذى و الجناية.

ص: ٣٥٤

أنها تتحرّس به، ولا يكون فيها للعدوّ مطمع، فساءهم ذلك

فأرجفوا وقالوا: لم يستخلفه رسول الله (ص) إكراماً له وإجلالاً ومودّة، وإنّما خلفه استثقلاً له.

فلما بلغ أمير المؤمنين (ع) إرجاف المنافقين به، أراد تكذيبهم وإظهار فضيحتهم، فلحق بالنبي (ص)، فقال: يا رسول الله، إنّ المنافقين يزعمون أنّك خلّفتني استثقلاً ومقتاً؟ فقال النبي (ص): ارجع يا أخى إلى مكانك، فإنّ المدينة لا تصلح إلّا بى أو بك، فأنت خليفتى فى أهل بيتى، و دار هجرتى وقومى، ألا ترضى أن تكون بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدى؟...» (١).

جيش الإسلام فى تبوك

عن حذيفة و معاذ بن جبل، قال: إنّهُ خرج مع رسول الله (ص) عام تبوك، فكان يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء ... ثم قال: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتّى يضحي النّهار، فمن جاءها، فلايمس من مائها شيئاً حتّى آتى».

و عن عروة: أنّ النبي (ص) حين نزل تبوك، و كان فى زمانٍ قلّ ماؤها فيه، فاغترف غرفة بيده من ماء فمضمض بها فاه، ثم بصقه فيها، ففارت عينها، حتّى امتلأت. فهى كذلك حتّى الساعة. (٢) قالوا: ولما وصل رسول الله (ص) تبوك، كان هرقل بحمص و لم يكن يُهمّ بالذى بلغ رسول الله عنه من جمعه، و لا حدّثته نفسه بذلك. (٣) فوجّه إليه النبي (ص)

١- البحار، ج ٢١، ص ٢٠٧ و ٢٠٨، والإرشاد، ج ١، ص ١٥٦

٢- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٥٣ ٤٥١ عن أبى نعيم و عن البيهقى فى الدلائل

٣- إنّنا نقبل من هؤلاء أن يقولوا: إنّ فلاناً لم يفعل الشّىء الفلانى، و لكنّ لا نقبل منهم أن يقولوا: إنّ فلاناً لم يهمّ بالأمر الفلانى، لأنّ الهمّ بالشّىء فعل قلبي قد تصاحبه بعض الحركات باتّجاه ما يهمّ به، و قد يخلو عنها. و أمّا أن يقول قائل لنا: إنّ فلاناً لم تحدّثه نفسه بالشّىء الفلانى، فذلك ما لا يمكن قبوله من أحدٍ إلّا من نبي أو وصى نبي، لأنّه قول يستبطن العبث بنا و الاستخفاف بعقولنا، و هذا ما لا نرضاه لأنفسنا، لأنّه من إنسان لم يطلعه الله على غيبه، و لا أوقفه على ما يكنه ضمائر عباده.

ص: ٣٥٥

رسالة يدعوها فيها إلى الإسلام أو إلى الجزية.

فقرأه وقال للرسول: اذهب إلى نبيكم، فأخبره أنني متبعه، ولكن لا أريد أن أدع ملكي وبعث معه بدنانيير إلى رسول الله (ص)، فرجع، فأخبره، فقال رسول الله (ص): كذب وقسم الدنانير. (١) وذكر السهيلي: أن هرقل أهدى لرسول الله (ص) هديته، فقبل رسول الله (ص) هديته وفرقها على المسلمين. (٢) ثم إن هرقل أمر منادياً ينادي: ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه، فدخلت الأجناد في سلاحها وطاقات بقصره تريد قتله، فأرسل إليهم: إنني أردت أن أختبر صلابتكم في دينكم، فقد رضيت عنكم، فرضوا عنه. (٣) ولا شك في أن رسالة النبي (ص) إلى هرقل كانت في غاية الدقة، وهي رسالة هادئة وحازمة، وقد راعت أهداف الإسلام من دون أن تعطى ذلك الطاغية أية ذريعة للتمرد، أو اللامبالاة، ولكن هرقل تخلص أولاً من دحية الكلبي بكذبه كان يعرف أنها لا تنفع مع النبي (ص) حين زعم له أنه قد أسلم.

إن هرقل هذا لا يجرؤ على التفوه بكلمة «لا» أمام دعوة رسول الله (ص) له، رغم أنه يدعوهم وقومه إلى إعطاء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. (٤) ولم يحدث في تاريخ طواغيت الأرض وعُتاتها أن تأتي عساكر أعدائهم لتقف

١- صحيح ابن حبان، ج ١٠، ص ٣٥٨، وسبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ٤٥٧

٢- سبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ٤٥٩ وج ١١، ص ٣٥٦

٣- نفس المصدر، ص ٤٥٩

٤- عن يدٍ: عن قهر وإذلال، و صاغرون: أي ذليون مُهانون.

ص: ٣٥٦

على تخوم بلادهم، و هي ثلّة قليلة العدد، ضعيفه العُدّة، ثمّ يسكتون و لا يحركون ساكنًا، و كأنّ شيئاً لم يكن، مع قدرتهم على تجنيد عشره أضعاف ذلك العدوّ بأفضل عُدّة و أو في عدد. بل تراه يتحایل عن ذلك العدوّ و يرسل له بالهدايا، و بالكلمات المعسولة، حتّى إنّهُ ليدّعى كاذباً الانقيادله، و القبول به، و التّبعيّة و الطّاعة لكلّ ما يأمر به و ينهى عنه.

والّذى يبدو لنا: هو أنّ سبب هذا الاستخذاء من هرقل، هو ما جرى في مؤتة. فهى قد عرفت قيصر و من معه: أنّ الأمر في أيّهِ مواجههُ مع هذا النّبىّ الكريم (ص) سيكون بالغ الخطورة، إنّ لم نقل: إنّهم كانوا على يقين من أنّه لن يأتى لهم بغير الخزى و العار، و الهزيمة التّكراء. إذ إنّ مئات الألوف الّتى جاء بها قيصر إلى حرب مؤتة قد واجهت ثلاثة آلاف فقط من المسلمين، و كان من المتوقّع أن يسقط أكثر المسلمين صرعى في أوّل ساعة، بل في الدّقائِق الأولى من المعركة، ولكن ما حصل كان نقيض ذلك، فإنّ الحرب طالت ربما لأيّام و لم يسقط فيها من الشّهداء سوى عدد ضئيل جدّاً لا يتجاوز السّبعة أشخاص، كان القادة الثلاثة منهم. و قد كان هذا، و الحال أنّ النّبىّ (ص) لم يكن معهم، فلو كان معهم، فكيف ستكون عليه الحال و المال.

و ها هو قيصر يرى عشره أضعاف الثلاثة آلاف و معهم قائدهم و سيّدهم الّذى يقدّسونه و يقدونه بأنفسهم. فأى جيش يمكن أن يواجه هؤلاء و ينتصر عليهم. و لذلك اتّخذ قرار الخداع دون الانصياع و المماطلة بديلاً عن المواجهة و المكافحة.

بركات غزوة تبوك

لقد كان لغزوة تبوك بركات و آثار هامة نشير إلى بعضها:

١. فقد عرف الناس أنّه (ص) يقصد بحركته هذه إرهاب أعظم مَلِكٍ في ذلك الزّمن و قد كتب إليه يدعوه إلى الإسلام أو الجزية، ثمّ أرسل إليه رسالة دعوة

ص: ٣٥٧

أخرى من بلاد يراها ذلك الطاغية جزءاً من مملكته بعد أن وطأتها جيوش الإسلام، و بسط (ص) نفوذه عليها و نشر دعوته و دينه فيها، و أصبحت مناطق منها تدين بالولاء لهذا النبي الكريم و تؤدى له الجزية.

٢. إن الله تعالى قد ألقى الرعب في قلوب أعداء الله، فبادروا إلى إعلان إسلامهم أو استسلامهم، ففي تبوك فتح الله له دومة الجندل و أخذ ملكها، و فيها جاءه أسقف أيلئه و هو يحثه بن ربيعة، و وفد إليه أهل أذرح و سئلوه الصلح على الجزية، و وفد إليه أهل مقنا، و مالك بن أحمر و قومه يطلبون العهد و الأمان(١)، فكانت هذه المعاهدات مع الفئات المختلفة هي النتيجة الطبيعية لذلك، و كل ذلك من شأنه أن يؤلم قيصر و يهين كبرياءه الشيطاني و يثير حميته، و هو الرجل المغرور بنفسه و بملكه العريض و لا يرى له نظيراً على وجه الأرض، فهل هناك من دُل و خزي لقيصر أعظم من أن يقف النبي (ص) الذي يصرفونه بالعربي و المسلم بجيوشه على تخوم مملكته و يطأ بجيوشه أطرافاً منها عزيزة عليه ليطلب منه الإسلام أو الجزية!!؟ و أية عزة هذه التي منحها الله لرسوله و للمؤمنين! ٣. و يضاف إلى ذلك كله رعب سائر القبائل المعادية، مثل عامله، و لخم، و جذام و سائر الذين جمعوا الجموع و أرادوا مهاجمة المسلمين.

و بذلك يكون النبي (ص) قد حقق في هذه الغزوة انتصاراً لم تحققه غزوة من غزواته، فلقد انهار ذلك الجيش الذي يبلغ مائتي ألف أو يزيد و انسحب عن خطّ المواجهة إلى حصونه و معسكراته و سلمت للمسلمين تلك المناطق المتاخمة لحدود الحجاز بعد أن التزم أهلها بالجزية و عاهدوا النبي (ص) على أن لا يتعاونوا مع أحدٍ؟؟.

١- راجع: التنبيه و الإشراف، ص ٢٣٦ و مكاتيب الرسول، ج ٢، ص ٤١٤، و تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٦٨.

ص: ٣٥٨

مسجد ضرار

عن ابن عباس و سعيد بن جبیر و غیرهما: أن مسجد قباء بُنی فی موضع کان لامرأة یقال لها «لَیْة» كانت تربط حماراً لها فيه، فابتنى سعد بن أبی خيثمة و بنو عمرو بن عوف مسجداً، فبعثوا إلى رسول الله (ص) یأتیهم فیصلی فیہ، فأتاہم و صلی فیہ، فحسدتهم أخوالہم عمرو بن عوف، فقال لهم أبو عامر الفاسق قبل خروجه إلى الشام: ابنوا مسجدکم، و استمدوا فیہ بما استطعتم من قوۃ و سلاح، فأتی ذاہب إلى قیصر، فأتی بجیش من الرّوم، فأخرج محمداً و أصحابه، فكانوا یرصدون قدوم أبی عامر الفاسق، و كانوا اثنی عشر رجلاً، و قيل: أكثر من ذلك.

فلما فرغوا من مسجدہم، أرادوا أن یصلی فیہ رسول الله (ص) لیرویج لهم ما أرادوه من الفساد و الکفر و العناد، فأتی جماعۃ منهم لرسول الله (ص) و هو یتوجہ إلى تبوک، فقالوا: یا رسول الله، إنا بنینا مسجداً لذي العلة و الحاجة و الليلة المظيرة، و إنا نحب أن تأتینا، فتصلی فیہ.

قال: إني على جناح سفرٍ و إذا قدمنا إن شاء الله صلينا لكم فيه. (١) إن النبي (ص) لم يظهر لهم أى شىء غير عادى، بل ذكر لهم أن شغل السفر يمنعهم من تلبية طلبهم. و هذا التأجيل يمنحه الفرصة لاستخراج دخالهم و لكى تكشف تقلبات الأحوال باطنهم للناس. فلما رجع رسول الله من غزوة تبوك و نزل بذي أوان، (٢) أنزل الله سبحانه و تعالى: «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً و كفراً....» (٣) أمر النبي (ص) جماعۃ من المسلمين بهدمه و إحراقه و أمر أن يتخذ كناسةً تلقى فیہ الجيف، كما روى عن

١- سبل الهدى و الرشاد، ج ٥، ص ٤٧٠، و ج ١٢، ص ٧٢ عن ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه و

البيهقي في الدلائل و الواقدي

٢- مكان، بينه و بين المدينة ساعة

٣- التوبة: ١٠٧.

ص: ٣٥٩

أبي عبدالله (ع). (١) وقالوا: إنَّ سبب تسمية مسجدهم بمسجد ضرار، أنَّهم كانوا يضارّون به مسجد قُباء، و ذلك أنَّه لَمَّا بنى عمرو بن عوف مسجد قُباء، الَّذي أسَّسه النَّبِيُّ (ص) لَمَّا قدم المدينة، و صلَّى فيه، قالت طائفة من المنافقين: نبى نحن أيضاً مسلماً كما بنوا، فنقل فيه (٢)، فلا نحضر خلف محمّد. (٣)

١- مجمع البيان، ج ٥، ص ١٢٦، و البحار، ج ٢١، ص ٢٥٤ عنه

٢- كذا فى الأصل، و الظاهر أنَّ الصحيح «فصلّى فيه»

٣- راجع: شرح المواهب اللدنيّة، ج ٤، ص ٩٩، و تخريج الأحاديث و الآثار، ج ٢، ص ١٠٢ و جامع البيان للطبري، ج ١١، ص ٣٣

ص: ٣٦٣

الفصل الثالث عشر حَجَّةُ الوداع

الأذان بالحجّ

قالوا: اقام رسول الله (ص) بالمدينة عشر سنين يُضحى كلّ عام ولا يحلق ولا يقصّر ولا يغزو المغازى ولا يحجّ، حتّى كان فى ذى القعدة سنّه عشر، أجمع الخروج إلى الحجّ، فأمر المؤذنين أن يؤذّنوا بأعلى أصواتهم: بأنّ رسول الله (ص) يحجّ فى عامه هذا؛ (١) حتّى بلغت دعوته إلى أقاصى بلاد الإسلام، فتجهّز الناس للخروج معه، وحضر المدينة، من ضواحيها و من حولها و يقرب منها خلق كثير و وافاه فى الطريق خلائق لا يحصون و كانوا من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله مدّ البصر.

وقد ذكرت الروايات: أنّ الذين خرجوا معه كانوا سبعين ألفاً، (٢) و قيل تسعون ألفاً. (٣) و قيل: مائه و عشرون ألفاً، (٤) و يقال أكثر من ذلك. (٥) قال العلامة الأمينى «هذه عدّة من خرج معه؛ إمّا الذين حجّوا معه، فأكثر من ذلك، كالمقيمين بمكّة و الذين أتوا من اليمن مع على (ع) و أبى موسى». (٦)

١- البحار، ج ٢١، ص ٣٩٠، عن الكافى، و الحقائق الناضرة، ج ١٤، ص ٣١٦

٢- البحار، ج ٣٧، ص ٢٠٢، و التفسير الصّافى، ج ٢، ص ٥٣

٣- الغدير، ج ١، ص ٩، و السيرة الحليّة، ج ٣، ص ٣٠٨

٤- البحار، ج ٣٧، ص ١٥٠، و الغدير، ج ١، ص ٩٠ و ٢٩٦

٥- راجع: الغدير، ج ١، ص ٩ و السيرة الحليّة، ج ٣، ص ٣٠٨

٦- الغدير، ج ١، ص ٩.

ص: ٣٦٤

لماذا هذا الاهتمام؟!

إنَّ حشد الأُمّة إلى الحجّ، وإرسال الكتب إلى أقصى بلاد الإسلام، وأمر المؤذنين بأن يؤذّنوا: بأنَّ رسول الله (ص) يحجّ في عامه هذا و... لم يكن مصادفه ولا كان استجابته لرغبة شخصيّة تقضى بجمع النّبى (ص) الناس حوله. فحاشاه من ذلك ولا لغير ذلك من أمور دنيويّة، فإنَّ النّبى (ص) لا يفكر ولا يفعل إلّا وفق ما يريد الله تبارك وتعالى.

ولعلّ الهدف من كلّ هذا الحشد هو تحقيق أمورٍ كلّها تعود بالنّفع العميم على الإسلام والمسلمين، ويمكن أن يكون منها مايلي:

١. إنّه أراد للنّاس المتمرّدين، بل والمنافقين، عند أوّل فرصة تنسح لهم، أن يروا عظمتهم الإسلام وامتداداته الواسعة، وأنّه لم يعد بإمكان أحد الوقوف في وجهه، فليأس الطّامعون، وليراجع حساباتهم المتوهّمون.

٢. إنّه يريد أن يربط على قلوب الصّغفاء ويشدّ على أيديهم ويُرِيهم عياناً ما يحصنهم من خدع أهل الباطل وكيد أهل الحقد والشّتان، ومن كلّ ما يمارسونه معهم من تخويف أو تضعيف.

٣. أن ينصب عليّاً (ع) إماماً وخليفه من بعده أمام كلّ هذه الجموع الهائلة. ليكونوا هم الشّهداء بالحقّ على أنفسهم وعلى جميع النّاس، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم.

وخرج (ص) من المدينة لأربع بقين من ذى القعدة، (١) فنهض إلى أن نزل بذي طوى، (٢) فبات بها ليلة الأحد، لأربع خلون من ذى الحجة، وصلّى بها الصّبح، ثم اغتسل من يومه، و نهض إلى مكّة من أعلاها، من الثّنية العليا، التي تشرف على

١- البحار، ج ٢١، ص ٣٨٩ و ٣٩٠ عن السّرائر، ص ٤٧٧ وعن الكافي (الفروع)، ج ١، ص ٢٣٣.

٢- وهي المعروفة اليوم بآبار الزّاهر.

ص: ٣٦٥

الحجون، ثم سار حتى دخل المسجد ضحى من باب عبد مناف وهو الذى تسميه الناس: «باب بنى شيبه» (١). فطاف بالبيت سبعة أشواط، ثم صلى خلف مقام إبراهيم وسعى بين الصفا والمروة بمن معه من المسلمين. وقدم على (ع) من اليمن على رسول الله (ص) وهو بمكة، فدخل على فاطمة (ع) وهى قد أحلت، فوجد ريحاً طيبة ووجد عليها ثياباً مصبوغة، فقال: ما هذا يا فاطمة؟ فقالت: أمرنا بهذا رسول الله (ص)....

ونزل رسول الله (ص) بمكة بالبطحاء هو وأصحابه، ولم ينزل الدور فلما كان يوم التروية عند زوال الشمس أمر الناس أن يغتسلوا ويهلّوا بالحج، فخرج النبى (ص) وأصحابه مهلين بالحج إلى عرفات ومضى طريقه إليها على منى، فنزل فيها وقيل الفجر من اليوم التاسع خروج منها إلى عرفات فنزل بها بقيته يومه، حتى غربت الشمس وذهبت الصيرة من ناحية المشرق، عند ذلك ركب ناقته ومضى، حتى أتى المزدلفة، فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان وإقامتين ولم يفصل بينهما وبات فيها. فلما أصبح أفاض منها، فلما اجتاز الوادى نزل ومضى، فرمى جمرة العقبة ونحر الهدى وحلق رأسه. ولما فرغ من أعمال ذلك اليوم، زار البيت ورجع إلى منى وأقام بها، حتى كان اليوم الثالث من آخر أيام التشريق كما جاء فى صحيح معاوية بن عمار (٢) - ثم رمى الجمار ونفر حتى انتهى إلى الأبطح ودخل من أعلى مكة من عقبة المدنين، ثم خرج من أسفل مكة عند غروب الشمس، (٣) واتجه إلى المدينة من يومه ولم يدخل المسجد الحرام ولم يطف بالبيت. (٤)

- ١- سبل الهدى والرشاد، ج ٨، ص ٤٦١ و ٤٦٢ عن الطبرانى، و راجع: المعجم الأوسط للطبرانى، ج ٣، ص ٢٣٨
- ٢- راجع: الكافى، ج ٤، ص ٢٤٨، والحدائق الناضرة، ج ١٤، ص ٣١٩، وتهذيب الأحكام، ج ٥، ص ٤٥٧، والبحار، ج ٢١، ص ٣٨٩ و ٣٩٣
- ٣- السيرة النبوية لابن كثير، ج ٤، ص ٤١٢، والسيرة الحلبية، ج ٣، ص ٣٣٥
- ٤- الكافى، ج ٤، ص ٢٤٨، والبحار، ج ٢١، ص ٣٩٣

ص: ٣٦٩

الفصل الرابع عشر غدير خم

توطئة و تمهيد

قال الله سبحانه و تعالى فى كتابه الكريم: «يا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» (١).

نزلت هذه الآية الشريفة فى حجة الوداع لتؤكد على لزوم تبليغ النبى (ص) ما أمر به من أمر الإمامة و ولاية على (ع) على الناس، كما ذكرته المصادر الكثيرة و الروايات الموثوقة.

إن من يراجع كتب الحديث و التاريخ، يجدها طافحة (٢) بالنصوص و الآثار الدالة على إمامة أمير المؤمنين (ع)، و لسوف لا يبقى لديه ادنى شك فى أن النبى (ص) لم يأل جهداً (٣) و لم يدخر وسعاً فى تأكيد هذا الأمر و تثبيتته و قطع دابر مختلف التعللات و المعاذير فيه، فى كل زمان و مكان، و فى مختلف الظروف و الأحوال.

و قد توجت جميع تلك الجهود باحتفال جماهيرى عام نصب فيه النبى (ص) رسمياً علياً (ع) بعد انتهائه من حجة الوداع فى مكان يقال له «غدير خم» و أخذ البيعة له فعلاً من عشرات الألوف من المسلمين. إن قضية الغدير رغم مرور الدهور و الأحقاب و بعد ألف و أربع مائة سنة، قد

١- المائدة: ٦٧

٢- طفح الإناء: امتلأ و ارتفع حتى يفيض فهو طافح

٣- ألا فى الأمر: قصرو أبطأ.

ص: ٣٧٠

بقيت و لسوف تبقى القضية الأ- كثر حساسية و أهميّة، لأنها الأكثر صلة بالإيمان و بالإنسان، و الأعمق تأثيراً في حياة هذا الكائن، و أكثر ارتباطاً بمستقبل هذا الإنسان و بمصيره، إن في الدنيا، و إن في الآخرة.

و هذا بالذات هو السر في احتفاظ هذه القضية بكل حيويّتها و حساسيّتها بالنسبة إليه على مرّ الدهور و تعاقب العصور. و ما ذلك إلّا لأنّ القضية لا تقتصر على أن تكون مجرد قضية خلافه و حكم و سلطة في الحياة الدّنيا، و لا هي قضية: أن يحكم هذا، أو يحكم ذاك لسنوات معدودة و ينتهي الأمر ... بل الأمر أهمّ و أخطر، و أدهى و أعظم من ذلك، كما أنّه ليس حدثاً عابراً فرضته بعض الظروف، لا- يلبث أن ينتهي و يتلاشى تبعاً لتلاشي و انتهاء الظروف التي فرضته أو أوجدته، و ليصبح في جملة ما يحتضنه التاريخ من الأحداث لا- يختلف عنها في شيء، و لا- أثر له في الحياة الحاضرة إلّا بمقدار ما يبعثه من زهوٍ و اعتزازٍ على مستوى المشاعر و الانفعالات، لا أكثر.

بل أمر الإمامة يمسّ في الصّميم حقيقة هذا الإنسان و مصيره و مستقبله، و دنياه و آخرته، و يؤثّر في مختلف جهات وجوده و حياته، فيكون ضرورةً للبشريّة و ليس فوقه ضرورة على الإطلاق، فعدم تبليغ الإمامة يجعل الدّين و الرّسالة بلا مضمون و بلا فائدة و يكون وجوده كعدمه تماماً، كما صرّحت به الآية الكريمة: «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ».

الصَّخْبُ وَ الغَضَبُ

(١)

لقد ذكرت الروايات الصّحيحة: أن رسول الله (ص) قد خطب النّاس في حجة الوداع في عرفه، فلمّا أراد أن يتحدّث في أمر الإمامة و ذكر حديث الثقلين، ثمّ ذكر

ص: ٣٧١

عدد الأئمة و أنهم اثنا عشر، واجهته فئات من الناس بالضجيج و القوضى، (١) إلى حد أنه لم يتمكن من إيصال كلامه إلى الناس. فتأخيره إبلاغ ما أنزل إليه في شأن الإمامة و الولاية، قد كان بسبب المعارضة الكبيرة التي يجدها لدى قريش، التي كانت لا تتورع عن واجهه النبي (ص)، ليس فقط بالضجيج و الصخب، و إنما باتهام شخصه، و الطعن و التشكيك في خلوص عمله و نيته. مع التذكير بأن الله تعالى لم يكن أمر النبي (ص) بأن يبلغ أمر الولاية على كل حال، بل وفقاً لظروف و مقتضيات النجاح، أي أنه أمره بإبلاغ منتج لا بإبلاغ عقيم. و كان (ص) يحتاج إلى ما يطمئنه إلى جدوى تبليغ أمر الإمامة و عدم إثارة قريش للشبهات التي تضيع جهده، ولو باتهامه في عقله أو في عصمته، فحين جاءته العصمة بادر إلى ما أمره الله تعالى به. فقد جاء في نص: أنه لما أمر (ص) بنصب على (ع) خشى من قومه و أهل النفاق و الشقاق أن يتفرقوا و يرجعوا جاهليّة، لما عرف من عداوتهم و لما تنطوى عليه أنفسهم لعل (ع) من العداوة و البغضاء و سأل جبرائيل أن يسأل ربه العصمة من الناس. ثم تذكر الرواية: أنه انتظر ذلك حتى بلغ مسجد الخيف. فجاءه جبرائيل، فأمره بذلك مرة أخرى، و لم يأت به بالعصمة، ثم جاء مرة أخرى في كراء الغميم (٢) و أمره بذلك، ولكنه لم يأت به بالعصمة، ثم لما بلغ غدير خم جاءه بالعصمة... (٣) و أخيراً نقول: الخير فيما وقع؛ فإن ما جرى في عرفه و منى و إظهار هؤلاء

- ١- قوم فوضى: متساوون لا رئيس لهم و قيل متفرقون و قيل مختلط بعضهم ببعض. أمرهم فوضى بينهم أي: هم مختلطون يتصرف كل منهم فيما للآخر
- ٢- موضع بين مكة و المدينة
- ٣- راجع: مناقب علي بن أبي طالب لابن المغازلي، ص ٢٥، و العمدة لابن البطريق، ص ١٠٧، و الاحتجاج، ج ١، ص ٧٣، و الغدير، ج ١، ص ٢٢.

ص: ٣٧٢

النَّاسَ عَلَى حَقِيقَتِهِمْ، وَ مَا تَبَعَ ذَلِكَ مِنْ فَوَائِدَ وَ عَوَائِدَ، قَدْ كَانَ ضَرُورِيًّا وَ لَازِمًا لِلْحِفَافِ عَلَى مُسْتَقْبَلِ الدَّعْوَةِ وَ بَقَائِهَا، فَقَدْ عَرَفَتِ الْأُمَّةُ الْوَفَى وَ التَّقَى مِنَ الْمَتَامَرِ وَ الْغَادِرِ، وَ الْمُؤْمِنِ الْخَالِصِ مِنْ غَيْرِ الْخَالِصِ، وَ فِي ذَلِكَ النَّفْعُ الْكَثِيرُ وَ الْخَيْرُ الْعَمِيمُ. «فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يُجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا» (١).

حديث الغدير

إِنَّ مَا جَرَى فِي يَوْمِ الْغَدِيرِ قَدْ جَعَلَ هَذَا الْيَوْمَ مِنْ أَكْثَرِ الْأَيَّامِ حَسَّاسِيَّةً وَ أَهْمِيَّةً لِلْإِسْلَامِ وَ لِأَهْلِهِ. وَ قَدْ أَصْبَحَ هَذَا الْيَوْمَ عِيدًا لَدَى طَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ، وَ اعْتَبَرَتْهُ طَائِفَةٌ أُخْرَى يَوْمَ بِلَاءٍ وَ عَنَاءٍ، تَتَعَامَلُ مَعَ كُلِّ مَا يَجْرِي فِيهِ بِالْحَقْدِ وَ الشَّنَآنِ. وَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، فَإِنَّ هَذَا الْيَوْمَ قَدْ حُظِيَ بِعَنَائَةٍ بِالْغَةِ، مِنْ حَيْثُ الْبَحْثُ وَ التَّقْصِي لِمَا قِيلَ فِيهِ وَ جَرَى، فَأُلِّفَتِ الْكُتُبُ الْكَثِيرَةُ مِنْذُ عَهْدِ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلِيِّ وَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

وَ نَحْنُ نَرِيدُ عَرْضَ مَا جَرَى مَعَ مَرَاعَاةِ الْإِخْتِصَارِ وَ نَبْدَأُ بِذِكْرِ مَا أوردَهُ صَاحِبُ كِتَابِ الْغَدِيرِ كَمَا يَلِي:

«فَلَمَّا قَضَى مَنَاسِكَه، وَ انصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَ مَعَهُ مَنْ كَانَ مِنَ الْجُمُوعِ الْمَذْكُورَاتِ، وَصَلَ إِلَى غَدِيرِ خُمٍ مِنَ الْجُحْفَةِ الَّتِي تَشَعَّبَ فِيهَا طَرَقُ الْمَدِينَتَيْنِ وَ الْمَصْرِيَّيْنِ وَ الْعِرَاقِيَّيْنِ، وَ ذَلِكَ يَوْمَ الْخَمِيسِ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ جَبْرِئِيلُ الْأَمِينُ عَنِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ...» وَ أَمَرَهُ أَنْ يَقِيمَ عَلَيًّا عَلَمًا لِلنَّاسِ وَ يَبْلُغَهُمْ مَا نَزَلَ فِيهِ مِنَ الْوَلَايَةِ، وَ فَرَضَ الطَّاعَةَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ. وَ كَانَ أَوَائِلُ الْقَوْمِ قَرِيبًا مِنَ الْجُحْفَةِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) أَنْ يَرْدَّ مِنْ تَقَدَّمَ

ص: ٣٧٣

منهم و يحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان، و نهى عن سِمَرَات خمس متقاربات، دَوَاحَات عظام، (١) أن لا ينزل تحتهنَّ أحدٌ، حتَّى إذا أخذ القوم منازلهم، فَقُمَّ ما (٢) تحتهنَّ.

حتَّى إذا نودى بالصَّلاة الظهر عمد إليهنَّ، فصلَّى بالنَّاس تحتهنَّ و كان يوماً هاجراً يضع الرَّجل بعض ردائه على رأسه و بعضه تحت قدميه من شدَّة الرَّمضاء، و ظلَّل لرسول الله (ص) بثوبٍ على شجرة سَمُرَة من الشَّمس.

فلَمَّا انصرف من صلاته، قام خطيباً وسط القوم على أكتاف الإبل، و أسمع الجميع، رافعاً عقيرته، (٣) فقال:

الحمد لله و نستعينه و نؤمن به و نتوكَّل عليه و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيِّئات أعمالنا، الَّذي لا هادي لمن أضلَّ و لا مضلَّ لمن هدى، و أشهد أن لا إله إلَّا الله و أنَّ محمداً عبده و رسوله. أمَّا بعد، أيُّها النَّاس، قد نبأني اللطيف الخبير: أنَّه لم يعمر نبي إلَّا مثل نصف

عمر الَّذي قبله، و إني أو شك أن أدعى فأجيب، و إني مسؤول و أنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنَّك قد بلَّغت و نصحت و جهدت، فجزاك الله خيراً

ثم قال: أيُّها النَّاس، ألا تسمعون؟ قالوا: نعم.

قال: فإنِّي فرط على الحوض، و أنتم واردون على الحوض، و إنَّ عرضه ما بين صنعاء و بُصرى (٤)، فيه أقداح عدد النُّجوم من فضَّة،

فانظروا كيف تخلّفوني في الثَّقَلين. (٥) فنادى منادٍ: و ما الثَّقَلان يا رسول الله؟

١- دوحات، جمع الدَّوْحَة و الدَّوْحَة: الشَّجرة العظيمة المتَّسعة من أى شجر كانت

٢- قَمَّ الشَّيْء قَمًّا: كَنَسَه و القمامة: الكناسه

٣- رافعاً عقيرته: رافعاً صوته

٤- صنعاء: عاصمة اليمن اليوم. و بُصرى قصبه كورة حوران من أعمال دمشق

٥- الثَّقَل: -فتح المثلثة و المثناة كلَّ شيءٍ خطير نفيس

ص: ٣٧٤

قال: الثقل الأكبر كتاب الله، طرف بيد الله عز وجلّ و طرف بأيديكم، فتمسكوا به لا تفلتوا؛ و الآخر الأصغر عترتي، و إنّ اللطيف الخبير نبأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا على الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدّموهما فتهلكوا، و لا تقصّروا عنهما فتهلكوا. ثمّ أخذ بيد علي، فرفعها حتّى روى بياض أباطهما، (١) و عرفه القوم أجمعون، فقال: أيّها النّاس، من أولى النّاس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله و رسوله أعلم.

قال: إنّ الله مولاي، و أنا مولى المؤمنين، و أنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلى مولاه يقولها ثلاث مرّات و فى لفظ أحمد، إمام الحنابلة، أربع مرّات ثمّ قال: اللّهم وال من والاه و عاد من عاداه، و أحبّ من أحبه، و أبغض من أبغضه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله، و أدّر الحقّ معه حيث دار. ألا فليبلغ الشاهد الغائب.

ثمّ لم يتفرّقوا حتّى نزل أمين وحي الله بقوله: «اليوم اكملت لكم دينكم و اتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام ديناً». فقال رسول الله (ص): الله أكبر على إكمال الدّين و إتمام النّعمة و رضى الرّب برسالتي و الولاية لعلى من بعدى.

ثمّ طفق القوم يهنّون أمير المؤمنين صلوات الله عليه و ممّن هنّاه فى مقدّم الصّحابة: الشّيخان؛ ابوبكر و عمر، كلّ يقول: بخّ بخّ لك يا بن أبى طالب، أصبحت و أمسيت مولاي و مولى كلّ مؤمن و مؤمنة.

و قال ابن عباس: وجبت والله فى أعناق القوم». (٢)

١- آباط، جمع إبط: باطن الكتف يذكّر و يؤنث

٢- الغدير، ج ١، ص ١١ ١٠

ص: ٣٧٥

في ظلال حديث الغدير

كان حديثنا في الفصل يهدف إلى إعطاء لمحة عن الحدث الخالد الذي جرى في غدير خم. ونريد هنا أن نعمق فهمنا لمرامي الأقوال و التوجيهات في المواقف المختلفة. لنستفيد الفكرة الهادية و الوعي الصّحيح و العميق لسياسة الإسلام، القائمة على الحق و العدل و الهدى الإلهي، فنقول:

١. الخروج السريع من مكة

إنّ من جملة ما لا بدّ أن يثير انتباه الناس، ليتبلور لديهم أكثر من سؤال هو إسراعه (ص) في الخروج من مكة، حتّى إنّ لم يطف بالبيت، بل هو لم يدخل المسجد الحرام أصلاً، و لو للإلقاء نظرة الوداع على بيت الله تبارك و تعالى. و لا أحد من الناس يجهل مدى علاقة النّبى (ص) ببيت الله و حبه له، فلا بدّ أن يتساءلوا عن أسباب هذه السّريعة في المغادرة، و أن يربطوا بين الخروج على هذا النحو و بين ما جرى في مكة و في منى، حيث واجهته قريش و بين ما يجرى في غدير خم.

٢. إرجاع المتقدّم و حبس المتأخّر

و إذا اتّصل بهذا الإجراء إجراء آخر يتمثّل في أنّه (ص) حين وصل إلى غدير خم، وقف حتّى لحقه من تأخّر بعده، و أمر برّد من كان تقدّم؛ فإنّهم سيعرفون أنّ ثمة أمراً سيحدث، و أنّه سيكون بالغ الأهمية أيضاً، و سيتوقّعون أن يكون اتّصاله بما جرى في منى و عرفات قوياً، و سيفتحون آذانهم و تتعلّق قلوبهم بكلّ حركة تصدر عنه، أو كلمة يتفوّه بها.

٣. الدّوحات الخمس منطقة محظورة

و يتأكّد هذا الأمر لديهم حين منعهم من التّزول تحت الشّجرات الخمس، دوحات المتقاربات العظام، اللّواتى أمر بإزالة الشّوك و تمهيد المكان عندها، حتّى إذا نودى بالصّلات عمد إليهنّ فصلّى بالنّاس تحتهنّ ثم نصب لهم عليّاً (ع).

ص: ٣٧٦

٤. دقة و بلاغة في أسلوب الإبلاغ

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ (ص) قَدْ اتَّبَعَ أُسَالِيْبَ بِالْغَةِ الدَّقَّةُ فِي وَاقِعَةِ الْغَدِيرِ، بِهَدَفِ رَفْعِ مَسْتَوَى الْإِطْمِينَانِ إِلَى دَقَّةٍ وَ شُمُولِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ بِمَا يَجْرِي، وَ اتَّسَاعِ نِطَاقِهَا إِلَى أْبْعَدِ مَدَى، حَتَّى لِيَكَادُ الْبَاحْثُ يَجْزِمُ بِأَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَدْ وَقَفَ عَلَى مَا يَرَادُ إِيقَافَهُ عَلَيْهِ وَ عَرَفَ حُدُودَهُ وَ تَفَاصِيلَهُ؛ بَلْ لَقَدْ صَرَّحَتْ بَعْضُ الزَّوَايَا بِهَذِهِ الشُّمُولِيَّةِ، بِالْقَوْلِ: «وَ أَخَذَ بِيَدِ عَلَى فَرَفَعَهَا حَتَّى عَرَفَهُ الْقَوْمُ أَجْمَعُونَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ...» (١) وَ فِي نَصِّ آخِرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ: فَقُلْتُ لَزَيْدٍ: سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص)؟ فَقَالَ: وَ إِنَّهُ مَا كَانَ فِي الدَّوْحَاتِ أَحَدٌ إِلَّا رَأَاهُ بَعِينَهُ وَ سَمِعَهُ بِأُذُنِيهِ. (٢)

٥. رفع مستوى اليقظة و التنبه

إِنَّ حُبْسَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَ إِرْجَاعَهُمْ، وَ انْتِظَارَ وَصُولِ وَاجْتِمَاعِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ سَيُشِيرُ لَدَى أَوْلَيْكَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِنْ سَوَالٍ وَ سَيَجْعَلُهُمْ أَشَدَّ انْتِبَاهًا وَ يَقْظَةً وَ سَعِيًّا لِفَهْمِ مَغْزَى هَذَا الْإِجْرَاءِ النَّبَوِيِّ، وَ لَنْ تَوْثُرَ سَائِرُ الصَّوَارِفِ عَلَى تَشْوِيشِ الْفِكْرَةِ الَّتِي يَرَادُ إِيْصَالُهَا إِلَيْهِمْ.

٦. حرّ الرَّمْضاء

وَ زَادَ مِنْ شُعُورِهِمْ بِخَطُورَةٍ مَا يَرِيدُ (ص) أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِمْ إِلَيْهِ أَنَّ هَذِهِ الْإِجْرَاءَاتُ كُلُّهَا إِنَّمَا تَتِمُّ فِي حَرِّ الْهَاجِرَةِ الَّتِي يَصْرَحُ بَعْضُ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُ كَانَ بِالْغِ الشَّدَّةِ إِلَى حَدِّ أَنْ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ يَقُولُ: «مَا أَتَى عَلَيْنَا يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ حَرًّا مِنْهُ» فَخُطِبَ خُطْبَتَهُ

١- جامع أحاديث الشيعة، ج ١، ص ٣٣، و كتاب الولاية لابن عقدة الكوفي، ص ٢٣٣، و ينابيع المودة، ص ٣٩ ٣٨، و الغدير، ج ١، ص ٢٥ و ٤٧

٢- الخصائص للنسائي، ص ٢١، و الغدير، ج ١، ص ٣٠ و ٣٤، و مناقب الإمام أمير المؤمنين (ع) للكوفي، ج ٢، ص ٤٣٥، و السنن الكبرى للبيهقي، ج ٥، ص ١٣٠.

ص: ٣٧٧

هناك، وبدأت إجراءات البيعة و التهنئة لعلی (ع).

٧. فليبلغ الشاهد الغائب

ثم إنه (ص) لم يتكل على ما يعرفه من رغبة الناس بنقل ما يصادفونه في أسفارهم، إلى زوارهم بعد عودتهم، فلعلّ أحداً يكتفى بذكر ذلك فور عودته، ثم لا يعود لديه دافع إلى ذكره في الفترات اللاحقة؛ فجاء أمر رسول الله (ص) لهم ليلزمهم بإبلاغ كل من غاب عن هذا المشهد، مهما تطاول الزمن، و جعل ذلك مسؤوليته شرعية في أعناقهم. و بذلك يكون قد سدّ باب التعلّل من أي كان من الناس بإدعاء أنّ أحداً لم يبلغه هذا الأمر، و أنّه إنّما كان قضية في واقعه، و قد لا ينشد الكثيرون لذكرها، إن لم يكن ثمة ما يلزمهم بذلك، و لعلهم قد كانت لديهم اهتمامات أخرى شغلتهم عنها.

الفصل الخامس عشر إلى الرفيق الأعلى

مرض النبي (ص) وصاياه

قال الحافظ: اختلف في مدّة مرضه (ص)، فالأكثر على أنّها ثلاثة عشر يوماً، و كان يخرج إلى الصّلاة إلا أنّه انقطع ثلاثة أيّام. قال في العيون: أمر رسول الله (ص) أن يصلّي بالنّاس، فصلّي بهم فيما روينا سبع عشرة صلاة، و رواه البلاذري عن أبي بكر بن أبي سبرة. (١) و أمّا وصاياه، فعن علي (ع) قال: «أوصاني النّبيّ (ص) إذا أنامتُ فغسلني بستّ قرب من بئر غرس، فإذا فرغت من غسلني، فادرّجني (٢) في أكفاني، ثمّ ضع فاك على فمي». قال: ففعلت، فأنبأني بما هو كائن إلى يوم القيامة». و روى نحو ذلك عن الإمام الصّادق (ع). (٣) و عن عمرو بن أبي شعبة، قال: «لما حضر رسول الله (ص) الموت، دخل عليه علي (ع)، فأدخل رأسه معه، ثمّ قال: يا علي، إذا أنا متّ فاغسلني و كفّني ثمّ أقعدني و سائلني و اكتب». (٤) و نقول: يدلّنا هذا النصّ على:

- ١- راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ١٢، ص ٢٤٤، و فتح الباري، ج ٨، ص ٩٨
- ٢- بصائر الدرجات، ص ٣٠٤، و البحار، ج ٤٠، ص ٢١٣ و ٢١٤ و ٢١٥، ج ٢٢، ص ٥٧١ و ٥١٤ عنه
- ٣- درج الثّوب درجاً: طواه ولفّه، و الشّيء في الشّيء: طواه و أدخله
- ٤- البحار، ج ٤٠، ص ٢١٣ و ٢١٤، ج ٢٢، ص ٥١٨.

ص: ٣٨٢

١. حياة النبي (ص) بعد موته: إن هذا النص يدل على أن النبي (ص) حي حتى بعد أن يموت. ولأجل ذلك نقرأ في زيارتنا للمعصومين (ع) و النبي (ص) أعظم شأنًا منهم: «أشهد أنك ترى مقامي و تسمع كلامي و تردّ سلامي» (١). بل قالوا: إن الأخبار قد تواترت بحياة النبي (ص) في قبره و كذلك سائر الأنبياء (٢). وقالوا أيضاً: إن صلاتنا معروضة على النبي (ص) و إن سلامنا يبلغه و هم أحياء عند ربهم كالشهداء (٣). و يؤكد ذلك النص القرآني على: أن النبي (ص) شاهد على أمته، قال تعالى: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً» (٤). و شهادته على الأمة لا تقتصر على خصوص من عاشوا معه في حال حياته.

٢. على (ع) هو الوصي: و غنى عن البيان: أن وصية النبي (ص) لعلی (ع) بأن يضع فمه على فمه، و سماعه منه ما هو كائن إلى يوم القيامة تؤكد أن لعلی (ع) خصوصية ليست لأحد سواه، و هي ترتبط بعلم الإمامة من خلال اتصاله بالنبي (ص) بعد موته.

و كان فيما أوصى النبي (ص) به علياً (ع) قوله: «ضع يا علي رأسی فی حجرک، فقد جاء أمر الله تعالى، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك و امسح بها وجهك، ثم وجهني إلى القبلة، و تولّ أمري، و صلّ على أول الناس، و لا تفارقني حتى تواريني في رمسي».

فأخذ علي (ع) رأسه، فوضعه في حجره ... إلى أن تقول الرواية: ثم قبض (ص) و يد أمير المؤمنين (ع) تحت حنكه، ففاضت نفسه (ص) فيها، فرفعها إلى وجهه،

١- راجع: عدّة الدّاعی لابن فهد الحلّی، ص ٥٦، و جامع أحاديث الشيعة، ج ١٢، ص ٣٦٥

٢- سبل الهدى و الرشاد، ج ١٠، ص ٤٦٦ و ٤٨٦، و ج ١٢، ص ٣٥٥ و ٣٥٦

٣- نفس المصدر، ج ١٢، ص ٣٥٥

٤- الأحزاب: ٤٥.

ص: ٣٨٣

فمسحه بها، ثم وجهه وغمضه ومدّ عليه إزاره، واشتغل بالنظر في أمره. (١) و كان ممّا أوصى به (ص): أن يدفن في بيته الذي قبض فيه، و يكفّن بثلاث أثواب: أحدها يمان، و لا يدخل قبره غير علي (ع). (٢) و يذكر نصّ آخر: أن ممّا أوصى به النّبيّ (ص) عليّاً (ع) قوله: «يا علي كن أنت و ابنتي فاطمة و الحسن و الحسين، و كبروا خمساً و سبعين تكبيره، و كبر خمساً و انصرف، و ذلك بعد أن يؤذن لك في الصّلاة».

قال علي (ع): بأبي أنت و أمي من يؤذن غداً؟ قال جبرئيل (ع) يؤذّنك. قال: ثم من جاء من أهل بيتي يصلّون على فوجاً فوجاً، ثم نساؤهم، ثم الناس بعد ذلك. (٣)

الكتاب الذي لم يكتب

اشاره

كان ابن عباس يذكر رزيّة يوم الخميس، و يبكي حتّى يخضب دمعهُ الحصباء (٤) و يقول: «الرّزيّة (٥) كلّ الرّزيّة ما حال بيننا و بين كتاب نبينا».

و ذلك أنّه لما اشتدّ برسول الله (ص) وجعه قال: «إيتوني بكتاب (أو بكتفٍ و دواة) أكتب لكم كتاباً لا (أو لن) تضلّوا بعده». و كان في البيت لَغَطٌ (٦) فنكل عمر،

١- الإرشاد للمفيد، ص ٩٨ ٩٤، و البحار، ج ٢٢، ص ٤٧٠ و ٥٢١

٢- البحار، ج ٢٢، ص ٤٩٣ و ٤٩٤، و ج ٨٧، ص ٣٧٩، و جامع أحاديث الشيعة، ج ٣، ص ٢٣١ و ٢٣٤ و ٣٥٠

٣- البحار، ج ٢٢، ص ٤٩٣ و ٤٩٤، و الوسائل (ط. مؤسسة آل البيت)، ج ٣، ص ٨٣

٤- الحصباء: الحصى، و الحصى: صغار الحجارة

٥- الرّزيّة: المصيبة

٦- اللَّغَط: الصّوت و الجَلَبَة و قيل: أصوات مبهمه لا تفهم.

ص: ٣٨٤

فرفضها رسول الله (ص). فقال عمر: إِنَّ النَّبِيَّ غَلَبَهُ الْوَجَعُ (أو يهجر) (١) و عندنا كتاب الله (أو و عندكم القرآن) حسبنا كتاب الله.

فاختلف أهل البيت و اختصموا و اختلفوا، أو كثر اللّغظ بين من يقول:

قَرَّبُوا يَكْتُبُ لَكُمْ، و بين من يقول: القول ما قال عمر.

فقال (ص): قوموا عني، و لا ينبغي عندي (أو عند نبي) التنازع. (٢) إساءات لمقام النبوة

و مع غُضِّ النَّظَرِ عن نسبة الهجر و الهذيان إلى النَّبِيِّ المعصوم؛ فَإِنَّا نلاحظ: أَنَّ الأمر لم يقتصر على ذلك، لأنَّهم قد ارتكبوا العديد من

الإساءات الأخرى أيضاً، مثل:

١. مخالفتهم لأمر الرسول (ص) و امتناعهم عن تلبية طلبه، و منعهم سائر من حضر من ذلك أيضاً.

٢. إِنَّهم قد رفعوا أصواتهم، و ضجّوا، و لغطوا في محضر رسول الله (ص)، و قد أمرهم الله بأن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النَّبِيِّ

(ص)، و أن يغضّوا أصواتهم عنده.

٣. إِنَّهم قد تنازعوا في محضره (ص) و لم يردّوا الأمر إلى النَّبِيِّ، حتّى طردهم من محضره، و قد نهاهم الله تعالى عن التنازع، و أمرهم

برّد ما يتنازعون فيه إلى الله و إلى الرسول.

٤. إِنَّهم أغضبوا رسول الله (ص) و فعلوا في حضرته ما لا ينبغي كما صرّحت به بعض النصوص.

١- صرّح به في شرح الشفاء للخفاجي، ج ٤، ص ٢٧٨ و لا بأس بمراجع جميع الهوامش في مكاتيب الرسول، ج ٣، ص ٦٩٣ ٧٠٢

٢- راجع: سبل الهدى و الرشاد، ج ١٢، ص ٢٤٨ عن أبي يعلى بسند صحيح عن جابر و عن ابن عباس كذلك، و الطّبقات الكبرى

لابن سعد (ط ليدن) ج ٢، ق ٢، ص ٣٧، و مسند أحمد، ص ٣٢٤ و ٣٢٦، و مكاتيب الرسول، ج ٣، ص ٦٩٣ و ٦٩٤ و ٦٩٦ في هامشه

عن البخاري، ج ١، ص ٣٩ و ج ٦، ص ١١ و ج ٧، ص ١٥٦ و ج ٩، ص ١٣٧ و فتح الباري، ج ١، ص ١٨٥ و ج ٨، ص ١٠٠ و ١٠١ و

ج ١٣، ص ٢٨٩.

ص: ٣٨٥

٥. إنهم قالوا: حسبنا كتاب الله، وهذا إقرار منهم باستبعاد السُّنَّة النبويَّة الشَّريفة عن التَّداول، مع أنَّ الله تعالى يقول لهم: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» (١) و ثبت عندهم حديث الثَّقَلين بصيغته «كتاب الله و سنتي» (٢) مع أنَّ القرآن فيه بيان كلِّ شيءٍ بلارِيب، لكنَّ إنما يعرف القرآن من خوطب به و كلِّ شيءٍ أصله في الكتاب ولكن لا تدركه عقول الرِّجال من سائر النَّاس، بل لا بدَّ من أن يرجعوا إلى من يفسِّره لهم، و هم خصوص النَّبيِّ الأكرم (ص)، ثمَّ الأئمَّة الطَّاهرون عليهم السَّلام من بعده، العارفون بتنزيله و بتأويله، و محكمه و متشابهه، و ناسخه و منسوخه، فلا أحد يستطيع استخراج حقايقه سواهم. و كيف يمكن لعمر، أو لغير عمر أن يعرف عدد ركعات الصَّلَاة اليوميَّة و شرايط الاعتكاف في المساجد، و سائر الأحكام الفرعيَّة من القرآن الكريم إلَّا بدلالةٍ مَن عنده أم الكتاب.

على أنَّ الوقائع قد بيَّنت عدم معرفتهم لمعنى الأب و عدم معرفتهم بالكلالة و بأمور كثيرة أخرى نطق بها القرآن.

لماذا يريد النبي (ص) الكتابة؟

و قد يسئل سائل عن السَّبب في لجوء النَّبيِّ (ص) إلى كتابة الكتاب؟ ألم يكن يكفيهِ ما جرى في يوم الغدير من البيعة و التَّهنئة لعلی (ع) بمقام الولاية؟ و نجيب:

أولاً؛ إنَّ نفس ما جرى في مرض موته (ص) من جرأةٍ و إباءٍ و إصرارٍ على عدم تمكينه من كتابة الكتاب يدلُّ على ضرورة كتابة هذا الكتاب.

ثانياً؛ لعلَّ هؤلاء النَّاس كانوا يخطِّطون إلى إنكار دلالة ما جرى، و الاعتماد على

١- الحشر: ٧

٢- راجع: المستدرک للحاكم، ج ١، ص ٩٣، و العلل لأحمد بن حنبل، ج ١، ص ٩ و جامع بيان العلم و فضله لابن عبد البر، ج ٢، ص ١٨٠، و الجامع الصغير، ج ١، ص ٥٠٥ و ٦٠٥، و السنن الكبرى للبيهقي، ج ١٠، ص ١١٤.

ص: ٣٨٦

إرهاق الحدث بالتأويلات و التملّحات الباطلة لتعمية الأمور على العوام. أو لعلهم يزعمون للناس أن أموراً قد استجدت و تقلّبات حدثت، دعت النبي (ص) إلى العدول عن ذلك الأمر حيث رأى أن صرف النظر عنه أصلح.

لماذا لا يصّر النبي على الكتابة؟

إذا كانت كتابة الكتاب ضرورية و إذا كان هو الذي يحفظ الأمة من الضلال، فلماذا صرف النظر عن كتابته، و لماذا يستسلم (ص) لما أراده عمر و غيره؟! ألم يكن الإصرار على كتابته هو المتعين؟ مادام أن نفع الكتاب الذي سوف يكتبه لا يقتصر على أهل ذلك الزمان، بل سيكون شاملاً للأمة بأسرها إلى يوم القيامة.

و نجيب: بما قاله العلامة السيد عبدالحسين شرف الدين (قدس سرّه):

«و إنما عدل عن ذلك لأنّ كلمتهم تلك التي فاجؤوه بها اضطرتّه إلى العدول، إذ لم يبق بعدها أثر لكتابة الكتاب سوى الفتنة و الاختلاف من بعده في أنّه هل هجر فيما كتبه و العياذ بالله أو لم يهجر؟

كما اختلفوا في ذلك، و أكثروا اللغو و اللّغط نصب عينيه، فلم يتسنّ له يومئذ أكثر من قوله لهم: «قوموا عني» كما سمعت.

و لو أصرّ فكتب الكتاب للجأوا في قولهم: هجر، و لأوغل أشياهم في إثبات هجره و العياذ بالله فسطروا به أساطيرهم و ملأوا طواميرهم، ردّاً على ذلك الكتاب و على من يحتجّ به.

لهذا اقتضت حكمته البالغة أن يضرب (ص) عن ذلك الكتاب صفحاً، لئلا يفتح هؤلاء المعارضون و أولياؤهم باباً إلى الطعن في النبوة، نعوذ بالله و به نستجير.

وقد رأى (ص) أن عليّاً و أولياءه خاضعون لمضمون ذلك الكتاب، سواءً عليهم أكتب أم لم يكتب، و غيرهم لا يعمل به و لا يعتبره لو كتب. فالحكمة و الحال

ص: ٣٨٧

هذه توجب تركه، إذ لا أثر له بعد تلك المعارضة سوى الفتنة كما لا يخفى. (١)

ملك الموت يستأذن على النبي (ص)

و روى أن جبرئيل (ع) قال للنبي (ص): إن ملك الموت يستأذن عليك، وما استأذن أحداً قبلك ولا بعدك. فأذن له فدخل و سلم عليه، و قال: يا أحمد، إن الله تعالى بعثنى إليك لأطيعك؛ أقبض أو أرجع؟ فأمره، فقبض. (٢)

يوم وفاة النبي (ص)

تضاربت الأقوال في وقت وفاة النبي (ص): فقيل: توفي يوم الإثنين من غير تحديد. (٣) وقيل: يوم الإثنين حين زاغت الشمس، أي ظهراً. (٤) وقيل: يوم الإثنين قبل أن ينتصف النهار. (٥) وقيل: يوم الإثنين في الضحى، و جزم به ابن إسحاق. وقيل: الأكثر على أنه اشتد الضحى. (٦) وقيل: توفي آخر يوم الإثنين. (٧)

- ١- المراجعات، ص ٢٨٤ و ٢٨٥، والنص والاجتهاد، ص ١٧٠ و ١٧١، والفصول المهمة، ص ٩١، فيما بعدها
- ٢- البحار، ج ٢٢، ص ٣٢٢، و راجع: ٥٣٢ و ٥٣٣ و ٣٣٤ عن المناقب لابن شهر آشوب، ج ١، ص ٣٠٦ و ٣٠٣
- ٣- البداية و النهاية، ج ٥، ص ٢٩٢، و سبل السلام، ج ١، ص ١٢
- ٤- تنوير الحوالك، ص ٢٣٨، و عمدة القارى، ج ٨، ص ٢١٨، و ج ١٨، ص ٦٠
- ٥- البداية و النهاية، ج ٥، ص ٢٧١ و ٢٧٥ و ٢٩٢
- ٦- سبل الهدى و الرشاد، ج ١٢، ص ٣٠٥ عن المنهل
- ٧- البداية و النهاية، ج ٥، ص ٢٧٥ و سبل الهدى و الرشاد، ج ١٢، ص ٢٤٦.

ص: ٣٨٨

متى دفن النبي (ص)؟

و تضاربت الأقوال أيضا في وقت دفن النبي (ص). فقليل: دفن يوم الأربعاء، أى بقى ثلاثة أيام لم يدفن، و كان يدخل عليه الناس أرسالا أرسالا، يصلون، لا يصفون و لا يؤمهم عليه أحد. (١) و وصف ابن كثير هذا القول بأنه من الأقوال الغريبة. (٢) و لا شك في غرابته، و قد ندب الإسلام إلى الإسراع في دفن الميت، فلماذا يخالف المسلمون هذا المستحب في حق نبيهم بالذات. و القول الأصوب و الأصح هو: أنه (ص) قد دفن بعد وفاته بساعات يسيرة و قبل أن يفرغ أهل السقيفة من سقيفتهم، كما روى ذلك عن أهل البيت (ع) بلا شك، و لعل فراغهم من السقيفة قد حصل ليلة الثلاثاء، لا سيما و أنهم قد انتظروا أبابكر حتى رجع من الشُّنح، (٣) ثم ذهبوا إلى السقيفة بعد رجوعه. قال المجلسي رحمه الله: «و وضع خده على الأرض، موجها إلى القبلة على يمينه، ثم وضع عليه اللبن (٤) و أهال عليه التراب، و كان ذلك في يوم الإثنين لليلتين بقيتا من صفر سنة عشر من هجرته (ص) و هو ابن ثلاث و ستين سنة». (٥) يضاف إلى ما تقدم: سؤال على (ع) حين فرغ من دفن رسول الله (ص) عن خبر اهل السقيفة. (٦) و ورد في بعض النصوص من أن النبي (ص) قد استشهد في سنة إحدى عشر و في البعض الآخر في سنة عشر كما تقدم عن المجلسي فلعله يرجع إلى أن أحد الفريقين قد لاحظ السنة الهجرية بمعناها الواقعي؛ أى التى مبدؤها ربيع

١- البداية و النهاية، ج ٥، ص ٢٩٢، و سبل الهدى و الرشاد، ج ١٢، ص ٣٣٠ و ٣٣٣

٢- البداية و النهاية، ج ٥؛ ص ٢٩٢

٣- الشُّنح: موضع بعوالى المدينة، و العوالى هى أماكن بأعلى أراضى المدينة

٤- اللبن: المضروب من الطين مربعا

٥- البحار، ج ٢٢، ص ٥١٩

٦- راجع: الأمالى للسيد المرتضى، ج ١، ص ١٩٨.

ص: ٣٨٩

الأول، و الآخرون جَرَوْا على التغير الذى قام به عمر بن الخطاب، حيث اعتبر أول السنة هو شهر المحرم.

جسد النَّبِيِّ (ص) يرفع إلى السماء

ثم إن رفع الأجساد إلى السماء ليس بالأمر الذى يصح التشكيك فيه، بعد تصريح القرآن و تواتر الحديث به؛ فإن معراج نبينا الأعظم بجسده و روحه ثابت بلا ريب، و قد أشارت إليه آيات القرآن الكريم (١) و الأحاديث الشريفة المتواترة. و هذا دليل على الوقوع فضلاً عن الإمكان.

كما أن الله تعالى قد أشار إلى رفع النَّبِيِّ إدريس إلى السماء، (٢) و قد صرحت الروايات: بأن الله تعالى قد قبض روحه هناك. (٣) كما أن عيسى (ع) قد رفعه الله إليه. (٤) غير أن الكلام إنما هو فى أن أجساد الأنبياء و الأوصياء، هل تبقى بعد موتهم فى قبورهم، أم أنها ترفع إلى السماء أيضاً؟ و على الثانى هل تبقى فى السماء، أم أنها تعود بعد مدّة إلى قبورهم فى الأرض؟

قد ذكر الشيخ المفيد و الكراجكى و الفيض الكاشانى و غيرهم: أن فقهاءنا و علماءنا متفقون على أن أجساد الأنبياء و الأئمة صلوات الله و سلامه عليهم، ترفع بعد دفنها إلى السماء، و ذلك استناداً إلى روايات رأوا أنها دالة على ذلك.

ولكن التتبع فى روايات الباب يعطى بأنه لا يمكن الاستدلال بها على أن أجساد الأنبياء ترفع إلى السماء سوى روايتين: الأولى: ما روى من النَّبِيِّ (ص) قال: أنا أكرم على الله من أن يدعى فى الأرض

١- الآية ١ من سورة الإسراء، و الآيات ١٨ ٥ من سورة النجم

٢- الآية ٥٧ من سورة مريم

٣- راجع: تفسير البرهان، ج ٣، ص ١٧ و

جامع البيان للطبرى، ج ١٦، ص ١٢١

٤- الآية ٥٥ من سورة آل عمران، و الآية ١٥٨ من سورة النساء.

ص: ٣٩٠

أكثر من ثلاث. (١) الثانية: عن أبي عبدالله (ع): لا تمكث جثة نبي ولا وصى في الأرض أكثر من أربعين يوماً. (٢)

مع احتمال أن يكون المراد بكلمة «فى» فى قوله: «فى الأرض» ليس هو الظرفية، بل الكينونة عليها بعد الموت، قبل الدفن، على حدّ قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ». (٣) ولكن يبقى أنّه لابدّ من الجمع بين رواية الثلاثة أيام و رواية الأربعين. و لم نجد فى النصوص ما يصلح قرينة للجمع بين هذين النصين، و لو بأن نحملهما على اختلاف درجات و مقامات الأنبياء سوى قوله (ص) فى الرواية نفسها: «أنا أكرم على الله...».

فإنّه قد اعتبر ذلك من الكرامة الإلهية له (ص)، و ليس فى الأنبياء من يدانيه فى ذلك. فيكون إبقاؤه لمدة ثلاثة أيام فقط خاصاً به (ص) و تمييزاً له عن غيره من الأنبياء عليهم السلام.

أمّا سائر الأنبياء، حتّى أولوا العزم، فإنّ الله أكرمهم برفعهم، غير أنّهم إنّما يرفعون بعد مضى أيام تصل إلى الأربعين. و إنّما قلنا ذلك لأنّ لحن الكلام يقتضى أن يكون رقم «الأربعين يوماً» قد جاء لتحديد الغاية القصوى، فلا مانع من أن يرفع بعضهم بعد موته بشهر، أو أقلّ، أو أكثر، بحسب ماله من مقام عند الله تعالى.

و آخر دعوانا أن الحمد لله تبارك و تعالى

١- البحار، ج ١٨، ص ٢٩٨ و ج ٢٦، ص ٣٠٣ و ج ٩٧، ص ١٣١، و كنزالفوائد للكراچكى، ص ٢٥٨، و مستدرک سفینه البحار، ج ٩،

ص ٥١٧

٢- البحار، ج ٩٧، ص ١٣٠، و

تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١٠٦، و المزار، ص ١٨٩

٣-

الزخرف: ٨٤.

ص: ٣٩٣

المصادر و المراجع

المصادر و المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. الآحاد و المثنائى لابن أبى عاصم، الضحاك، دارالدراية للطباعة و النشر و التوزيع، سنة ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م و ط دارالمعرفة.
٣. الاحتجاج لأبى منصور أحمد بن على بن أبى طالب الطبرسى، نشر دارالتعمان للطباعة و النشر، النجف الأشرف، سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م و ط سنة ١٣١٣ هـ.
٤. إحقاق الحق (الأصل) للشهيد نورالله التستري، ط مطبعة الخيام، قم، إيران.
٥. إحياء علوم الدين للغزالي، دارالمعرفة بيروت، لبنان.
٦. أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار، لإبى الوليد محمد بن عبدالله الأزرقى.
٧. الإختصاص، للشيخ المفيد، نشر دارالمفيد للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م و ط مؤسسة النشر الإسلامى، قم، إيران.
٨. الأربعين فى مناقب أميرالمؤمنين، للسيد جمال الدين عطاء الله بن الأمير فضل الله الشيرازى الدشتكى، مخطوط.
- ٩.

ص: ٣٩٤

١٠. الإرشاد، للمفيد، ط المكتبة الحيدريّة، النجف الأشرف، سنة ١٣٩٢ هـ ط سنة ١٣٨١ هـ ط مؤسسة آل البيت، و ط مكتبة الآخوندي، و ط دارالمفيد.
١١. أسباب نزول الآيات، للواحدى النيسابورى، ط مصر، سنة ١٣٨٧ هـ، و مؤسسة الحلبي و شركاه للنشر و التوزيع، القاهرة، سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.
١٢. الإستغاثّة، لأبى القاسم الكوفى.
١٣. الإستيعاب، ليوسف أحمد بن عبدالله أحمد بن محمد أحمد بن عبدالبزّ النمرى القرطبي، مطبوع بهامش الإصاغة، سنة ١٣٢٨ هـ فى دارالمعارف بمصر، و ط دارالجيل، بيروت، سنة ١٤١٢ هـ.
١٤. أسد الغابة فى معرفة الصحابة، لعلى بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشّيبانى المعروف بابن الأثير، ط دارالكتاب العربى و نشر مؤسسة اسماعيليان، طهران، ١٣٨٠ هـ.
١٥. إسعاف الرّاغبين فى سيرة المصطفى و فضائل أهل بيته الطّاهرين، للشيخ محمد بن على الصّبان المصرى الشافعى، مطبوع بهامش نور الأبصار، ط مطبعة الجمهوريّة، نصر.
١٦. أسنى المطالب فى مناقب على بن أبى طالب، لشمس الدين محمد بن محمد الجزرى الشافعى، مطابع نقش جهان، إيران.
١٧. الأصنام، لأبى المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، نشر مطبعة كتيبة، إيران، سنة ١٣٦٤ هـ.
١٨. إعلام الورى بأعلام الهدى، للطبرسى، ط دارالمعرفة، و نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ١٤١٧ هـ، و ط مؤسسة الوفاء و ط سنة ١٣٩٠ هـ.

٩١.

ص: ٣٩٥

٢٠. أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين العاملي، ط دارالتعارف، بيروت، و الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ.
٢١. الأغاني، لأبي الفرج الإصفهاني، ط دارالكتب العلمية، و ط سياسي، و ط دار إحياء التراث العربي.
٢٢. أمالي السيد المرتضى، للشريف أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين، الطبعة الأولى، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم، سنة ١٣٢٥ هـ، و ط سنة ١٤٠٣ هـ ط دارالكتاب العربي، بيروت، سنة ١٣٨٧ هـ.
٢٣. أمالي الشيخ، لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، الطبعة الأولى، نشر دار الثقافة للطباعة و النشر و التوزيع، قم، سنة ١٤١٤ هـ، و ط النجف الأشرف.
٢٤. أمالي الصدوق، لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن موسى بن بابويه القمي، الطبعة الأولى، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم، ١٤١٧ هـ، و طبع دارالمعرفة، و ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، و ط الحيدريّة، النجف، سنة ١٣٨٩ هـ هو ١٣٩١ هـ.
٢٥. أمالي المفيد، ط مؤسسة النشر الإسلامي، قم، و نشر دارالمفيد.
٢٦. إمتاع الأسماع، لتقي الدّين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، الطبعة الثانية، و منشورات محمد علي بيضون، دارالكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
٢٧. الأموال، لابن زنجويه، حميد بن مخلد.

٨٢

ص: ٣٩٦

٢٩. الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ١٣٨٨ هـ.
٣٠. أنس الجليل بتاريخ (في أخبار) القدس و الخليل، لأبي اليمن عبدالرحمان مجيد الدين العليمي الحنبلي، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٨ هـ.
٣١. أنساب الأشراف، للبلاذري، مؤسسه الأعلمي، بيروت، بتحقيق المحمودي، ١٣٩٧ هـ ط ليدن، و ط دارالمعارف بمصر، ١٣٥٩ هـ.
٣٢. الأنوار النعمانية، للسيد نعمه الله الجزائري، ط تبريز، إيران.
٣٣. الأوائل، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، مؤسسه الرساله، دارالفرقان، بيروت، ١٤٠٣ هـ.
٣٤. الأوائل، لأبي هلال العسكري، ط دمشق، ١٩٧٥ م.
٣٥. أوائل المقالات، للشيخ المفيد، مكتبة الداوري، قم.
٣٦. بحارالانوار، للعلامة المجلسي، ط حجرية، إيران، للمجلد الثامن، و ط إيران، ١٣٨٥ هـ، و ط مؤسسه الوفاء، بيروت.
٣٧. البحر المحيط (تفسير أبي حيان الأندلسي) لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دارالفكر، ١٤٠٣ هـ طبع دارالكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
٣٨. البدء و التاريخ، لابن زيد أحمد بن سهل المطهر ابن طاهر المقدسي القادري، ١٩٨٨ م.
٣٩. البداية و النهاية، لابن كثير، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٣ هـ ط مكتبة المعارف، بيروت.

.٠٤

ص: ٣٩٧

٤١. بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد، لأبي جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار، ١٣٨١ هـ، و منشورات الأعلمي، طهران، ١٤٠٤ هـ.

٤٢. بهجة المحافل في السير و المعجزات و الشمائل، للشيخ يحيى بن أبي بكر العامري، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

٤٣. تاريخ ابن الوردي، لعمر بن المظفر بن عمر التميمي الشهير بابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٩ هـ.

٤٤. تاريخ الإسلام، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، قسم المغازي، دارالكتاب المصري، القاهرة، و دارالكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠٥ هـ، و ط دارالكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٤٥. تاريخ الأمم و الملوك، دارالمعارف بمصر، و ط مؤسسة الأعلمي، بيروت، و ط مطبعة الإستقامة بالقاهرة، و ط ليدن.

٤٦. تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دارالكتاب العربي، بيروت، و ط دارالكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

٤٧. تاريخ جرجان، لحمزة بن يوسف السهمي، حيدرآباد، الهند، ١٣٨٧ هـ، و ط عالم الكتب للطباعة و النشر، بيروت، ١٤٠٧ هـ.

٤٨. تاريخ الخلفاء، للسيوطي، مكتبة السعادة بمصر، ١٣٧١ هـ.

٤٩. تاريخ الخميس في أحوال أنفيس نفيس، لحسين بن حمد بن الحسن الديار بكرى المالكي، ط مصر، ١٣٨٣ هـ.

٥٠. تاريخ مدينة دمشق، دارالكتب العلمية، و دارالفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ١٤١٥ و الأجزاء التي حققها المحمودي و

هي التالية:

١٥.

ص: ٣٩٨

- أ. ترجمة الإمام على (ع)، ط بيروت.
- ب. ترجمة الإمام الحسن (ع)، ط بيروت.
٥٢. تاريخ اليعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب، المعروف باليعقوبي، دار صادر بيروت، و ط المكتبة الحيدريه، النجف الأشرف.
٥٣. تبرك الصحابة و التابعين، للعلامة الشيخ على الأحمدى الميانجى، الدار الإسلامية، بيروت.
٥٤. تحف العقول، لابن شعبه الحراني، مؤسسه النشر الإسلامى، قم، ١٤٠٤ هـ، و ط النجف الأشرف، ١٣٨٥ هـ.
٥٥. تخريج الأحاديث و الآثار، لجمال الدين الزيعلى، دار ابن خزيمة، الرياض، ١٤١٤ هـ.
٥٦. تذكرة الخواص، لسبط بن الجوزى، ط النجف الأشرف، ١٣٨٣ هـ.
٥٧. تذكرة الفقهاء، للعلامة الحلى، مؤسسه آل البيت لإحياء التراث، إيران.
٥٨. التراتيب الإدارية (نظام الحكومة النبوية) للشيخ عبدالحى الكتاني، دار إحياء التراث العربى، بيروت.
٥٩. تصحيح اعتقادات الإمامية (تصحيح الاعتقاد) للشيخ المفيد، الطبعة الثانية، دارالمفيد، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، و ط تبريز، ١٣٧١ هـ.
٦٠. تفسير الإمام العسكرى، طبعة قديمة، النجف الأشرف و نشر مدرسة الإمام المهدي (عج)، قم، ١٤٠٩ هـ.
٦١. تفسير البرهان، للسيد هاشم الحسينى البحرانى، مؤسسه اسماعيليان، قم.

٢٦.

ص: ٣٩٩

٦٣. تفسير الثعلبي (الكشف و البيان) ليحيى بن محمد البغدادي، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، و نسخة مخطوطة.
٦٤. تفسير الصافي، للمولى محسن الملقب بالفيض الكاشاني، مكتبة الصدر، طهران، ١٤١٦ هـ، و منشورات الأعلمي، بيروت.
٦٥. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء الدمشقي، منشورات دار الفكر، و دارالمعرفة، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
٦٦. تفسير القمي، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمي، مؤسسة دارالكتاب، قم، ١٤٠٤ هـ.
٦٧. التفسير الكبير، للفخر الرازي، دارالكتب العلمية، طهران، و الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٦٨. تفسير مجاهد، لأبي الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي المخزومي، تحقيق عبدالرحمن الظاهر بن محمد السورتى، مجمع البحوث الإسلامية، إسلام آباد.
٦٩. التمهيد فى علوم القرآن، لمحمد هادى معرفت، مطبعة مهر، قم، ١٣٩٦ هـ.
٧٠. التنبيه و الإشراف، للمسعودى، دارالصاوى بمصر، ١٣٥٧ هـ، و دار صعب، بيروت.
٧١. تنقيح المقال فى علم الرجال، للشيخ عبدالله المامقاني، المطبعة المرتضوية، النجف الأشرف، ١٣٥٢ هـ.
- ٢٧.

ص: ٤٠٠

٧٣. تنوير الحوالك، شرح على موطأ مالك، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي، منشورات محمد علي بيضون، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، و دار إحياء الكتب العربية، مصر.
٧٤. تهذيب الأحكام، للشيخ الطوسي، دارالكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٤ و نشر المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.
٧٥. تهذيب الأسماء و اللغات، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، إدارة الطباعة المنيرية بمصر.
٧٦. تهذيب تاريخ دمشق، لعبدالقادر بدران، دارالمسيرة، بيروت.
٧٧. تهذيب سيرة ابن هشام، لعبدالسلام هارون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٧ هـ.
٧٨. تهذيب المقال في تنقيح كتاب الرجال، للشيخ أبي العباس أحمد بن علي النجاشي، تأليف السيد محمد علي موحد الأبطحي، الطبعة الثانية، نشر ابن المؤلف السيد محمد، قم، ١٤١٧ هـ.
٧٩. تيسير المطالب في أمالي الإمام أبي طالب، لأبي طالب يحيى بن الحسين الزيدي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٥ هـ.
٨٠. الثقات، لحمد بن حبان التميمي البستي، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ١٣٩٣ هـ - ١٩٩٣ م.
٨١. ثمرات الأوراق في المحاضرات، للشيخ تقى الدين أبي بكر بن علي المعروف بابن حجة الحموي، مطبوع بهامش المستطرف.
- ٢٨.

ص: ٤٠١

٨٣. جامع أحاديث الشيعة، للآقا حسين الطباطبائي البروجردى، المطبعة العلمية، قم، ١٣٩٩ هـ.
٨٤. جامع بيان العلم و فضله، ليوسف بن عبدالله النمرى القرطبي، ط المدينة المنورة، ١٣٨٨ هـ دارالكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨ هـ.
٨٥. جامع البيان (تفسير الطبرى) لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، مصر، ١٣١٢ و دارالفكر، بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
٨٦. الجامع لأحكام القرآن، ط دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، و ط دارالكتب العلمية، و ط مؤسسة تاريخ العربى.
٨٧. جامع المقاصد فى شرح القواعد، للمحقق الثانى الشيخ على بن الحسين الكركى، الطبعة الأولى، نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم ١٤٠٨ هـ.
٨٨. جوامع السيرة، لعلى بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى.
٨٩. جواهر الكلام فى شرح شرايع الإسلام، للشيخ محمد حسن النجفى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٩٨١ م، و دارالكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٥ هـ.
٩٠. الحاوى الكبير، لأبى الحسن الماوردى على بن محمد بن حبيب البصرى.
٩١. حقائق الأنوار، لإبى بكر محمد بن عمر المعروف بابن السراج الرازى.
٩٢. الحقائق الناضرة فى أحكام العترة الطاهرة، للشيخ يوسف البحرانى، مؤسسه النشر الإسلامى، قم.
٩٣. حلية الأولياء، لأبى نعيم الإصفهاني، دارالكتاب العربى، بيروت، ١٣٨٧ هـ.
٩٤. حياة الحيوان، لكمال الدين محمد بن موسى الدميرى، المكتبة الشرفية بالقاهرة، و ط دارالقاموس الحديث.

٥٩

ص: ٤٠٢

٩٦. حياة الصحابة، لمحمد بن يوسف الكاندهلوى، دارالنصر للطباعة، القاهرة، ١٣٨٩ هـ، و دارالوعى بحلب، سوريا، ١٣٩١ هـ.
٩٧. حياة محمد، لمحمد حسنين هيكل، الطبعة الأولى، مطبعة مصر، ١٣٥٤ هـ، و الطبعة الثانية، دارالكتب المصرية، ١٣٥٤ هـ.
٩٨. خاتم النبیین، لمحمد أبى زهرة، الدوحة (قطر)، ١٤٠٠ هـ.
٩٩. خدمات متقابل اسلام و ايران، للشيخ مرتضى مطهرى، ط إيران.
١٠٠. خصائص أميرالمؤمنين (ع)، لأبى عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٨ هـ، و ط التقدم بمصر، و مكتبة نينوا الحديثة، طهران.
١٠١. الخصال، للشيخ الصدوق القمى، مؤسسة النشر الإسلامى، قم، ١٤٠٣ هـ.
١٠٢. الدر المنثور، لعلی بن محمد الجبعی العاملى، مطبعة مهر استوار، قم، ١٣٩٨ هـ.
١٠٣. الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطى، دارالمعرفة، بيروت، و ط دارالفكر، و ط سنة ١٣٧٧ هـ.
١٠٤. الدر النظيم، للشيخ جمال الدين، يوسف بن حاتم الشامى المشغرى العاملى، مؤسسة النشر الإسلامى، قم.
١٠٥. دعائم الإسلام، للقاضى النعمان المغربى، دارالمعارف، مصر، ١٣٨٣ هـ.
١٠٦. دلائل الإمامة، لأبى جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبرى الصغير، الطبعة الأولى، مركز الطباعة و النشر فى مؤسسة البعثة، ١٤١٣ هـ.
١٠٧. دلائل الصدق، للشيخ محمد حسن المظفر، ط إيران، ١٣٩٥ هـ.

٨٠١

ص: ٤٠٣

١٠٩. دلائل النبوة، لأبى نعيم، دارالمعرفة، بيروت، ١٣٩٧ هـ.
١١٠. ذخائر العقبى، لأحمد بن عبدالله الطبرى، دارالمعرفة، بيروت، ١٩٧٤ م.
١١١. ربيع الأبرار و نصوص الأخبار، لأبى القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مطبعة العاني، بغداد.
١١٢. رسالة حول بنات النبي، مطبوعة مع مكارم الأخلاق، طبعة حجرية.
١١٣. الرسول العربى و فنّ الحرب، لمصطفى طلاس، ط ١٣٩٧ هـ.
١١٤. الروض الأنف، للسهيلى، شركة الطباعة الفنية المتحدة، مؤسسة نبع الفكر العربى للطباعة بمصر، و ط سنة ١٣٩١ هـ.
١١٥. روض الجنان فى شرح إرشاد الأذهان، للشهيد الثانى، طبعة حجرية، نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم.
١١٦. الرياض النضرة فى مناقب العشرة، لمحب الدين أبى جعفر أحمد بن محمد الطبرى، دارالكتب العلمية، بيروت، و ط محمد أمين بمصر، و ط الخانجى بمصر.
١١٧. سبل السلام، للسيد محمد بن إسماعيل الكحلانى، الطبعة الرابعة شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابى الحلبي و أولاده بمصر، ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م.
١١٨. سبل الهدى و الرشاد، للصالحى الشامى، ط مصر، و نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
١١٩. سعد السعود، للسيد بن طاووس، مطبعة أمير، قم، ١٣٦٣ هـ، و منشورات الرضى، قم ١٣٦٣ هـ.
١٢٠. سفينة البحار، للشيخ عباس القمى، مؤسسة فرهانى، إيران.
- ١٢١.

ص: ٤٠٤

١٢٢. السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دارالفكر، و ط الهند، ١٤١٩ هـ.
١٢٣. سير أعلام النبلاء، لشمس الدين، أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦ هـ، و ط سنة ١٤١٣ هـ.
١٢٤. السيرة الحلبية، لعلي بن برهان الدين الحلبي الشافعي، دارالمعرفة، بيروت، ١٤٠٠ هـ، و ط دار إحياء التراث العربي، و مطبعة مصطفى محمد بمصر، سنة ١٣٩١، و ط البهية بمصر.
١٢٥. سيرة المصطفى، للسيد هاشم معروف الحسني، دارالقلم، بيروت، ١٩٧٥ م.
١٢٦. سيرة مغلطاي، للشيخ علاء الدين مغلطاي بن قليج المصري، ط مصر، ١٣٢٦.
١٢٧. السيرة النبوية، لابن كثير، دارالمعرفة، بيروت، ١٣٦٩، و ط سنة ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
١٢٨. السيرة النبوية، لابن هشام، ط تراث الإسلام، و نشر مكتبة محمد علي صبيح و أولاده، مصر، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م، و ط دار الجيل، و المطبعة الخيرية بمصر، و ط سنة ١٤١٣ هـ، و ط دارالكنوز الأدبية.
١٢٩. السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، المطبعة العصرية، صيدا، لبنان.
١٣٠. السيرة النبوية و الآثار المحمدية، لأحمد زيني دحلان، دارالمعرفة، بيروت، و مطبوع بهامش السيرة الحلبية.
١٣١. شذرات الذهب، لابن عماد الحنبلي، المكتبة التجارية، بيروت.
- ٢٣١.

ص: ٤٠٥

١٣٣. شرح أصول الكافي، للمولى محمد صالح المازندراني، الطبعة الأولى دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠ م.
١٣٤. شرح التجريد، للقاضي القوشجي، ط حجرية، إيران، ١٣٠٧ هـ.
١٣٥. شرح الشفاء، للعلامة شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي.
١٣٦. شرح صحيح مسلم، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي الشافعي الدمشقي، مطبوع بهامش إرشاد الساري، و دارالكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، و ط دارالكتب العلمية.
١٣٧. شرح نهج البلاغة، لعزالدين عبدالحميد بن محمد بن أبي الحديد المعتزلي، المعروف بابن أبي الحديد، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي و شركاه، ١٣٨٧ هـ - ١٩٥٩ م، و منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م و ط سنة ١٩٨٣ م و طبع دار إحياء.
١٣٨. الشعر و الشعراء، لابن قتيبة الدينوري، دار صادر، بيروت، عن ط ليدن، ١٩٠٢ م.
١٣٩. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، لعبيدالله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٣ هـ، و مؤسسة الطبع و النشر التابعة لوزارة الثقافة و الإرشاد الإسلامي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
١٤٠. شواهد النبوة، لنورالدين عبدالرحمان بن أحمد الدمشقي الجامي الشافعي.
- ١٤١.

ص: ٤٠٦

١٤٢. صحيح ابن حبان، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، و مخطوط في مكتبة قوسراى فى استانبول.
١٤٣. صحيح البخارى، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم المغيرة بن بردزبة البخارى، ط الميمنية، و طبع مشكول و ط المكتبة الثقافية و نشر دارالفكر، بيروت، ١٩٨١ م، و ط دار إحياء التراث العربى، و ط محمد على صبيح بمصر و أولاده بالأزهر، مصر.
١٤٤. صفه الصفوة، لابن الجوزى، ط حيدرآباد الدكن، الهند، و ط دار الوعى، حلب، سوريا، ١٣٩٠ هـ.
١٤٥. الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيتمى المكى، المكتبة الميمنية بمصر، و دار الطباعة المحمدية، القاهرة، و دار البلاغة، مصر، و الطبعة الثانية، مكتبة القاهرة، ١٣٨٥ هـ.
١٤٦. الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر، ١٣٨٨ هـ، و ط ليدن و ط دار المعارف، مصر، و دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٤٠٥ هـ ط بيروت، ١٣٨٨ هـ.
١٤٧. العبر و ديوان المبتدأ و الخبر (تاريخ ابن خلدون)، لعبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى المغربى، مؤسسة الأعلمى، ١٣٩١ هـ، و الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربى، بيروت.
١٤٨. عدّه الداعى و نجاح الساعى، لأحمد بن فهد الحلّى، مكتبة وجدانى، قم.
١٤٩. علل الشرائع، للشيخ الصدوق، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٥ هـ - ١٩٩٦ م.
١٥٠. العلل و معرفة الرجال، لأحمد بن حنبل، ط أنقرة، تركيا، ١٩٦٣ م.
- ١٥١.

ص: ٤٠٧

١٥٢. العمدة، ليحيى بن الحسن الأسدي الحلبي المعروف بابن البطريق، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٧ هـ.
١٥٣. عمدة القارى، لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، و نشر دارالفكر.
١٥٤. عيون الأثر في فنون المغازى و الشمائل و السير (السيرة النبوية) لمحمد بن عبدالله بن يحيى - ابن سيد الناس، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر، بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، و ط دارالمعرفة، بيروت، و ط دارالحضارة.
١٥٥. عيون أخبار الرضا (ع)، لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م و ط دارالعلم، قم، ١٣٧٧ هـ.
١٥٦. الغدير في الكتاب و السنة و الأدب، للعلامة الأميني النجفي، دارالكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م، و ط مركز الغدير للدراسات الإسلامية، قم، ١٤١٦ هـ، و ط سنة ١٤٢٤ هـ.
١٥٧. غريب الحديث، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٩٨ م.
١٥٨. فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٠٠ هـ، و ط دارالفكر و ط دارالكتب العلمية.
١٥٩. الفتوح، لأبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي، دارالأضواء، بيروت، ١٤١١ هـ، و ط الهند سنة ١٣٩٥ هـ.
١٦٠. فجر الاسلام، لأحمد أمين المصري، ط بيروت، ١٩٦٩ م.
- ١٦١.

ص: ٤٠٨

١٦٢. فرائد السمطين، للشيخ إبراهيم بن محمد الجويني، دارالنعمان، النجف، و مؤسسة المحمودي، بيروت، ١٤٠٠ هـ.
١٦٣. الفصول المهمة في معرفة الأئمة، لابن الصّباغ المالكي، المكتبة الحيدريّة، النجف الأشرف، ١٣٨١ هـ.
١٦٤. فقه السيرة، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، ١٣٩٣ هـ.
١٦٥. قاموس الرجال، للشيخ محمد تقى التستري، مركز نشر الكتاب، طهران، ١٣٧٩ هـ، و مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٠ هـ.
١٦٦. الكافي، للكليني، ط دارالأضواء، بيروت، و ط مطبعة الحيدري، طهران، ١٣٧٧ هـ، و ط دارالكتب الإسلامية، ١٣٦٣ هـ. ش، و مطبعة النجف، ١٣٨٥ هـ.
١٦٧. الكامل في التاريخ، لعلّى بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير، دار صادر بيروت، ١٣٨٥ هـ، و ط سنة ١٣٨٥، و ط سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، و ط دارالكتاب العربي.
١٦٨. الكشاف، لأبى القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، و نشر شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده بمصر، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م.
١٦٩. كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء، للشيخ جعفر كاشف الغطاء، طبعة حجرية، انتشارات مهدوي، اصفهان.
١٧٠. كشف الغمة، لأبى الحسن على بن عيسى الإربلى، المطبعة العلمية، قم، ١٣٨١ هـ، و ط دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٥ م.
- ١٧١.

ص: ٤٠٩

١٧٢. كشف المحجّة لثمره المهجّة، لرضى الدين أبى القاسم على بن موسى، منشورات المطبعة الحيدريّة، النجف الأشرف، ١٣٧٠ هـ.
١٧٣. كفاية الطالب فى مناقب على بن أبى طالب، لأبى عبدالله محمد بن يوسف الكنجى الشافعى، المطبعة الحيدريّة، النجف الأشرف، ١٣٩٠ هـ.
١٧٤. كنز العمال فى سنن الأقوال و الأفعال، لعلاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى، حيدرآباد، الدكن، الهند، ١٣٨١، و ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، و ط سوريا.
١٧٥. كنز الفوائد، لأبى الفتح محمد بن على الكراجكى، دار الأضواء، بيروت، طبعة حجرية، مكتبة المصطفوى، قم، ١٣٦٩ هـ. ش.
١٧٦. اللآلى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة، لجلال الدين السيوطى، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥ هـ.
١٧٧. اللهوف فى قتلى الطفوف، لعلى بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس، منشورات مكتبة الداورى، قم، ١٣٣١ هـ.
١٧٨. مجمع البحرين، للشيخ فخرالدين الطريحي، المكتبة المرتضوية، طهران، الطبعة الثانية، مكتبة النشر الثقافة الإسلامية، ١٤٠٨ هـ.
١٧٩. مجمع البيان فى تفسير القرآن، لأبى على الفضل بن الحسن الطبرسى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٣٧٩ هـ، و مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، و مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٥٦.
- ٠٨١.

ص: ٤١٠

١٨١. مجمع الزوائد و منبع الفوائد، لنورالدين على بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، و الطبعة الثانية، دار الكتاب، بيروت، ١٩٦٧ م.
١٨٢. مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٥ هـ.
١٨٣. محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء و البلغاء، لأبي القاسم الحسين بن محمد الزاغب الإصفهاني، ط بيروت.
١٨٤. محاضرات الأوائل، لعلاء الدين البسنوي السكتواري، ط بولاق، مصر، ١٣٠٠ هـ، و دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٨٥. المحبر، لمحمد بن حبيب البغدادي، مطبعة الدائرة، ١٣٦١ هـ.
١٨٦. مختصر التاريخ، للشيخ ظهيرالدين على بن محمد المشهور بابن الكازروني، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٣٩٠ هـ.
١٨٧. مختصر تاريخ أبي الفداء، دار الفكر، بيروت.
١٨٨. مختصر تاريخ دمشق، لمحمد بن مكرم بن منظور، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٩ هـ ط استانبول.
١٨٩. مدينة البلاغة، لموسى بن عبدالله بن محمود الزنجاني.
١٩٠. مدينة معاجز الأئمة الإثني عشر، للسيد هاشم بن سليمان البحراني، مؤسسة المعارف الإسلامية، ١٤١٣ و ط حجرية.
- ١٩١.

ص: ٤١١

١٩٢. المراجعات، للسيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي، الطبعة الأولى، مطبعة العرفان، صيدا، لبنان، ١٣٥٥ هـ، و الطبعة الثانية، بيروت، تحقيق و تعليق حسين الراضي، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
١٩٣. مروج الذهب و معادن الجوهر، لعلی بن الحسين المسعودی، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٥ م و طبعة أخرى.
١٩٤. المزار، للشيخ المفيد، دار المفيد، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
١٩٥. المستجاد من فعلات الأجواد، لأبي علي المحسن بن علي التنوخي.
١٩٦. مستدرک سفینه البحار، للشيخ علي نمازي الشاهرودي، مؤسسة البعثة، إيران، ١٤١٠ هـ، و مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٨ هـ.
١٩٧. المستدرک علی الصحيحين، للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، ط الهند، ١٣٤٢ هو تحقيق يوسف عبدالرحمان المرعشلي.
١٩٨. مسند أبي يعلى، للحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، بيروت و دمشق، ١٤٠٧ هـ.
١٩٩. مسند أحمد بن حنبل، ط صادر، بيروت و طبعة الحلبي و ط دار الحديث، القاهرة و ط اليمينية، مصر ١٣١٣.
٢٠٠. مسند الكلايبي، لأبي الحسين عبد الوهاب الكلايبي المعروف بابن أخى تبوك، مطبوع بآخر مناقب علي بن أبي طالب، لابن المغازلي، ١٣٩٤.
٢٠١. المصباح، للكفعمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
٢٠٢. المصنّف، لأبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، الطبعة الأولى، المجلس العلمي، بيروت، ١٣٩٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٣٠٢.

ص: ٤١٢

٢٠٤. المصنّف، لعبدالله بن محمد بن أبى شيبة الكوفى، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م و ط السلفيّة، الهند، ١٣٩٩.
٢٠٥. معارج النبوة، للمولى معين الكاشفى، ط مكتبة لکنهو.
٢٠٦. المعارف، لأبى محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، دار المعارف، القاهرة، تحقيق الدكتور ثروت عكاشة، و الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م، تحقيق محمد إسماعيل عبدالله الصاوى، و مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٦٠ م.
٢٠٧. معانى القرآن الكريم، لأبى جعفر النّحاس، الطبعة الأولى، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٩ هـ.
٢٠٨. المعجم الأوسط، لأبى القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى، دار الحرمين للطباعة و النشر و التوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
٢٠٩. معجم البلدان، لشهاب الدين أبى عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى البغدادى، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨ و دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، و ط دار الكتب العلمية.
٢١٠. المعجم الكبير، لأبى القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى، مطبعة الأمة، بغداد، و نشر مكتبة ابن تيمية، و الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربى.
٢١١. معجم ما استعجم من أسماء البلاد و المواضع، لأبى عبيد الأندلسى، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
٢١٢. معرفة الصحابة، لأبى نعيم أحمد بن عبدالله الإصبهاني، مخطوط فى مكتبة طوب قپوسراى، رقم ٤٩٦.
- ٣١٢.

ص: ٤١٣

٢١٤. معرفة علوم الحديث، للحاكم أبي عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ النيسابوري، دار الآفاق الحديث، بيروت، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، و ط المدينة المنورة، ١٣٩٧.

٢١٥. المغازي، لمحمد بن عمر الواقدي، انتشارات إسماعيليان، طهران.

٢١٦. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٦ م، و مكتبة النهضة، بغداد.

٢١٧. مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الإصبهاني، الطبعة الثانية، أفسست عن الطبعة المصرية الأولى في القاهرة، ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م، و مؤسسة إسماعيليان، طهران، ١٩٧٠، و منشورات مكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٥ هـ.

٢١٨. مقتل الحسين (ع)، للخوارزمي، النجف الأشرف، و مكتبة المفيد، قم.

٢١٩. مقتل الحسين (ع)، للسيد عبدالرزاق المقرّم، ط الآداب، النجف الأشرف، ١٣٧٢ هـ.

٢٢٠. مكاتيب الرسول، للشيخ علي الأحمدى الميانجي، نشر مصطفى، ١٣٧٩ هـ، و المطبعة العلمية، قم، و دار الحديث، ١٩٩٨ م.

٢٢١. المناقب، للموفق بن أحمد البكري الخوارزمي، الطبعة الثانية، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١١ هـ، و ط تبريز، و ط النجف.

٢٢٢. مناقب الإمام علي (ع)، لأبي الحسن علي بن محمد بن المغازلي الشافعي، المكتبة الإسلامية، طهران، ١٣٩٤ هـ.

٣٢٢

ص: ٤١٤

٢٢٤. مناقب آل أبي طالب، لمشير الدين إبي عبدالله محمد بن علي بن شهر آشوب، ط المصطفوي، المطبعة العلميّة، قم، و ط دار الأضواء، بيروت، و ط المكتبة الحيدريّة، النجف، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦، و طبعة حجريّة.

٢٢٥. منتخب كنز العمال، مطبوع بهامش مسند أحمد، ١٣١٣ هـ.

٢٢٦. المهذب، للقاضي عبدالعزيز بن البرّاج الطرابلسي، مطبوع ضمن الينايع الفقهيّة، قم، ١٤٠٦ هـ، و مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٦ هـ.

٢٢٧. المواهب اللدنيّة بالمنح المحمديّة، لشهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني الشافعي، دار الكتب العلميّة.

٢٢٨. موسوعة التاريخ الإسلامي، للشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، الطبعة الأولى، مجمع الفكر الإسلامي، ١٤١٧ هـ.

٢٢٩. الميزان في تفسير القرآن، للسيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت - إيران، ١٣٩٤ هـ هو ط مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

٢٣٠. النبوة، للشيخ محمد حسن آل ياسين، دارمكتبة الحياة، بيروت، ١٣٩٢ هـ.

٢٣١. نزل الأبرار، للحافظ محمد البدخشاني الحارثي، مطابع نقش جهان، طهران، ١٤٠٣ هـ.

٢٣٢. نسب قريش، لمصعب الزبيري، دار المعارف، مصر.

٢٣٣. النص و الاجتهاد، للسيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي، الطبعة الأولى، مطبعة سيدالشهداء، قم ١٤٠٤ هـ، و ط كربلا، ١٣٨٦ هـ.

٢٣٤. النصايح الكافية لمن يتولّى معاوية، للسيد محمد بن عقيل العلوي، معطبة النجاح، بغداد، و دارالثقافة، قم، ١٤١٢ هـ.

٥٣٢.

ص: ٤١٥

٢٣٦. نهاية الإرب في فنون الأدب، لأحمد بن عبد الوهاب النويري، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢٣٧. النهاية في غريب الحديث و الأثر، لابن الأثير، الطبعة الرابعة، مؤسسة إسماعيليان، قم، ١٣٦٤ هـ. ش.
٢٣٨. نهج البلاغة، جمع الشريف الرضى (شرح الشيخ محمد عبده)، دار الإستقامة.
٢٣٩. نهج الحق و كشف الصدق، للعلامة الحلبي، مطبوع مع دلائل الصدق، مؤسسة الطباعة و النشر، دار الهجرة، قم، ١٤٢١ هـ، و مطبعة الصدر، ١٤٠٧ هـ.
٢٤٠. نور الأبصار، للسيد مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي، المطبعة اليوسفية، نشر مكتبة الجمهورية، مصر.
٢٤١. نور الثقلين (تفسير)، للشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، مؤسسة إسماعيليان، قم ١٤١٢ هـ، و مطبعة الحكمة، قم.
٢٤٢. نور القبس، ليوسف بن أحمد اليعموري، ط سنة ١٣٨٤ هـ.
٢٤٣. وسائل الشيعة، للشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي، آل البيت لإحياء التراث، قم، ١٤١٤ هـ، و الإسلامية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٣ هـ، و طبعة حجرية.
٢٤٤. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، لنورالدين علي بن أحمد السمهودي، ط بيروت، ١٣٩٣ هـ.

٥٤٢

ص: ٤١٦

٢٤٦. وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، لأحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨، و طبعة قديمة سنة ١٣١٠ هو نشر دار الثقافة، بيروت، تحقيق إحسان عباس.
٢٤٧. وقعة صفين، لنصر بن مزاحم المنقري، ط سنة ١٣٨٢ هـ.
٢٤٨. الولاية، لأبي العباس أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي.
٢٤٩. ينابيع المودة، للقندوزي الحنفى، ط اسلامبول، تركيا، ١٣٠١ هـ، و ط بمبئي، و ط دار الأسوة. (١)

١- السيد جعفر مرتضى العاملى تحقيق: على الرفيعى القوجانى،

صفوة الصحيح من سيرة النبى الأعظم صلى الله عليه و آله، ١ جلد، نشر مشعر - تهران، چاپ: ١.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
 جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).
 قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرِّضَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ
 كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنَادِرُ الْبَحَار - فِي تَلْخِصِ بَحَارِ الْأَنْوَارِ، لِلْعَلَامَةِ فِيضِ الْإِسْلَامِ، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرِّضَا (ع)، الشَّيْخُ
 الصَّدُوقُ، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصبهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه
 المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولا سيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و
 بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠
 الهجرية القمرية)، مؤسسه وطريقه لم ينطفئ مصباحها، بل تتبّع بأقوى وأحسن موقف كل يوم.
 مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصبهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)
 تحت عناية سماحه آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - ومع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب
 الجوامع، بالليل والنهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية وعلمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و
 عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسايل الدينيّة، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدلة أو الرديئة - في المحاميل
 (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامعة ثقافته على أساس معارف القرآن و اهل البيت
 -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هواء برامج العلوم
 الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...
 - منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات -
 في أكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.
 - من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريّة، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية و مكتبيه، قابلة للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبيعیه و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد
 جَمْعَرَان و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربي (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "پنج رمضان" ومفترق "وفائي" / بناءة "القائمة"
تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ والله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
أصبحان



للحصول على المكتبات الخاصة الأخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للإيحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩